صالح مرسي

الأعمال الكاملة

كنت جاسوساً في اسرائيل

رأفت الهجان

الطبعة الثانية

١

RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM

صالح مرسى

مكتبة بلدية نابلس العامة
٤ - شباط ١٩٨٩
الرقم ٣٩٨٣٦

كنت جاسوسا في إسرائيل

رأفت الهجان

00039836

٣٢٧,١٢.٩٦٢
صال

إلى شباب مصر

صلاح نصر

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٩٨٨

الناشر
ابوللو للنشر والتوزيع
١٦ شارع البورصه ـ التوفيقية ـ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ـ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

كلمـــــة الناشـــــر

عزيزى القارىء

تواعدنا يوم قدمت لك « الحفَّار » أن أتبعه بقصص أخرى حددتها بأنها « الصعـود إلى الهـاوية » « ثم دموع فى عيون وقحة » وهي أعمال للأستـاذ صالـح مرسي سبق نشرها وعرضها كفيلم سينمائى ومسلسل تلفزيونى وكنت أراها ـ كما ذكرت في كلمتى لك بالحفار ـ شعاع ضوء يكشف لك حقيقة الأسطوره التى روجت لها إسرائيل عن مخابراتها التى لاتقُهر ؟ !

يومها كان الأستاذ « صالح مرسي » يخطط لأعمال أدبية أخري بعيدا عن ميدان صراع المخابرات بعد أن قضى أكثر من عام يُعايش أحداث « الحفار » من خلال الوثائق ولقاءات مع عدد من الأبطال الذين خططوا ونفـذوا عملية نسف الحفـار الإسرائيلي . . وحـاولت عبثـا أن أحرضه ليبحث عن عمليات أخـري يقـدمها للقارىء لكنه رفض بإصرار لأن معاناته فى كتابة الحفار أجهدته بعد أن ظل مشدود الأعصاب لأكثر من عام ، فهـو لايكتب الأحـداث لكنه يعيشها بكل التفاصيل المثيرة مع أبطالها . . . قضى كل لحظة من هذا العام ترتجف أعصابه مع كل موقف مثـير ، ومـوجات الخوف والفزع والفرح والترقب تتدافع مع كل كلمة يقرؤها أو يسمعها أو يكتبها . . . لهذا قرر أن يبتعد لفترة عن البحث فى ملفات المخابرات ، كما أنه أراد أن يعيد تقديم نفسه للقارىء « روائيا » « وقـاصا » صدرت له العديد من الروايات والقصص عن البحر وعن هموم البسطاء . . . وأخذنا بالفعل نعد لإصدار هذه الأعمال مع وعد بأن

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

ننشر معها « الصعود إلي الهاوية » « ودموع في عيون وقحة » . . . ولم يمض وقت حتى انقطعت أخبار الأستاذ صالح عنى لأيام ثم أسابيع . .

وأخيرا ذهبت إليه لأجده غارقا فى أكوام من الوثائق وبجانبه جهاز تسجيل يديره ليسمع صوت عزيز الجبالي يحكى قصة « رأفت الهجان » . . . وجدت الأستاذ صالح انسانا آخر . . . اكلمه فلا ينصت . . . كان مشدود الأعصاب تماما لكل كلمة تأتيه من التسجيلات التى ملأت أكثر من ثلاثين شريطا . . . ثم يعود ليقلب الوثائق . . . ويحملق في بعض الصور . . .

انتزعته من هذه الحالة بعد جهد جهيد لأعرف أنه يعيش قصة بطولة نادرة . . . إنسان مصري عربى استطاع أن يخترق الأمن الإسرائيلى للنخاع ، وأن يعيش في إسرائيل وقريبا من مراكز صنع القرار ليقدم البرهان العملى علي أن الإنسان المصري العربى يملك القدرة الفذه علي تحقيق النصر الباهر في ميدان المخابرات . . . وبعد شهور المعاناة بدأت قصة « رأفت الهجان » تأخذ طريقها للنشر . . . وأضيفت حلقة رائعة من حلقات انتصار الإنسان المصري العربى في ميدان حرب الذكاء وانكشفت بفضل الله أولا ـ وبفضل الرجال أسطورة مخابرات العدو الإسرائيلى . .

وأخيرا هذا هو « **رأفت الهجان** » بين يديك . . لا أقول « كتابا » لكنه الإنسان المصري العربى ستحس بنبض قلبه في كل كلمة . . . وتلفح وجهك أنفاسه الحرة . . . وسيصبح آخر الأمر صورة مشرقة تعيش معك ، وتجعلك كلما تذكرت العدو الإسرائيلى تشمخ برأسك فخرا . . . وتتحسس سلاحك دائما **لتكون يقظا لغدر هذا العدو الذي لن يتوقف عن تدبير المؤامرات للعدوان علي كل ماهو عربى وكل ماهو مسلم . . .**

« السيد الغضبان »

حديث خاص
حول قضية عامة

●● فى علم المخابرات ، هناك قاعدة عامة تدرس لهؤلاء الذين يخطون خطواتهم الأولى فى هذا الميدان ، هذه القاعدة تقول : لادخل للعواطف فى العمل !

وهى واحدة من القواعد الذهبية التى كان الاستاذ « إسماعيل » يلقنها للأجيال الأولى من رجال المخابرات العامة المصرية. . . والاستاذ « إسماعيل » واحد من أعظم اساتذة هذا العلم . . . اسمه ليس « إسماعيل » بطبيعة الحال ، ثم . . . هو لم يمارس العمل كضابط عمليات . . . لكنه رجل وضعته الظروف ـ ظروف بناء مصر من فراغ كان ينخر عظامها ـ فى موقف المواطن الخلّاق ، الذى أصبح عليه ، بين يوم وليلة ، أن يدرس ويتعلم ويبحث ويحقق ويحلل ويتابع ، ثم يتشرب العلم بجهد أسطورى ، كى يسقيه للشباب كالشراب الطهور ! !

« لادخل العواطف فى العمل » قاعدة يحتفظ بها رجال المخابرات فى صدورهم احتفاظا يصل الى حد من القسوة - ربما على أنفسهم قبل الآخرين - فوق مايطيقه البشر . . . ذلك أن مثل هؤلاء الرجال ، لايتعاملون مع حقائق ذاتية أو فردية ، ولكنهم يتعاملون مع حقائق عامة . . . حقائق لاتمس أشخاصهم ولاعواطفهم ، وإنما تمس دولهم وشعوبهم وأممهم . . . ولقد يدرب بعضهم نفسه تدريباً شاقاً على مواجهة المآسى والتعامل معها بعقل بارد وقلب ميت . . . ذلك أن خللا بسيطا ووحيدا ، يحدث نتيجة لتدخل العاطفة فى لحظة عشوائية ، قد يدمر عمل سنوات طويلة من التدبير والسهر والصبر ، وقد يجر على الأمة من المخاطر . مالا يطيقه ضمير فرد ، أو حتى ضمير جهاز بأكمله ! !

غير أن رجل المخابرات ، أيا ماكان عقله بارداً وقلبه ميتا ، فهو فى البداية والنهاية إنسان . . . إنسان له قلب يخفق أراد أم لم يرد ، ووجدان - مهما حاول صياغته - ينتمى بالضرورة الى مايسمى بالعاطفة . . . هو إنسان قد يستطيع لعام ، أو عامين ، أو ثلاثة . . . وربما لعشرين عاماً كاملة - كما فى قصتنا هذه - أن يتعامل بهذا العقل البارد والقلب الميت مع « مادته » أو « موضوعه » أو « قضيته » ، يبذل كل مايستطيع من جهد لكيلا يخطىء خطأ واحداً ، ولايسمح بحال من الأحوال ، لعواطفه التى قد تجيش وتفور وتضطرم فى صدره ، أن تتدخل ولو لثانية واحدة، فيما يجب ألا تتدخل فيه . . . قد يستطيع رجل المخابرات أن يصنع هذا . . . ولكن ، هل يستطيع أن يتحكم فيما لاحكم له عليه ؟ !

هناك قاعدة ذهبية أخرى لقنها الاستاذ « إسماعيل » للرجال أيضا - تقول :

« إياك أن تقع فى حب العميل ! »

والعميل هنا هو الجاسوس . . . والجاسوس - رغم بشاعة الكلمة وماتحويه من معان قد تقشعر لها الأبدان - هو فى البداية والنهاية - أيضا - إنسان . . . وهو كانسان ، واحد من ثلاثة أنماط رئيسية استقر عليها رأى جهابذة هذا العلم منذ أن كان التاريخ والمجتمعات والحروب والصراع وحتى يومنا هذا. . . هذه الانماط الرئيسية هى :

●● إنسان يعمل من أجل المادة .

●● وآخر تستعبده شهواته .

●● وثالث يدفعه المبدأ والعقيدة لركوب المخاطر !. . . وهذا النوع لايصبح جاسوسا ، بل يطلق عليه اسم « مندوب » .

وقد لايتعاطف المرء مع هذا الذى يبيع نفسه ووطنه من أجل حفنة من المال . . . وقد لايحترم هذا الذى تستعبده شهواته وملذاته وعواطفه الدنيا . . . ولكن كيف - حتى وان كنت رجل مخابرات ذا عقل بارد وقلب ميت - كيف لاتتعاطف مع هذا الذى يضع رأسه على كفه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل - وبلا أدنى مبالغة - كل دقيقة من نهاره وليله ، من أجل خدمة وطنه وأمته وشعبه ؟ !

ان الرجل الذى يترك حياته الآمنة - متطوعا - فى وطنه ووسط عائلته ، كى يخترق مجتمع العدو ، ويزرع نفسه فيه . . . يتدين بدينه ، ويتحدث بلغته ، ويأكل طعامه ، ويشرب شرابه ، ويعيش كما يعيش أعداؤه ، يتظاهر بالفرح لفرحهم ، وبالحزن لحزنهم . . يحتفل معهم

بنصرهم وقلبه يدمى ، ويبكى لهزائمهم وقلبه يرقص طرباً . . . ويتحول من إنسان الى آلة تصوير وآلة تسجيل تحمِلُ كلتاهما إلى بلاده ، عبر قنوات سرية وأخطار مخيفة ، كل مايستطيع أن يحصل عليه من معلومات وأخبار ، أو مخاطر قائمة أو محتملة . . يحيا وحيدا حتى النخاع ومن حوله العشرات ، وربما المئات ، يحيطونه بالود والاجلال والاحترام ، يستمعون اليه ، ويُسمعونه من أنبائهم كل مايريد أن يسمعه ، يعيش فى ظل يخشى فى لحظة عمياء أن يغمره الضوء فيفتضح أمره ، ويتأرجح حبل المشنقة فوق رأسه كل ثانية ، يلازمه فى أحلامه ، وفى صحوه . . . مثل هذا الانسان لايصبح جاسوساً ، بل هو بطل من نوع فريد وفذ !

ومن أجل هذا ، فانهم هناك ـ فى أجهزة المخابرات فى العالم ـ ينظرون الى هذا النوع من الرجال ـ أو النساء ـ على أنهم يتربعون فوق قمة لاتدانيها قمة . . . ذلك أن مايقوم به هؤلاء الأبطال المجهولون . . . هو أرفع درجات الوطنية .

من هؤلاء الأبطال من ذهبت ريحهم وطواهم النسيان مع مايطوى من أسرار الدول والشعوب ... ومنهم من بقى حيا فى « أضابير » ختمت بخاتم السرية المطلقة . . . ذلك أن حياتهم ـ مهما مضى عليها من خطوات الزمن ـ هى جزء لايتجزأ من أمن شعوبهم ، يدفنون كسطور على ورق فى أقبية لاتصل إليها يد . . . وتمضى السنون ، وقد تحدث مصادفة ـ فى عالم لايخضع لقانون المصادفات ـ وتُفتح الأقبية ، وتخرج الى النور قصة يندر أن يطاولها خيال !

من هؤلاء العظماء السريين : « رأفت الهجان » .

و« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقى ، ليس اسمه فى مصر حيث ولد وعاش وتربى وتشرد وسُجن ، وحيث تعيش أسرته ـ حتى اليوم ـ فى لهفة لسماع كلمة عنه . . . حي هو أم ميت ، سجين هو أم طليق ، مشرد هو أم أنه استقر بعد طول ترحال غامض ، يتنقل بين السجون أم أنه يتنقل بين القصور ؟

« رأفت الهجان » ليس اسمه فى مصر ، كما أن « ديفيد شارل سمحون » ـ وهو الاسم الذى سوف نطلقه عليه ـ ليس اسمه الذى عرف به فى إسرائيل ، حيث ذهب اليها منذ ثلاثين عاماً كبطل من أبطال الصهيونية ، وغادرها بعد عشرين عاماً كواحد من أصحاب الملايين ، ورجل من رجال أعمالها البارزين !

« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقى ، لكنه الاسم الذى اختاره له صديق عمره ، وطوق نجاته ، والخيط الخفى الذى ارتبط به ارتباط الجنين بحبله السرُّى . . . عشرون عاما وهما يلتقيان فى كل يوم ، يتحدثان ، يتشاجران ، يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ويتناجيان معاً فى حب مصر!!

حدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة ، أو يرى أحدهما الآخر ، دون أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحبر السرى ، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال .

« رأفت الهجان » هو الاسم الذى اختاره له « عزيز الجبالى » ـ وهذا أيضا ليس اسمه !!! ـ ضابط المخابرات الذى تعرف عليه وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، ثم فرقهما القدر وقد تخطى الخمسين .

وإذا كان « عزيز الجبـالى » واحـدا من أنجب تلاميذ الاستـاذ « اسماعيل» ، وإذا كان مؤمنا إيمانا قاطعا بالقاعدة الذهبية التى تقول إنه « لادخل للعواطف فى العمل » . . . كما أنه مؤمن أشد مايكون الايمان بالقاعدة الماسية التى تقول : « إياك ان تقع فى حب العميل » فلقد كانت الأوراق التى كتبها « السيد عزيز » عن هذه « العملية » ليست سوى شحنة عاطفية متفجرة ... تلك الأوراق التى قدمت لى فى أحد أيام الصيف الماضى ـ بالتحديد فى يونيو ١٩٨٥ ـ فاعتذرت عن عدم قراءتها لأسباب شخصية ، ثم قدمت لى مرة ثانية وثالثة فى كرم لست أنكره وقد لااستحقه ، واعتذرت أيضا . .كنت اتملص محاولاً الخروج من شرنقـة هذا النـوع « الجـديد » من الأدب ، وأنا أشعر أنى ـ بما قدمت منه ـ قد أديت واجبى نحو وطنى وأمتى العربية !

غير أنى فى المرة الرابعة . وما إن وقعت عيناى على أولى الكلمات فى تلك الأوراق ، حتى وجدتنى أهوى معها الى هوة بلا قرار . . .وجدتنى أغيب عن الوعى لثلاث ساعات كاملة . . .كانت السطور « ملخصا » كتبه « ضابط الحالة » ـ CASE OFFICER ـ لكنها كانت ترفعنى الى السماء ، ثم تهوى بى الى الأرض فى واقع أسطورى شديد الغرابة . . فى سطور بعينهـا كانت الـدموع تتفجر من عينى رغما عنى ، وكنت أحاول جاهداً أن أوقفها ، لا لأنى لاأريد البكاء ، ولكن لأنى أريد المتابعة والدمع يمنعنى ... وفى سطور أخرى كنت أصفق كصبى بهره « السجيع » على الشـاشة وقد انتصر على أبطال الشرور . . ..وعندما كنت أقـرأ كيف عرض حزب « المـابـاى » الاسرائيلى على « رأفت الهجـان » ، أو « ديفيد شارل سمحون »، أن يرشح نفسه للكنيست

الإسرائيلى ، أحسست بزهو من أنجب عملاقا . . . ثم . . .
ثم يقول « عزيز الجبالى » فى مقدمة تلك الأوراق التى كتبها :

« . . . . وأتوقع أن ينبرى البعض فى إسرائيل ـ مدفوعا بالمكابرة والمغالطة ـ فيدعى أن السلطات الإسرائيلية كانت على علم بهذه العملبة ، وأنها كانت تسيطر عليهـا وتـوجههـا بمعـرفتهـا ولصالحها . . . ولهؤلاء عندى الكثير ، أقله وأبسطه ، أن دواعى السرّية والأمن ، اقتضت ـ بالضرورة ـ حجب بعض الـوقائع والتفاصيل وإنى اتحداهم أن يذكروا ولو واحدة ـ واحدة فقط ـ من هذه الوقائع ! » .

ثم . . .
ثم كانْ لابد أن التقى « بعزيز الجبالى » .

والتقيت به ، وجلست اليه لأكثر من أربعين ساعة على مدى ثلاثة أشهـر ، وسجلت له عشرين ساعـة وثـلاثـين دقيقـة . . و . . . وكم ضحكنا معاً ، وفرحنا معا ، ولفنا الحزن والأسى فى أحيان كثيرة . . . كم دمعنا وهو يحكى فى تدفق وحرارة يبعثان على الحيرة والعجب حقا !

وإذا كانت قصص التجسس فى العـالم كله ، إذا ماخـرجت إلى النورَ . . . لاتخرج بنصها وكما حدثت ، لأن هذا يبدو ـ من وجهة النظر الفنية ـ مستحيلا ، وهو أيضا يبدو ـ من وجهة النظر الأمنية ـ من رابع المستحيلات . . . وإذا كان الخلق الفنى نوعا من أستار السرية المفروضة والضرورية ، فهو أيضا نوع من تجميل تلك الجهامة المروعة التى تحيط عادة بالعمل السرى . . .إذا كان الأمر كذلك ، فانه لابد لهذا الخلق الفنى الـوافد والجديد ، أن يمتزج بالواقع « المتاح » للكاتب إمتزاجا

كيميائيا ـ إن صح التعبير ـ يستحيل بعده على القارىء أن يفرق بين الواقع والخيال .. أقول : إذا كان الأمر كذلك فإنى أتساءل قبل أن أخط كلمة واحدة فى هذا العمل :

هل يستطيع الخيال أن يرتفع الى مستوى الحقيقة ؟ !

مجرد سؤال لايمكن أن تكون إجابته عندى . . . غير أنى أقول : هذه قصة رجلين من جيل صنع لمصر ، وللأمة العربية كلها ، معجزات .. تحاول بعض قوى الشر أن تطمسها ! !●●

« ص . م . »

الفصل الأول

رسالة غامضة

كان الزائر قادما من ألمانيا الغربية ، وكان موعد عاجل قد حُدد له مع الفريق محمد سعيد الماحى ، مدير المخابرات العامة المصرية فى ذلك الوقت . . . لذلك فما ان وصلت سيارته الى بوابة مبنى الجهاز ، حتى أفسح لها الرجال الطريق الى الداخل ، بعد أن تحقق الحراس من شخصية الضيف .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة صباحا ، وكان اليوم هو أحد أيام يناير عام ١٩٧٩ ، وما ان هبط الشاب الوسيم من سيارته ، يحمل فى يمناه حقيبة أوراقه الحديثة والمزودة بأقفال مركبة تنبىء عن حرصه الشديد على ما تحويه من أوراق ، حتى وجد من يقوده فوراً إلى مكتب المدير !

بدا الشاب من هذا النوع الفارع الطول ، الشديد الأناقة ، الأشقر ، الملون العينين ، والذى ـ مع كل هذا ـ يبدو مصريا

مغتربا

ولقد كان يرتدى فوق بذلته معطفا أوربيا كان يحميه من تيار الهواء البارد الذى راح يجتاح تلك المساحة الخالية ، التى تفصل بين بوابة الجهاز ، وباب المبنى الرئيسى .

ولابد أن ذلك اللقاء بين مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ، وضيفه ، قد اتسم بكثير من الود ، فلقد ترك المدير مقعده وجلس إلى جوار الضيف فى الصالون الأنيق الملحق بمكتبه . . . وفى الحقيقة ، فإن الفريق الماحى لم يكن يعرف ، حتى لحظة لقائه بهذا الشاب الوسيم ، والذى كان معروفا للمصريين منذ سنوات ، خاصة بعد أن اتسمت أعماله فى الخارج بغير قليل من النجاح ، لم يكن يعرف شيئا عن سبب الزيارة . . . كل ماكان يعرفه ، أن رجل الأعمال المصرى الشاب « نهاد كامل » يحمل رسالة على درجة عالية من السرية من شخصية لايستطيع أن يبوح باسمها فى التليفون ، وأنه يريد أن يسلم الرسالة ، يدا بيد ، إلى مدير المخابرات العامة المصرية ، ولاأحد غيره !

ولقد مضت الدقائق الأولى بين المدير وضيفه فى تبادل كلمات المجاملة التى تسبق عادة تلك الأحاديث التى تتناول أمورا ذات أهمية خاصة . . بعد دقيقتين ، وضع بين المدير وضيفه ، كأسان من عصير الليمون الذى تفوقت بوفيهات الجهاز فى صنعه . . . ورشف كل منهما رشفة من كأسه ، وانتهت كلمات المجاملة ، ثم ساد الصمت !

توقفت عينا المدير عند وجه الشاب لبرهة . . . بدا له الوجه متناسق التقاطيع ، توحى ملامحه بطيبة صادقة ، كما أوحت نظرات العينين الملونتين بذكاء خفى . . . إذن ، فهذا هو « نهاد كامل » . . . ولقد كان نهاد الآن يبتسم ابتسامة بدت للمدير حائرة ، فاعتدل فى جلسته

قائلا :

« إيه حكاية الرسالة دى ياسيد نهاد ؟ ! »

قال الشاب وهو يتناول حقيبة أوراقه ويتلاعب فى أقفالها المركبة :

« الرسالة معايا يافندم ! »

ران الصمت مرة أخرى حتى مزقه صوت الأقفال وهى تفتح ، رفع نهاد غطاء الحقيبة وأخرج منها مظروفا أنيقا من ذلك النوع الذى يستعمله الموسرون والارستقراطيون فى أوربا الغربية . . . والتقطت عينا المدير على الفور حرفين بارزين فى ركن المظروف ، كان الحرفان هما : « D.S » - د . س . - تناول المدير المظروف ، وبدا عليه التردد للحظة ، فقال الشاب :

« تقدر سيادتك تفتحه قدامى ! »

رماه المدير بنظرة تساؤل فاستطرد :

« علشان لو فيه أى أستفسار ، أنا مستعد أجاوب عليه ! »

امتدت أصابع المدير إلى فتحة المظروف فاستجابت له ، أخرج الرسالة المكتوبة على الآلة الكاتبة ، وباللغة الانجليزية ، ثم فردها أمام عينيه . . . وكانت مكونة من سطر واحد !

« سيدى . .

فى اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، توفى الهر ديڤيد شارل سمحون »

وكان التوقيع بالآلة الكاتبة أيضا : « فراو سمحون » .

قبل أن يهم المدير بالحديث ، بادره رجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » وهو يومىء نحو الرسالة محاولاً تفسير ماقد يكون قد جال بخاطر المدير :

« أنا طلبت منها تكتب الرسالة بالانجليزى لانه معروف فى مصر أكتر من

الألمانى ! »

هز المدير رأسه علامة الفهم ، وكان الشاب قد أغلق حقيبته ، فرفع كوب الليمون الى شفتيه ورشف منه رشفة بدت وكأنها تحية أخيرة ، ثم نهض ، فنهض معه المدير ، وسار الى جواره حتى باب الغرفة وهو يردد كلمات شكر مقتضبة ، دلت على عنف الأفكار التى كانت تضطرب فى رأسه .

والذى لاشك فيه ، أن المدير كان ـ فى تلك اللحظات ـ يفكر فى عقد اجتماع عاجل مع واحد من معاونيه . . ولذلك ، فلقد صافح ضيفه عند الباب وهو يطلب إلى سكرتيره ـ الذى أحس بالحركة فنهض لاستقبال الضيف ـ أن يوصل السيد « نهاد كامل » حتى باب الجهار الخارجى !

عندما انصرف الضيف ، كانت سبع دقائق ونصف قد انقضت ، منذ دخل الغرفة !

●●●

فى الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ ، دخل إلى مطار القاهرة الدولى شابان فى مقتبل العمر . . وكانا يبدوان من رجال الأعمال الذين اعتادوا ـ فى السنوات الأخيرة ـ على السفر فى فترات متقاربة . . . ذلك أن جوازى سفرهما كانا يحملان تأشيرات عديدة لأختام عدد كبير من دول العالم شرقا وغربا . . . من اليابان ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية !

أما الأول فكان أسمر الوجه ، ذا ملامح خشنة وملابس شديدة الأناقة تشى بقدر هائل من الثراء المفاجىء . . . وكانت المهنة المدونة فى جواز سفره هى : صاحب محلات كبرى ـ تحمل اسمه المدون فى جواز السفر ـ فى حى من أكبر أحياء القاهرة التجارية . . . وكان الثانى وسيما ، ذا ملامح رقيقة وملابس

أنيقة فى اعتدال من يعرف معنى الأناقة ، وكانت المهنة المدونة فى جواز سفره هى : « مهندس تبريد » ، بنفس المحلات التى تحمل اسم الأول .

كان واضحا أنهما فى طريقهما لعقد صفقة هامة للثلاجات وأجهزة التبريد فى ألمانيا الغربية ، كما كان واضحا أيضا أنهما قررا السفر فجأة فى عصر ذلك اليوم ، حتى يلحقا بموعد هام فى الصباح بمدينة « هامبورج » . . . ذلك أن تذكرتيهما كانتا على طائرة الخطوط الجوية الباكستانية التى تغادر القاهرة فى المساء إلى باريس ، وذلك لتعذر وجود طيران مباشر إلى ألمانيا فى ذلك الوقت من اليوم وكان عليهما ـ بطبيعة الحال ـ أن يغيرا الطائرة فى باريس ، ليصلا فى فجر اليوم التالى الى « هامبورج » .

ولقد حدث أثناء انتظارهما لموعد إقلاع الطائرة الباكستانية ، أن فتح مهندس التبريد حقيبة أوراقه ، وأخرج منها ورقة ـ كان واضحا تماما أنها ورقة تلكس ـ وراح يقرؤها على زميله فى اهتمام ، ثم أخرج تذكرة السفر مؤكدا أنهما سيصلان فى الموعد . . . غير أنهما بعد لحظات من المناقشة ، راحا يقلبان فى بعض الأوراق والكتالوجات التى تحوى رسوما لثلاجات وأجهزة تبريد من ماركة ألمانية شهيرة ، واستغرقا فى المناقشة تماما ، حتى نادت فتاه المطار على طائرتهما !

●●●

فى ذلك الوقت ، كان مكتب رئيس هيئة الخدمة السرية فى جهاز المخابرات العامة المصرية ، يشهد اجتماعا برئاسة صاحب المكتب . . . وكان رجلا ذا شعر رمادى ، عريض الكتفين كبير الرأس ، أظهر مافى ملامحه هاتان العينان اللتان تبدوان وكأنهما فى حوار دائم مع أشياء مجهولة . . . فوق المقعدين الوثيرين المواجهين لمكتبه والملاصقين له ،

جلس رجلان يعبران الخطوات الأخيرة من ربيع العمر . . . على يمين المكتب ، جلس شخص رابع فوق مقعد يسمح له بأن يلقى بظهره الى الوراء ، وأن يعقد ذراعيه أمام صدره ، ويطبق شفتيه بعنف من يعانى فى داخله أزمة حادة !

كان الجالس خلف المكتب يمسك بيده تلك الرسالة الغامضة التى وصلت فى صباح نفس اليوم إلى مدير جهاز المخابرات من « فراو سمحون » !

كانت الرسالة ـ رغم قصرها البالغ ـ تحمل للرجال معانى كثيرة فى حاجة إلى تحليل ، وفى حاجة أكثر إلى تقدير موقف . كان معنى الرسالة ـ أولا وقبل كل شىء ـ أن « فراو سمحون » قد عرفت الحقيقة . . . وهى لاتستطيع أن تعرف الحقيقة إلا من « ديڤيد » نفسه . وعلى هذا ، فلابد أنها قد عرفتها منه قبل وفاته . فلماذا لزمت الصمت طوال هذه المدة ؟ !

لماذا لزمت الصمت طوال مايقرب من شهرين ؟ !

كان السؤال فى حاجة الى إجابة حاسمة ودقيقة فى نفس الوقت. . . إجابة قد نعثر عليها لو أننا لاحظنا أن اسلوب الرسالة ، وطريقة إرسالها فى نفس الوقت ، ينبئان عن خوف حقيقى وقاطع . . . فالمظروف الذى يحمل « البادج » الخاص باسم « ديڤيد سمحون » ـ د . س . ـ هو الدليل الوحيد على أن الرسالة قادمة من السيدة سمحون ، ذلك أنه ـ أى المظروف ـ لايحمل اسما ولاعنوانا . . . فهو مظروف من الممكن لأى أحد أن يحصل عليه من البيت أو المكتب أو حتى من المطبعة . . . ثم إن الرسالة نفسها مكتوبة على ورقة بيضاء ، وليست ورقة من نفس نوع

ورق المظروف ولاتحمل نفس «البادج» الذى يدل على صاحب الخطاب وحتى التوقيع الذى وضعته « فراو سمحون » كان مكتوبا بالآلة الكاتبة !

إن المعنى الوحيد لكل هذا ، أنها خائفة الى حد التنصل من الأمر كله إذا اقتضى الأمر !

ألا يكون هذا الخوف ، وهذا الاحساس بالخطر ، هما التفسير المنطقى للسؤال الأول ؟ ! وهو أنها انتظرت طوال تلك الأسابيع ، حتى وجدت من تثق به ، لتحمله هذه الرسالة وماتحويه من أسرار ؟ !

هذا ـ على كل الأحوال ـ ما كان الرجال قد توصلوا إليه فى الصباح ولذلك ، كان لابد وأن توضع كل هذه المحاذير نصب الأعين فى محاولة الاتصال بها التى رأى الرجال ـ فور علمهم بوصول الرسالة ـ أنها لابد أن تتم بأسرع مايمكن وبالفعل ، أوكلوا أمر الاتصال الى شابين من شباب الجهاز المشهود لهما بالكفاءة ، وسرعان ماجهزت الأوراق وجوازا السفر ولقد قال أحد الرجلين الجالسين على المقعدين المواجهين للمكتب ، إنهما ـ أى الشابين ـ الآن فى المطار ، وانهما لم يجدا وسيلة يصلان بها الى هامبورج فى الصباح ، سوى السفر على شركة الخطوط الجوية الباكستانية إلى باريس ، ومن باريس ـ فى فجر الغد ـ إلى هامبورج . . . وأن هذا سيكلفهما السهر والسفر طوال الليل بلا راحة . . . لكنهما بالتأكيد ، لن يلتقيا بالسيدة سمحون إلا بعد ظهر الغد ، وسيكونان قد حصلا على قدر مناسب من الراحة يجعل ذهنيهما صافيين وقادرين على استيعاب الموقف وماقد يترتب عليه من مضاعفات محتملة ! !

وعلى كل - هكذا استطرد الرجل - فلقد زوّدا بكل مايحتاجان اليه من معلومات ، وكل ماهو ضرورى من تعليمات ، وان « عزيز » - هذا اسم الجالس على يمين المكتب - قد لقنهما بكل الاحتمالات القائمة ، والتى قد تحدث اثناء عملية الاتصال التى كان المفروض أن تتم فى صباح اليوم التالى !

كان واضحا من الجدل الدائر ، أن الخبر - خبر وفاة ديڤيد شارل سمحون - لم يكن مفاجأة بالنسبة للرجال ، وأنهم عرفوا بخبر الوفاة فى نفس اليوم الذى حدثت فيه ... ومن بعض الكلمات التى تناثرت أثناء الحديث ، كان يمكن للمستمع أن يستنتج أن ثمة أزمة قد حدثت فى ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وأن جدلا على أعلى مستوى فى الجهاز قد ثار حول سفر « عزيز الجبالى » - هذا الجالس إلى يمين المكتب معقود الذراعين مزموم الشفتين محتقن الوجه - فلقد أصر على الاشتراك فى تشييع الجنازة فى اليوم التالى ، بحجة أنه : « لازم واحد فينا يكون جنبه قبل مايغيب جوه الأرض للأبد ! » ... كانت الجملة تبدو حاسمة فى منطقها ، لكن البعض - ممن اشتركوا فى الجدل يومها - كان يرى أن الشىء الذى حسم الأمر حسما نهائيا ، هو قول عزيز الجبالى :

« وعلشان يلاقى اللى يصلى عليه صلاة الجنازة قبل مايندفن ! »

كان ماطلبه - فى واقع الأمر - ضد كل قوانين الأمن وكل الأعراف السارية بصرامة فى أجهزة المخابرات فى العالم كله ... ولقد كان موضوعا فى الاعتبار ، أن بعض الشخصيات الاسرائيلية ذات المكانة ، قد تطير الى ألمانيا كى تشترك فى تشييع الجنازة ، فلم يكن « ديڤيد شارل

سمحون » شخصية اسرائيلية عادية ، بل كان رجل أعمال بارزا ، توسعت أعماله فى السنوات الأخيرة فشملت مجالات حيوية شديدة الأهمية ، كما كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية بل وسياسية على درجة رفيعة داخل اسرائيل ... ثم ، لقد كان من الممكن أن يسافر أى انسان آخر غير عزيز الجبالى كى يشيع الصديق الذى ذهب .. وكى يصلى غليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية ، لكن المدهش فى الأمر ، أن عزيز الجبالى - ولم تكن مكانته ولاخبرته ولامركزه تسمح له بأن يرتكب حماقة - أصر على الذهاب بنفسه .. ولم يكن أمام جهاز المخابرات المصرى - كمنظمة -!! - إلا أن يضع فى اعتباره تلك العوامل الانسانية تحت شرط واحد وصارم ، وهو أن تتوافر كل عناصر الأمن ، وفى اقصى درجاتها ، لعزيز الجبالى .

. . . .

. . . .

كان عزيز بطبيعة الحال قادرا على أن يوفر هذه العناصر على أعلى درجة من الكفاءة ... ولذلك ، فقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وقبل أن يصعد عزيز الى الطائرة فى طريقه الى ألمانيا الغربية عبر مسارات مركبة ومدروسة بعناية فائقة ... كانت برقية شفرية قد خرجت من القاهرة لتصل إلى مدينة « دوسلدورف » - حيث محطة الوصول بالنسبة لعزيز - حاملة نبأ وصوله .

وهو، عندما هبطت به الطائرة فى مطار « دوسلدورف » كى يركب خطا داخليا إلى مدينة هامبورج القريبة من « بريمن » حيث كان يعيش « ديڤيد شارل سمحون » ، لم يكن شىء قد زاد على هيئته سوى نظارة

طبية ذات تكوين خاص يوحى بأن صاحبها طبيب ظل ينحنى على مرضاه طوال سنوات تزيد على ربع القرن . . .فى المطار التقى بصديق كان فى انتظاره ، حتى إذا ماجاء صباح اليوم التالى كانا معاً فى « بريمن » ، وكانت ـ قبل وصولهما ـ « زيارة » قد رتبت للسيد عزيز كى يلقى نظرة أخيرة على الفقيد ، وأن يعطى الفرصة كاملة ، وفى أمان تام ، كى يصلى عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية !

رغم الحزن البالغ الذى كان يعتصر قلب عزيز على صديقه الراحل ، لم يستطع إلا أن يبدى اعجابه الشديد بأصدقائه وزملائه ورجاله فى ألمانيا الغربية ، الذين استطاعوا ـ فى زمن فوق القياسى ـ أن يرتبوا كل شىء بدقة تبعث على الدهشة . . . ففى الصباح المبكر لليوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، كانت هناك سيارة سوداء فاخرة ، تابعة لمحل « الحانوتى » الذى كان مكلفا باعداد جثمان المرحوم « ديڤيد شارل سمحون »، وكان عزيز يدلف إليها وقد ارتدى بذلة سوداء أنيقة وغالية الثمن ، من هذا النوع الذى يرتديه الكبار فى مثل هذه المهنة . . . وكان يضم الى صدره كتابا مقدسا ـ هو القرآن بالتأكيد ـ وكان ـ قبل أن يغادر مكمنه ـ قد توضأ وصلى ركعتين على روح الفقيد داعيا له بالرحمة . . .وعندما انطلقت السيارة فى شوارع « بريمن » ، كان « السيد » الجالس فى الخلف يتمتم بآيات من القرآن الكريم ، حتى اذا وصلت السيارة الى بيت المرحوم ديڤيد شارل سمحون ، وعند الباب الخلفى ، لا الأمامى ، توقفت السيارة ، وهبط منها عزيز يصاحبه المساعد ـ مساعد الحانوتى ـ الذى كان معروفا لأهل البيت والبلدة ، وكان يركب الى جوار السائق ! !

كان المساعد ـ الذى اشترك فى هذه الزيارة ـ مرتاح الضمير تماما ،

الرقم ٣٩٨٣٦

لا لأن عدد الماركات الألمانية الذى حصل عليه سراً كان مجزيا بحق ، ولكن لأنه كان يؤدى خدمة انسانية ودينية ! . فلقد قيل له ـ فى مساء اليوم السابق ، وبعد وصول رسالة شفرية كان مصدرها القاهرة ـ إن المرحوم « ديڤيد شارل سمحون » كان يتبع مذهبا خاصا فى الديانة اليهودية ، يحتاج إلى طقوس معينة ، وإن هذا السيد البادى الحزن الصامت القابض على الكتاب المقدس ، هو واحد من أصدقاء المرحوم ، فوق أنه رجل من رجال الدين . . . وعلى هذا ، فما ان توقفت السيارة السوداء أمام الباب الخلفى حتى فتح هذا الباب وظهر فيه رجل مسن ، أنيق المظهر ، بادره المساعد بالتحية فور رؤيته :

« صباح الخير فرانز ! »

« صباح الخير يوهان ! »

« كيف حال فراو سمحون هذا الصباح ؟ ! »

« لاتزال فى غرفتها ، وان كان الحزن سيقضى عليها ! »

« ماذا عن الصغيرين ؟ ! »

« سوف يحضران من المدرسة بعد قليل ! »

« هل كل شىء جاهز ؟ ! »

أفسح فرانز لهما الطريق :

« تفضلا من هنا ! »

« أرجو الا تقلق فراو سمحون كما اتفقنا ! »

« لاتخش شيئا ياصديقى . تفضلا ! »

قادهما فرانز العجوز ـ كبير الخدم فى البيت ـ إلى حيث الغرفة التى يرقد فيها جثمان الفقيد . . وعند الباب ، همس المساعد فى أذن كبير

٣٦٨/٣٦

الخدم :

« لم لاتقدم لى فنجانا من القهوة ؟ ! »

ولقد فهم فرانز ، على الفور ، ففتح بـاب الغـرفة موسعا الطريق لـ « السيد » ، ثم أغلق الباب وراءه !

وكـانت هذه ـ ربـما ـ أصعب لحظات مرت بضـابط المخـابـرات المصرى « عزيز الجبالى » فى عمره كله !

ذلك أن « عزيز الجبالى » لم يكن رجلا عاديا ، فلقد قضى من عمره خمسة وعشرين عاما فى مهنته تلك ، وهو ، عندما يتذكر مامر به من أحداث وتجارب ، لايملك نفسه من الدهشة والتساؤل : كيف يحتمل عمر إنسان واحد كلّ هذه الاحداث ؟ . . . ولقد عود نفسه وربّما ـ مثله مثل كل ضباط المخابرات فى العالم ـ على مواجهة كل الاحتمالات مهما كانت ، لكنه ـ فى ذلك الوقت المبكر من الصباح ، وعندما دخل إلى الغرفة التى تضم جثمان صديقه فى صندوق أنيق من خشب غالى الثمن ـ كان مستعدا لمواجهة أى موقف يطرأ بين لحظة وأخرى إلا أن يجد نفسه فى مواجهة ، صريحة ، مع « ديڤيد » !!

عشرون عاما قضاها معه ... عشرون عاما لم يكفا عن الحوار يوما حتى أصبح « ديڤيد » جزءا من حياته ، وجزءا هاما وخطيرا من أمن أمته والشعب الذى ينتمى اليه . . . وهو عندما دلف إلى الغرفة ، كان يظن أنه سيقف أمام صندوق مغلق ، لكن المفاجأة كانت أن غطاء الصندوق مرفوع وأن ديڤيد كان يرقد هناك بملابسه كاملة !

عاش كل هذه السنوات مع ديڤيد دون أن يلتقيا مرة ، وكم تمنى لو أن هذا حدث ، ولكم طالب ديڤيد بأن يراه طوال تلك السنين ،

ولكن ... هاهما يلتقيان ـ لأول مرة ـ وقد رحل أحدهما إلى العالم الآخر . .

وقف عزيز ينظر الى الوجه الساكن أمامه ، نفس الوجه الذى رآه فى صورة صغير ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى القاهرة منذ مايقرب من عشرين عاماً ، نفس الابتسامة التى تدعوك الى الثقة بصاحبها والحذر منه فى نفس الوقت ، نفس السماحة والملامح المنبسطة حتى يصبح من الصعب تحديد هوية صاحبها !!

دمعت عيناه !!!

نعم .. حدث هذا !

لكنه سرعان ماتمالك حزنه ، ووضع نظارته الطبية وفتح المصحف ، وراح يقرأ سورة « يس » !

بعد أن انتهى من القراءة ، وضع المصحف جانبا ، ثم كبر للصلاة ... ووقف يصلى !

عندما سلم عزيز منهيا صلاته ، أحس براحة شديدة تغمره وكأنه أزاح عبئا كان يثقل كاهله ... ومالبث أن نظر فى ساعته ، وكان عليه أن ينصرف فهمس :

« مع السلامة يارأفت »

. . . .

. . . .

ظل الحوار دائرا فى مكتب رئيس شعبة الخدمة السرية بعض الوقت ... وفى الحقيقة ، فلقد كانت هناك نقطتان دار حولهما الحوار ... أما النقطة الأولى فهى : ما الذى يمكن أن يقال للسيدة سمحون أذا ماسألت عن حقيقة زوجها ؟ ، ولأن الرجال لم يكونوا يعرفون مدى معرفتها بالأمر كله ، فلقد كان القرار الذى اتخذ فى ذلك

الاجتماع هو أنه من الأفضل أن توضع الحقيقة بين يديها كاملة ، إن من حق ولديها أن يعرفا أى رجل كان « ديفيد شارل سمحون » .

أما النقطة الثانية فكانت : ماالذى يمكن أن تقدمه مصر للسيدة سمحون وولديها منه ؟ !... إنها بالطبع لن تكون فى حاجة الى المال ، فلقد ترك لها ديفيد عددا لابأس به من ملايين الماركات الألمانية والدولارات الأمريكية ، كما أنها ـ وهى سيدة أعمال ـ تملك عددا من الملايين لايقل عما كان يملكه زوجها ... ولذلك ، فلقد استقر الرأى على أن تعامل السيدة سمحون هى وولداها كما لو كان ديفيد نفسه هو الذى يطلب !

وهكذا استقر الأمر ، وانتهى الاجتماع !

●●●

فى التاسعة من صباح اليوم التالى لوصول هذه الرسالة الغريبة الى القاهرة ... دق جرس التليفون فى بيت المرحوم « ديفيد شارل سمحون » الاسرائيلى الجنسية ، والذى كان يعيش فى مدينة « بريمن » الألمانية ، التى لاتبعد كثيرا عن مدينة هامبورج ، منذ أكثر من خمس سنوات مع زوجته سيدة الأعمال الألمانية التى كانت تحمل اسم « هيلين ريشتر » قبل أن تقترن به ، وولديها اللذين كانا يحملان اسمين غريبين على الآذان فى ألمانيا ... غير أن بعض من تعرف إلى عائلة سمحون فى بريمن ، أرجعوا الاسمين إلى اللغة العبرية ! !

لم يكن بيت الهر « سمحون » قصرا بالمعنى المعروف لهذا الكلمة ، كما أنه لم يكن « فيللا » صغيرة ... بل كان بيتا ذا طراز خاص ، يوحى لمن يراه ، بأن صاحبه بالقطع من أصحاب الملايين ... وكان أكثر مايميز حديقته ، تلك النباتات التى تنمو عادة فى الشرق الأوسط ،

والتى كان الهر سمحون يعشقها عشقا بالغا ، ويصر ـ خاصة فى أيامه الأخير ـ على رعايتها بنفسه .

فى الـداخـل . . . كان بهو البيت واسعا ، ومكونا من ثلاثة أقسام ينساب كل قسم منها الى الآخر من خلال تنويعات الأثاث والديكور ، انسيابا ينبىء عن ذوق رفيع . . . كان الأثاث فاخرا ، والستائر البيضاء مسدلة على النوافذ الزجاجية فيما عدا الباب المؤدى الى الحديقة ، حيث كانت « فراو سمحون » تجلس الآن ، فلم تكن هناك ستائر تحجب عنها المنظر الجميل لحديقة بيتها ... على الحيطان ، علق عدد بسيط ومتناثر ومتباعد فى نفس الوقت ، من اللوحات الثمينة ، بحيث تبدو كل لوحة وكأنها فى معرض قائم بذاته ، لاتشغل العين عنها لوحة أخرى ، أو حتى تحفة غالية الثمن ! ! . . . فى الصدر تماما كان البيانو الأبيض هو أكثر مايجذب نظر الزائر ، فلقد كانت المساحة المحيطة به ، تكاد تكون خالية الا من مقعدين يرجع طرازهما الى القرن الخامس عشر !

عندما دق جرس التليفون ، كانت فراو سمحون قد انتهت لتوها من قراءة مقال فى إحدى المجلات الاقتصادية الشهيرة . . . وكان المقال الذى استغرقت فى قراءته باهتمام أثناء تناولها لقهوة الصباح ، مليئا بالأرقام والرسوم البيانية غير أن هذه الرسوم ، مع بعض الصور المنشورة لبغض رجال الأعمال العرب ، كانت توحى بوضوح بأن المقال يدور حول البترول .

ومنذ قرابة شهرين ، عندما توفى الهر « ديڤيد شارل سمحون » بعد مرض عانى منه كثيرا ، كانت السيدة سمحون تعيش فى دوامة عنيفة

من القلق . . . غير أن هذا القلق ازدادت حدته ، يوم ظنت أنها ـ بما أقدمت عليه أخيرا ـ تتخلص منه ! !

كان ماقاله ديڤيد وهويحتضر ،مروعا ومخيفا وهائلا فى نفس الوقت ، بدا لها الأمر كله غير مفهوم ، لكنها ، وقد مرت سحابة الحزن قليلا ، وجدت نفسها أمام طريق واحد لابديل له . . . وازداد خوفها ووقعت فى حيرة طالت لأسابيع كانت تتمزق فيها . . . وهى ـ فى البدية ـ وعندما أفضى ديڤيد بما أفضى به اليها ، ظنته يهذى لفرط ما كان يعانيه من الأم وصلت فى أيامه الأخيرة الى حد أن عجز الطب عن تسكينها لكن نظرات عينيه ، وذلـك الهدوء الغريب الذى سيطر على ملامحه وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئا رهيبا ، ويده التى أمسكت بيدها وكأنه يتوسل توسلا غامضا من أجل هدف غامض كل هذا جعلها تفكر فى الأمر مرة ومرة ومرات ، ثم استبعدت فكرة الهذيان نهائيا !

. . . .

. . . .

رحل ديڤيد منذ ما يقرب من شهرين ، ولم يكن ممكنا بأى حال من الأحوال ، أن تبوح لأحد بما باح لها به فهى تعرف جيدا ما الذى يمكن أن يفعله الاسرائيليون بها وبـالـولـدين جميعا وهى عندما تعـرفت إلى ديڤيد أول مرة منـذ مايقـرب من سبع سنوات ، وعندما أحست أنها تنزلق الى حب غامض ، ومنذ اللحظة الأولى التى أحست فيهـا بتلك العـاطفـة كانت الأزمـة التى عانت منها ، ليس أنها تجاوزت سن الحب والـزواج وبناء أسرة جديدة ، ولكنها أزمة كانت تتلخص فى سؤال ألح عليها طويلا : كيف تقع فى حب اسرائيلى ؟ !

لم تكن « فراو ريشتر » ـ كان هذا اسمها فى ذلك الوقت ـ عجوزا

تحمل ذكريات ما كان بين شعبها وبين اليهود من عداء ، لكنه ذلك الإحساس الغامض والغريب والمترسب فى أعماق نفسها ، ذلك الاحساس الذى بدا واضحا أشد مايكون الوضوح عندما أفضت الى « ليندا » - مديرة مكتبها وصديقتها الحميمة - بما يعتمل فى نفسها ، فهتفت ليندا :

« هيلين   هل تستطيعين ؟ ! »

« ولكنى أظن أنى أحبه ! »

حذرتها ليندا فى وضوح :

« لاتنسى أنه يهودى ؟ ! »

لوحت بذراعها فى ضيق :

« اللعنة ! »

« واسرائيلى ! »

صاحت فى وجه ليندا :

« هل أنت عنصرية ؟ ! »

هزت ليندا رأسها ضاحكة وقد أدركت انه لاجدوى من المناقشة وهى تقول ساخرة :

« ليس بالضرورة ياعزيزتى   ليس بالضرورة ! »

وتزوجته ! !

وأصبح اسمها « فراو سمحون »   وكانت سعيدة بهذا الزواج الذى أثمر - رغم سنها - ولدين   لقد وقعت هيلين فى حب ديڤيد حقا ، غير أنها غاصت فى هذا الحب حتى أذنيها بعد الزواج   كان ديڤيد رجلا يعرف كيف يتعامل مع المرأة ، كيف يدللها ومتى ؟

وكيف ينهرها فى الوقت المناسب ... ومتى يبثها حبه وكيف يجعلها تشتاق إلى كلمة منه ... هكذا كان ديڤيد ، لكن شيئا ما ، غامضا وغريبا ، ظل معلقا فوق رأسها طوال حياتها معه ... شيئا لاتدريه ولاتعرفه ... كانت - على سبيل المثال - تداعبه فى أحيان كثيرة قائلة : انه لايمكن أن يكون يهوديا أو اسرائيليا ... وكان المدهش فى الأمر ، أن هذا لم يكن يغضبه ، بل كانت تبدو على وجهه علامات سعادة لاتخطئها العين !

لكنه ذهب ! !

ذهب بغموضه وحنانه ورقته ورجولته التى كانت تبدو فى بعض الأحيان وكأنها تاج يتحلى به !

ولقد قاوم ديڤيد طويلا قبل أن يذهب ، عانى الآما مبرحة !

وليته ذهب حاملا سره معه !

وليتها ظلت كاتمه لهذا السر وكأنها لم تسمعه ... ولكن كيف ؟ !

كيف وهى - منذ أن رحل - لم تعرف للراحة طعما ... كانت تنظر إلى الصغيرين فتشعر بثقل المسئولية ... ولو لم يكن الأمر يعنى ديڤيد لما باح لها به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وكأنه يحمّلها أمانة كان عليها أن تؤديها ... غير أن مجرد التفكير ، فيما لو عرف الاسرائيليون ، كان يبعث بالرعب إلى أوصالها ، لاعلى نفسها وحياتها ، بل على حياة ولديها !

قرابة خمسين يوما منذ أن رحل وهى تدور فى دوامة بلا نهاية .. حتى كانت تلك الليلة التى التقت فيها برجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » !

كان نهاد صديقا قديما تعرفت إليه قبل أن تتعرف إلى ديڤيد

بسنوات ، كان دائما مايظهر ثم يختفى ثم يظهر وكأنه كان دائما هناك . . . هو من هذا النوع من الشباب الذى يتميز بالرقة والذكاء معا ، ولقد اختفى سنوات طويلة كانت تسمع فيها عنه ، عرفت مرة أنه يعيش فى استراليا ، وسمعت مرة أنه عاد إلى مصر ، ومرة ثالثة قالوا لها انه استقر فى كندا . . . لكنها كانت تدرك سر ابتعاده عنها ـ كصديق ورجل أعمال معا ـ منذ أن تزوجت ديڤيد . . . وهى قد قدرت هذا الابتعاد ، الذى تحتمه على رجال الأعمال العرب ، تلك الظروف السياسية الشديد التعقيد التى تولدت فى الشرق الأوسط منذ أن قامت فيه دولة اسرائيل !

ظهر نهاد هذه المرة وكان يسعى لعقد صفقة طائرات لابأس بها . . . جرت المفاوضات بينهما سلسة سهلة ، حتى إذا مابدا أن الاتفاق على وشك أن يتم ، دعاها ذات ليلة الى العشاء !

وهى ـ فى حقيقة الأمر ـ كانت تسعى الى هذه الدعوة ، بل ربما هى التى دفعته لأن يدعوها . . . كانت تعرف أن « نهاد » ضابط سابق فى الجيش المصرى ، وأن له علاقات طيبة مع بعض المسئولين فى بلاده . . . فسألته فى لحظة جمعت فيها كل ماتملك من شجاعة ، إن كان يستطيع أن يحمل عنها رسالة إلى مصر ؟ ! . . . قال نهاد :

« سأطير إلى القاهرة فى الأسبوع القادم وأنا فى طريقى إلى المملكة العربية السعودية ! »

« ولكنى أريد منك وعدا بـ . . . . . . »

وصمتت هيلين ، ولابد أن ملامحها عكست ذلك القلق المدمر فى

صدرها ، فلقد سدد اليها نهاد نظرة ثابتة وهو يسأل :

« هيلين . . . ماذا بك ؟ ! »

كانا صديقين قديمين ، وكان يستطيع بطبيعة الحال أن يناديها باسمها الأول ، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ، فإن هذا أصبح لايعنيها فى كثير أو قليل !

« هيلين ! »

جاءها صوته دافئا مفعما بالحرارة .

« هيا بنا ! »

قالت هذا ونهضت وكأنها تريد أن تهرب من نفسها ، نهض نهاد ملبيا وقد أدرك أن فى الأمر سرا يقلقها . . . وفى السيارة التى كان يقودها الشاب المصرى ، ساد الصمت طويلا ، ولم يحاول هو من ناحيته أن يقطع عليها الصمت ، حتى قالت فجأة :

« سأكتب الرسالة ، وسأطلعك عليها ، لكنى سأطلب إليك طلبا واحدا ! »

« ماهو ؟ ! »

« ألا تسألنى سؤالا واحدا حول الموضوع ، حتى أفاتحك أنا فيه ! »

« لك هذا ! »

« وألا تخبر مخلوقا ، أيا ما كانت ثقتك به ، عن هذا الأمر ! »

« ولك هذا أيضا ! »

« حسن   ترى أيه لغة يفضلها المصريون ؟ ! »

« الانجليزية ، فهى اللغة الأجنبية السائدة هناك ! »

وهكذا . . . فى اليوم التالى ، اجتمعت هيلين سمحون مع نهاد كامل على غداء عمل فى مطعم يقع فى نفس المبنى الذى يضم مكاتب

شركتها ... وكانت هيلين تحمل ملفا أنيقا يحوى بعض الأوراق والرسوم المتعلقة بصفقة الطائرات ، قدمت له الملف وهى تقول :

« ستجد الظرف مفتوحا فى هذا الملف ، لك أن تقرأ الرسالة ، ثم تغلق الظرف ! »

« ولمن أسلمها ؟ ! »

صمتت هيلين برهة ، تشاغلت فيها بقطعة السمك الراقدة فى طبقها ، لكنها مالبثت أن قالت :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى ! »

قالت هذا وقد تعلقت عيناها بوجه نهاد فى محاولة لقراءة رد فعل ماقالته ، لكن ملامح الشاب ظلت جامدة ، هادئة تماما ، فعادت تؤكد من جديد :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى وليس لأحد سواه ! »

ظل وجه نهاد جامدا وكأنه لم يسمع شيئا ، رفع اليها عينيه الملونتين وقال فى هدوء وبساطة :

« سأسلمها له يداً بيد فلا تقلقى ! »

يالرعب المدمر عندما يستحوذ على الانسان ... ما إن انصرف « نهاد كامل » حتى عصفت بها الهواجس ... ماالذى يدريها أن الرسالة لن تقع فى أيدى الاسرائيليين ، حقا لقد انتهت الحرب بينهم وبين المصريين ، ولكن ... إن سرها الدفين هذا لاعلاقة له بحرب أو سلام !

ظلت هيلين مضطربة بالرغم من أنها أخذت للأمر كل حيطة ، كتبت الرسالة على آلة كاتبة بعيدة عن شركتها وعلى ورق عادى ، لم

تضع توقيعها عليها وليس هناك مايدل على أيه علاقة لها بها سوى ذلك المظروف الخالى الذى تستطيع أن تتنصل من معرفة أى شىء عنه ... ثم ... ثم إن نهاد لن يغادر ألمانيا قبل الأسبوع القادم ، فلم لم تسلمه الرسالة قبل سفر بيوم أو فى نفس يوم سفره ؟ !

وحتى عندما تحدث إليها نهاد تليفونيا فى عصر ذلك اليوم الذى تسلم فيه الرسالة قائلا إن برقية عاجلة وصلته من القاهرة فقرر السفر فى نفس الليلة ، حتى عندما فعل هذا أحست بالخوف يعصف بها عصفا !

وهكذا ... ظلت السيدة هيلين سمحون نهبا لقلق مدمر لأكثر من أربعين ساعة ، حتى دق جرس التليفون فى بيتها ، فى التاسعة من صباح ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ .

●●●

دق جرس التليفون فالتفتت هيلين دون أن تتحرك من مكانها ، أحست بالاضطراب فعالجته بأن رفعت فنجان القهوة الى شفتيها وهى تلتقط فى نفس الوقت إحدى المجلات الفرنسية ... على الفور ظهرت « أولجا » ـ سكرتيرتها ـ من الداخل وهى تسير بتلك الخطى السابحة فى الهواء بلا صوت ... من طرف خفى راحت ترقبها وهى ترفع سماعة التليفون الى أذنها سرت فى جسدها قشعريرة حاولت السيطرة عليها بكل ماتملك من قوة ، تظاهرت بتقليب صفحات المجلة الفرنسية لكن عينيها كانتا تتلصصان نحو « أولجا » التى كانت تتحدث بصوتها الهامس وقد بدت عليها الحيرة ... ولقد كانت تتساءل قبل أن يدق جرس التليفون بثوان عما اذا كان « نهاد كامل » قد سلم الرسالة ، وعما

إذا كان « جواب ما » سوف يأتيها من القاهرة ، لكنها سرعان ماسخرت من نفسها فنهاد لم يغادر ألمانيا الا منذ ست وثلاثين ساعة ولا يمكن أن يكون الأمر قد تم بهذه السرعة في بلد كمصر !

وضعت « أوبلها » السماعة فوق الحامل الأنيق المجاور للتليفون . . . اضطربت هيلين وهى تتساءل : هل من الممكن أن يكون لهذه المكالمة علاقة برسالتها ؟ . . . ليست السرعة والاهتمام بقيمة الوقت من صفات العرب ، لكنها قد تكون من صفات الاسرائيليين . . . ها هوذا الرعب يأتيها أثر خطأ وقعت فيه فأين المفر ؟ !

« سيدتى . . هناك شخص يقول إنه صديق قديم للهر سمحون ! »

فى هدوء أعادت هيلين فنجان القهوة الى المائدة، رفعت الى السكرتيرة عينين متسائلتين ، فقالت هذه :

« إن فى صوته لكنة شرقية ! »

ازداد البريق المتسائل فى عينيها فعادت السكرتيرة تقول وكأنها تعتذر :

« ربما كان آتيا من إسرائيل ! »

اندبت الكلمة فى صدرها فأحست بالألم ، أرادت أن تخفى اضطرابها فنهضت مشيحة عن السكرتيرة ، وكان هذا إيذانا للفتاة بالانصراف فانصرفت خطت هيلين نحو التليفون فخيل اليها أنها تترنح ، جاءها الصوت من الطرف الآخر متسائلا :

« فراو سمحون ؟ ! »

« نعم ! »

« أنا صديق قديم للهر سمحون ، ولقد وصلتنى رسالتك بالأمس ! »

على الفور هتفت مستنكرة :

« أية رسالة ؟ ! »

جاء سؤالها سريعا كطلقة مباغتة ، ران الصمت لثوان خاطفة سرى بعدها الصوت الى أذنها واثقا ثابت النبرات :

« لقد جئت كى أقدم لك خالص عزائى ياسيدتى ! »

غلبها الخوف والحذر فعادت تلح :

« ولكنك تتحدث عن رسالة ، أية رسالة هذه ! »

فى بساطة من يسيطر على الأمر تماما ، عاد الصوت يقول :

« ربما كان فى الأمر خطأ ما . . . ولكنى اعتقد أنه يهمك ـ كما يهمنى بالطبع ـ أن نصفى ذلك الموقف بين شركتينا ! »

فى إصرار عادت تستنكر :

« شركتينا ؟ ! »

« كنت أظن أنك تحدثت فى الأمر مع الهر نهاد كامل ! »

أحست وكأنها محاصرة ، فغمغمت :

« لكنى لن أذهب الى مكتبى فى هامبورج حتى نهاية الأسبوع ! »

« إن لم يضايقك هذا ياسيدتى ، فنحن على استعداد لزيارتك فى بريمن ! »

« أنتم ؟ ! »

« نعم أنا وشريكى الذى يعنيه أن يلتقى بالصغيرين العزيزين ! »

« الصغيرين ؟ ! »

« كان شريكى صديقا حميما للهر سمحون ! »

« لكن الطفلين لايعودان من المدرسة إلا فى عطلة نهاية الأسبوع ! »

غمغم صاحب الصوت الآتى عبر السماعة :

«هذا من سوء حظنا حقا ! »

قال هذا ، فساد الصمت . كانت جملته الأخيرة تعنى أنه - الآن - يترك لها حرية الاختيار . . . ترددت فترة طالت بعض الشىء ، كانت ممزقة ، حائرة ، وكانت خائفة . . . ولقد ظل الصمت آتيا من الطرف الآخر ، حتى إذا كانت لحظة ، أدركت أنه لاسبيل إلى التراجع ، وأن حسن التصرف يستلزم منها أن تسير فى الشوط حتى نهايته :

« حسن أيها السيد . . . يمكننى استقبالكما فى الخامسة من بعد ظهر اليوم ! »

« شكرا ياسيدتى ! »

« هل أعطيك العنوان ؟ ! »

« لست أعتقد أننا فى حاجة اليه ! »

« إلى اللقاء إذن ! »

قالت هذا وهى تعيد السماعة إلى مكانها ، دون أن تنتظر من الرجل ردا ! !

الفصل الثانى

البحث عن الحقيقة

لم تكن السيدة « هيلين سمحون » من ذلك النوع من النساء اللاتى يستعذبن الضعف أو يستسلمن للخوف . . . ففوق تربيتها الألمانية الصارمة ، واعتزازها بالانتماء الى شعب كانت - ولاتزال - مؤمنة أشد مايكون الايمان أنه يستطيع تحقيق المعجزات . . . فقد ولدت فى حجر الآلام والهزيمة والدمار وأحذية الجنود الغليظة تطأ أرض بلدتها الصغيرة فى عجرفة واستعلاء . . . ولولا تلك القصص التى عاشتها وعاصرتها وسمعت عنها منذ أن وعت عيناها حقائق الحياة ، لولا معرفتها اليقينية بما يمكن أن يفعله الاسرائيليون خاصة مع بنى جنسها ، بالحق وبالباطل ، لعالجت الأمر بأسلوب مختلف . . . لقد عاشت المأساة طفلة ، فرض عليها قدرها أن تأتى الى هذه الدنيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، فنمت فى احضان الكارثة ، وكان عليها أن ترى بعينى طفلة كيف انهار كل شىء ، وكيف كان على بنى جنسها أن ينهضوا من جديد .

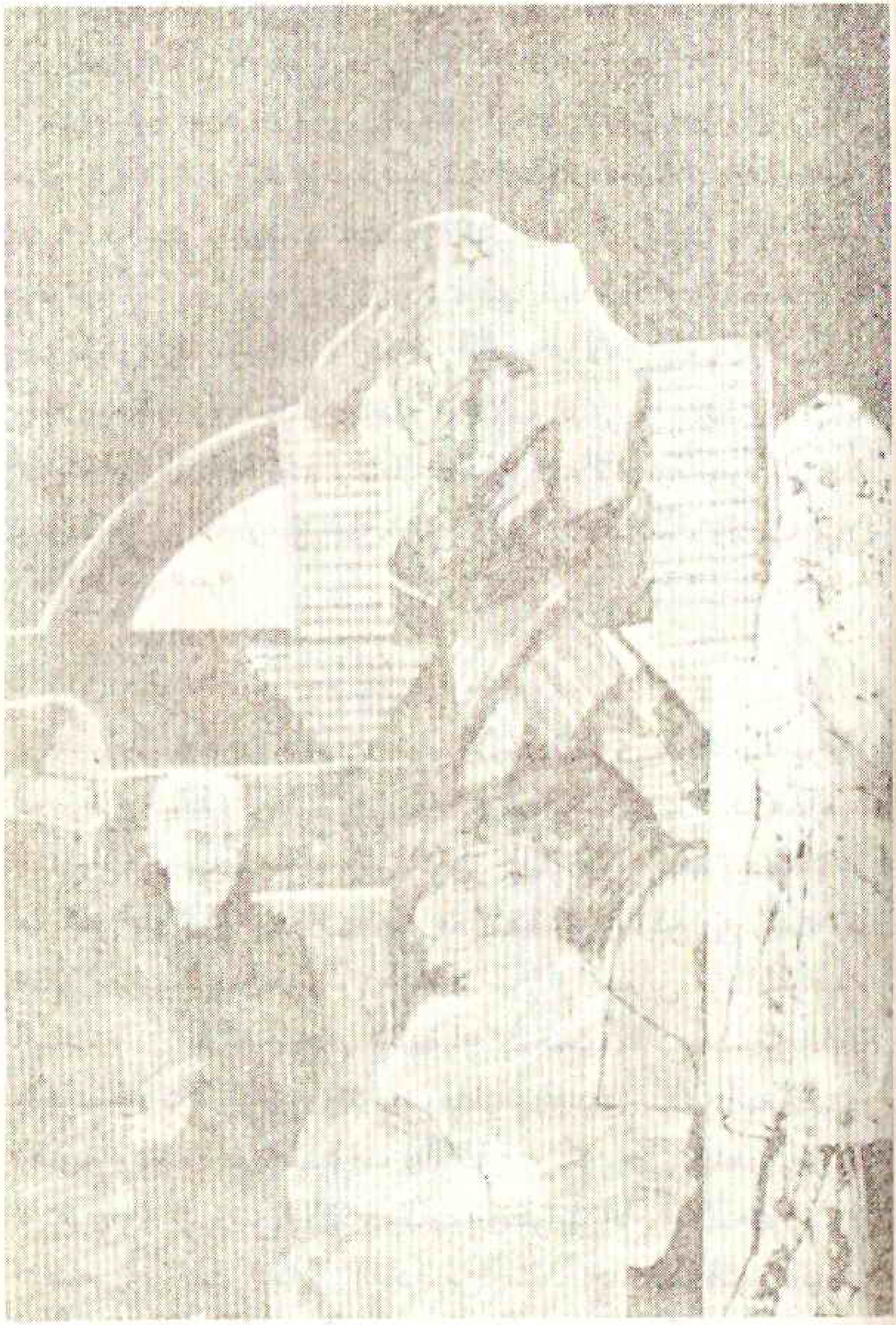

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما خلا البيت إلا منها ومن فرانسز العجوز ، وهى منذ ان تلقت تلك المكالمة التليفونية فى الصباح ، راحت تستعد لهذا اللقاء الذى كان مقدرا له أن يتم بعد دقائق ... صرفت الخدم والسكرتيرة ولم تستبق معها سوى وصيفها ومدير بيتها ومخزن أسرارها وصديقها الوفى لخمسة وعشرين عاما طلبت إلى فرانسز أن يبقى الى جوارها فرحّب العجوز بعد أن لاحظ توترها ، لكنه لم يسأل عن الأسباب تأدبا ، ومنذ أن خلا البيت الا منها ومنه ، وهو دائما هناك ، ما إن تحتاج الى شىء ، أو تطلب شيئا ، حتى تجده ملبيا بأسرع مما أعتاد ، بل ربما أسرع مما يجب !!

كلما اقتربت الساعة من الخامسة ازداد توترها ، راحت تذرع البهو الفسيح جيئة وذهابا ، من خلف زجاج النوافذ كانت ترقب الثلج المندوف وهو يتهادى صابغا الدنيا بلونه الأبيض ، كم كان ديفيد يحب منظر الثلج هذا ، كم كان يطرب كطفل وهو يصيح فيها طالبا اليها أن تأتى لتشاهد سقوطه معه ، شرقيا كان ديڤيد ، شرقيا حتى النخاع ! ... هذا الثعلب الذى ، منذ أن التقت به ، وهو يهديها المفاجأة تلو المفاجأة ... لكن مفاجأته الأخيرة ، فاقت كل خيال !

كم كان العمر شاقا وكم كان المشوار طويلا من هناك ، من أقصى الجنوب الألمانى ، كانت البداية !!

. . . .

. . . .

فى أقصى الجنوب الشرقى لألمانيا ، ولدت « هيلين شيبربور » - هذا هو اسم عائلتها - فى بلدة صغيرة اسمها « خام » -Cham-

ـ لأب كان يعمل جواهرجيا . . .كانت البلدة جدّ صغيرة ، وكل الناس فيها يعرفون كل الناس ، ولكن الهر « كارل شيبربور » ـ والد هيلين ـ كان يتمتع باحترام خاص بين سكان البلدة والقرى المجاورة ، لا لأنه كان على قدر من اليسار ميّزه عن بقية السكان ، ولكن لأنه كان رجلا من هذا النوع الصلب الذى لاتؤثر فيه الأزمات ، ولا ينحنى للعواصف وكم من مآزق وقعت فيها البلدة أثناء الحرب فتخطاها الهر كارل بمهارة وحنكة ، وكم من أياد مدها لأهل بلدته فى صبر وكرم جعلا للعائلة كلها مكانة خاصة فى قلوب الناس ولكنه لم يستطع أن يتخطى أزمة الهزيمة والاستسلام ورؤيته لأحذية جنود الاحتلال الغليظة وهى تطأ أرض البلدة التى أحبها ... فمات ، وكانت هى فى السابعة من عمرها .

. . . .

. . . .

الصمت والخوف والهلع والتوتر ولاشىء سوى نظرات الأب والأم عبر زجاج النافذة الى الطرقات الخالية فى « خام » . . . كان هذا منذ ست وثلاثين سنة كاملة . . . تذكر هى ذلك اليوم وكأنها تراه ماثلا دون أن تغفل منه شيئا كانت تقبع مع شقيقتيها فى ركن من البيت وكان محظورا عليهن أن يتحركن من مكانهن أو يقتربن من النوافذ أو الباب . . . بالأمس غادر البلدة آخر جندى المانى مشيعا بالدموع والحزن والانتظار القلق والمخيف للغزاة القادمين . . . استيقظت فى الفجر وكان زئير السيارات والدبابات يأتى من بعيد كهزيم رعد لاينقطع ، الوجل والقلق واللهفة ونظرات الأم والأب عبر النافذة تتطلع إلى حيث الطابور القادم من خلف التل كالوحش الكاسر ، وهزيم السيارات والدبابات يقترب ويقترب ، وحركة أبيها وهو يذرع

البيت جيئة وذهابا ، وشحوب أمها وبكاء اختها لكنها ارتجفت حتى الأعماق عندما شهقت أمها مشيرة الى حيث مدخل البلدة فاذا هى قد حوصرت من كل اتجاه. . فى الليلة السابقة وبعد انسحاب جنود الوطن وقد أخذ منهم الاعياء والتعب كل مأخذ ، اجتمع الرجال فى الكنيسة ـ هكذا عرفت فيما بعد وهى تستعيد مع الكبار أحداث اليوم المروع ـ واستقر الرأى على أن يلزم الجميع بيوتهم عند مجىء الامريكيين . . . اتفق أهل البلدة على أن يتركوا الشوارع خالية للغزاة القادمين . . . من الخارج ارتفع صوت يتحدث فى الميكرفون بلغة لم تفهمها ، ورأت أباها ينصت باهتمام وقد شحب لونه شحوبا رهيبا. . . انتهى النداء فاذا الأم تسأل الأب عما يقول صاحب الصوت الزاعق فى الميكرفون ، واذا الأب يدمدم فى غضب :

« أى جنون هذا ؟ ! »

« ما الذى يطلبه الامريكيون ياكارل ؟ ! »

« انهم لايطلبون ولكنهم يسألون إن كنا سنستسلم أم سنقاوم ؟ ! »

حاولت الأم تهدئة زوجها فقالت فى رفق :

« أليس هذا من حقهم ؟ ! »

« أى حق والشوارع خالية والأبواب موصدة ! »

« كارل »

اختنق صوت الأب واحتقن وجهه وهو يهدد :

« إنه الاذلال . . . إنهم يريدون اذلالنا ! »

عاد الصوت يسرى فى سماء البلدة عبر الميكرفون فصاح الأب :

«انه يسأل مرة أخرى . . . انه يعيد السؤال ! »

هتفت الأم فى فزع :

« لم لانعطيهم مايريدون ؟ ! »

التفت الهركارل نحو زوجته وكانت نظراته تطلق حمماً ، فصاحت الأم ملتاعة :

« من أجل الصغار . . . من أجل كل الصغار فى البلدة ياكارل ! »

همّ الرجل بالرد لكن نظرة منه حانت نحو النافذة فاذا به يتصلب كمن مسته صاعقة ، بدا جاحظ العينين شاحب الوجه مرتجف الملامح ... اندفعت زوجته نحو النافذة فى هلع :

« كارل . . . ماذا هنالك ؟ ! »

ماإن وصلت إلى النافذة والقت ببصرها إلى الخارج حتى ارتدت شاهقة :

« انهم يرفعون العلم الأبيض فوق الكنيسة ! »

عاد الصوت الزاعق فى الخارج عبر الميكروفون يتصايح من جديد ، اختنق صوت الأم متسائلة فى هلع :

« ماذا يقول هذا الجندى بحق السماء ؟ ! »

ترنح الهر كارل فى وقفته ، خطا نحو مقعده والقى بنفسه فوقه وهو يقول :

« أنه يطلب إلى كل بيت أن يرفع على بابه علماً أبيض ! »

ككرة من مطاط ارتدت زوجته نحو دولاب فى طرف المكان وهى تهتف :

« فلنعطهم مايريدون ! »

وكان الأب يتمتم :

« إنه الإذلال . . . إنه الإذلال ! »

فى هلع كانت الأم تبحث فى الدولاب حتى أخرجت منه مفرشاً

أبيض فردته أمام زوجها الذى رفع رأسه اليها وقد جحظت عيناه واحمرتا وكانت هى تتوسل :

« ليس من أجلنا ، ولكن من أجل الصغار ! »

ونكس الرجل الشاهق رأسه . هيلين لاتنسى تلك اللحظة ولو عاشت ألف عام ، رأت أباها ينكس رأسه ، وجسده يهتز بعنف ، ودموعه تتساقط ! !

وعندما كانت الأم تضع المفرش فوق عصاه أتت بها من الداخل ، وعندما فتحت باب البيت وتقدمت حاملة علمها الأبيض كى تعلقه على الباب ، كان الأب ينوح :

« انتهى كل شىء ، انتهى كل شىء ! »

يومها أقسمت هيلين شيبربور - وهى فى السابعة من عمرها - ألا ترفع العلم الأبيض مرة أخرى ، أبداً !

. . . .

. . . .

« سيدتى . . . سيدتى ! »

التفتت هيلين نحو فرانز فى دهشة ، كان هذا قد اقترب منها حتى كاد يلتصق بها

« ماذا بك يافرانز ؟ »

« هل سيدتى على مايرام ؟ »

دهشت وهى تستدير بكليتها نحوه :

« نعم . . . لم السؤال ؟ ! »

فى حنان جاءها صوته :

« عفوا سيدتى . . . ولكنى ظللت أنادى عليك دون أن . . . . . . »

قاطعته وقد أدركت ماحدث :

« كنت أتذكر يوم العلم الأبيض ! »

تقلصت ملامح فرانز فلقد كان يعرف أيه ذكرى أليمه فى حياة سيدته هذا اليوم . . . تمتم :

« هل أنت خائفة ؟ ! » .

« ربما ! »

قالت هذا وهى تهرب من نظراته فعاد يسأل مقتربا من هدفه :

«هل أتيك بالشاى ؟ ! »

نظرت فى ساعة يدها وهى تتمتم :

« ليس هناك وقت ، سيصل الضيفان بعد ثوان ! »

اقترب من هدفه أكثر :

« هل هما غريبان ؟ ! »

« لست أدرى يافرانز . . . فى الحقيقة انى لا أعرف يقينا ! »

« هل هما اسرائيليان ؟ ! »

التفتت نحو العجوز مبتسمة ، قالت :

« أرجو ألا يكونا كذلك ! »

همّ العجوز بالسؤال عندما غمر البهو شعاع ضوء السيارة التى كانت تقترب من البيت ، التفت كلاهما نحو النافذة ، وكانت السيارة قد أكملت دورتها حتى توقفت أمام الباب الخارجى للحديقة .

« لقد وصلا ! »

وكانت جملتها ايذانا بانصراف فرانز على عجل كى يستقبل الضيفين !

●●●

لم يكن الضيفان اللذان وصلا الى منزل أرملة المرحوم « ديفيد شارل سمحون » ، سوى الشابين اللذين ، قبل أربع وعشرين ساعة

بالضبط ، دخلا الى مطار القاهرة الدولى : صاحب المحلات التجارية ، ومهندس التبريد الذى كان فى صحبته .

كان الجو فى الخارج قارس البرد ، ولذلك فعندما عبر الشابان الحديقة ووصلا الى باب البيت ، كان فرانز العجوز هناك فى استقبالهما ، وكانا يرتديان معطفين ثقيلين ، كما كانا يضعان قبعتين تخفيان ملامحهما . . . قال أحدهما مخاطباً فرانز :

« اننا على موعد مع فراوسمحون ! »

« أفسح العجوز الطريق الى الداخل :

« انها فى انتظار كما ياسيدى ! »

دلفا الى البيت بسرعة التماسا للدفء ، أغلق فرانز الباب وتسلم معطفيهما وقبعتيهما ، ثم قادهما الى الداخل . وهناك ، بالقرب من البيانو الأبيض ، كانت « فراوسمحون » تقف فى استقبال ضيفيها !

. . . .

. . . .

كان أكثر ما أدهش السيدة سمحون فى هذين الشابين ، ليس اتقانهما اللغة الألمانية فقط ، بل لأنهما أيضا كانا يتقنان فن الحديث !

ما إن اشارت إليهما بالجلوس حتى كان فرانز يدفع أمامه عربة الشاى فى خفة ورشاقة ، حتى استقرت العربة الى جوارها فقال :

« هل تأمر سيدتى بشىء آخر ! »

ابتسمت هيلين وهى تنظر اليه فى امتنان قائلة :

« شكراً يافرانز ، ويمكنك أن تنصرف إذا أحببت ! »

« سأبقى حتى البى أي طلبات للسيدين ياسيدتى ! »

جاءت جملته حاسمة حازمة وكأنها قرار فلم تعترض ، أحنى رأسه فى أدب ثم انسحب على الفور ، لمحت السيدة سمحون على وجهى الشابين علامات اعجاب فقالت مجاملة :

« لابد أنكما فى حاجة إلى شراب ساخن ، فالجو فى الخارج شديد البرودة ! »

ابتسم أحدهما وكانت ملامحه تنبىء عن حزن حقيقى :

« لايعادل برودة الجو فى بلادك ياسيدتى سوى دفء استقبالك لنا ! »

رفعت اليه عينين دهشتين ، أثلجت المجاملة صدرها ، أرادت أن تردها له ، قالت وهى تصب الشاى :

«ولايعادل رقة حديثك سوى اجادتك للغة الألمانية ! »

قال الثانى مبادراً :

« لابد أن فراو سمحون تعرف مدى اعجاب الشعب المصرى بألمانيا وشعبها ! »

كانت هذه أول إشارة من الشابين تنبىء عن جنسيتهما . . . داخلتها راحة صادرها على الفور خوف عربيد . . . فمن يدريها أنهما مصريان حقاً ... لقد سافرت الى اسرائيل كما زارت مصر ، وهى تعلم يقيناً أن الملامح متقاربة الى حد كبير . . . ثم ، ألم يقل لها ديڤيد انه ولد فى مصر ، وعاش فيها حتى صدر شبابه ؟ ! !

سرعان ماردعت فى صدرها هذا الاحساس بالارتياح ، قدمت لهما فنجانى الشاى وسألتهما إن كان أحدهما يرغب فى قطعة من الكعك . . . ما إن اعتذرا ، واعتدلت هى فى جلستها ، حتى قال الأول باسلوب مباشر :

« سيدتى . . . اسمحى لى أن أقدم لك عزاء الشعب المصرى والحكومة المصرية وجهاز المخابرات المصرى معاً ! »

أحنت هيلين رأسها شاكرة ، فاستطرد الفتى :

« كان من حسن التدبير أنك أرسلت رسالتك مع الهر نهاد كامل ! »

داهمها اضطراب مفاجىء ، فها هى تترك لهما الحبل على الغارب دون أن تحتاط ، هتفت بصوت جاء مرتجفاً بالرغم من لهجة السخرية التى حاولت اظهارها :

« ألا يحق لى أن اعرف اسم من اتحدث اليه ؟ ! »

همّ الفتى بالحديث ، فوضعت فنجان الشاى جانبا ، واستطردت وكأنها تقف خلف أحد المتاريس فى ساحة قتال :

« انك ياسيدى لم تقدم لى نفسك صباح اليوم ، وبالرغم من ذلك ، فلقد سمحت لنفسى أن استقبلك حتى نسوى تلك الأمور التى قلت إنها معلقة بين شركتينا ! »

لم يسفر هجومها المباغت عن شىء ، فلقد ابتسم الفتى وقال فى وضوح آسر :

« وهل للاسماء فى مثل هذا الموقف قيمة حقيقية ؟ ! » .

جاءت كلماته مباغتة ، وكان على حق ، فلقد كان يستطيع ، وهو يستطيع ، أن يدعى لنفسه أى اسم ، ازداد اضطرابها لولا أنه عاد الى الحديث :

« لقد حمدنا لك أيضا ياسيدتى أنك أرسلت الرسالة على الالة الكاتبة ، حتى التوقيع ، دون ذكر اسم المرسل اليه !»

كان يعطيها الدليل الكامل على ان رسالتها قد وصلت اليهم . . .

ولكن ، من هم ؟ ! . . . تململت فى جلستها وهى تفرك كفيها ، فمال نحوها الفتى وكأنه يعفيها من كل هذا التردد قائلا :

« لم لانحسم الأمر الآن قبل أن نسترسل فى الحديث ؟ ! »

رفعت اليه عينيها متسائلة عما يقصد، وكان هو يضع فنجان الشاى جانبا ، ثم يخرج حافظة نقوده ، لتمتد أصابعه اليها فى حنكة من يعرف طريقه جيدا . . . ومالبث أن أخرج ورقة مالية غريبة الشكل ، ونهض اليها مقدماً تلك الورقة المالية قائلا :

«هذه نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم ! »

اعتراها اضطراب عنيف ، وتساءلت كيف غفلت عن هذا الأمر ، وداهمتها صور من الماضي البعيد راحت تتكاثف وتتصاعد الى رأسها فى سرعة فكأنها تفتح جرحاً لم يندمل رغم مرور السنين ، امتدت يدها لتأخذ نصف الورقة المالية ، هتف فى داخلها هاتف أن احذرى فلم تظهر ما كان يعتمل فى صدرها من انفعال ، جاء صوت الشاب واثقا :

« لقد الغى هذا المارك وأنت لاتزالين صبية صغيرة فى بلدة خام ! »

كانت نظرة واحدة الى نصف الورقة المالية الذى قدمه لها الشاب كافية لأن تدرك كل شىء ، لكن هذا الذى قاله جعلها تنتفض انتفاضة من وجد نفسه عاريا فى الطريق العام . . . اختلطت الذكريات البعيدة والقريبة فى اضطراب عنيف ، من هذا الفتى الذى يعرف عنها كل شىء ؟ . . . ثم من هذا الفتى الذى يعرف حياتها فى « خام » التى غادرتها منذ عشرات السنين وان كانت جذورها لاتزال باقية فى تلك البلدة البعيدة ؟. . . عادت تنظر الى الورقة المالية فى امعان فلم تستطع أن تخفى اضطرابها الذى تزايد ، وعندما عاد الفتى الى الحديث رفعت إليه عينين دامعتين ، فلأول مرة ـ منذ أن رحل ديڤيد ـ

كانت تشعر بالراحة والأمان . . . قال الفتى الشرقى وكأنه يداعبها :

« كنت فى العاشرة من عمرك عندما الغى هذا المارك . . . أليس كذلك ؟ ! »

هزت رأسها ايجابا وأيقنت الآن أنها سارت فى الطريق الصحيح ، فعلى أحد وجهى نصف الورقة ، كان خط ديڤيد هناك ، وكانت كلماته تقول : « . . . . هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! » ثم كان توقيعه أيضا ، ذلك التوقيع الذى لايمكن لعينها أن تخطئه !!

عاد الفتى الشرقى إلى الحديث مرة أخرى :

« لو أنك بحثت فى حافظة نقود الهرسمحون ، فلسوف تجدين النصف الثانى لهذه الورقة المالية ، ولسوف تكتمل الرسالة بالتأكيد ! »

قالت بصوت مرتجف وهى تنهض من مكانها :

« لقد عثرت عليه فى اليوم التالى لوفاته ! »

ابتلعت عيناها الدموع فى محاولة جاهدة لتتمالك نفسها :

« لكم حيرنى الأمر ... كنت . . . ولكن . . . لا استطيع . . . ان . . . عفواً . . . لحظة . . . هل ؟ !! »

توقفت ، تمالكت نفسها وهى تندفع نحو السلم المؤدى الى الطابق العلوى :

« هل تسمحان أيها السيدان ، لحظات وأعود اليكما ! » .

هرولت صاعدة الدرج حتى اختفت ، أحس الشابان بحركة خلفها فالتفتا بسرعة وكان فرانز يقف هناك عند باب نصف مغلق . . . ابتسما له فى ود فسأل :

« هل يأمر السيدان بشىء ؟ ! »

قبل أن يرد احدهما عليه ، جاء صوت هيلين وهى تصيح فى لهفة من فوق الدرج :

« فرانز . . . فرانز ! »

اندفع فرانز مهرولا نحوها وكانت هى تختطف الدرج خطفاً :

« سيدتى ! »

عندما وصلت هيلين الى نهاية الدرج كانت تحمل فى يديها نصفى ورقة مالية من فئة المائة مارك المانى الذى الغى فى عام ١٩٤٨ ، كان كل نصف من النصفين مكملا للآخر تماما . . . مدت يديها نحو العجوز :

« هل تذكر هذه الورقة ؟ ! » .

ولم يكن فرانز فى حاجة لأن ينظر أو يتذكر ، هذا السر الذى أطلعته عليه سيدته ذات يوم بعد وفاة « السيد » فبدا له لغزا محيرا . . . لم يكن فى حاجة الى أن ينظر أو يتذكر ، فلقد كان القلق يأكله على سيدته التى كانت ترتجف الأن أمامه بسعادة غريبة !

. . . .

. . . .

حدث هذا فى اليوم التالى لوفاة الهرسمحون مباشرة . . . كان ماقاله لها ديڤيد قبل أن يسلم أنفاسه الأخيرة محيرا ومخيفا ، وأصبح عليها أن تفكر فيما يجب أن تفعله ... ولم يكن هذا سهلا ، راحت تقلب الأمر على كل وجه ، ثم أدركت فى النهاية - من أجل الصغيرين - أنه لابد من البحث عن الحقيقة مهما كان الثمن !

فى اليوم التالى للجنازة أغلقت عليها الأبواب ففسر الجميع ماحدث

على انه مزيد من الحزن ، فتحت ادراجه وراجعت اوراقه وقلّبت فيها وقرأت كل سطر وبحثت فى كل ملف ، فبدا لها كل شىء طبيعيا تماما . . . ازدادت حيرتها وكادت تركن الى القول بأن ماقاله ديڤيد لم يكن سوى هذيان دفعته اليه الآلام ، عادت الى الاوراق مرة ومرة ولم يكن معقولا أن يقول ديڤيد ماقاله دون أن تكون هناك اشارة اليه فى الأوراق . . . لكنها عندما أمسكت بحافظة نقوده عثرت فيها على نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم . . . دهشت وهى تتذكر تلك الايام السوداء من عام ١٩٤٨ ، عندما الغى المارك الألمانى ليحل محله مارك جديد ، كانت صبية فى العاشرة من عمرها لكنها تذكر جيدا كيف فقد الناس أموالهم ومدخراتهم بعد ان اصبح على الواحد منهم ان يغير مايملك بثلث قيمته فقط ، تذكرت كيف صرفوا لكل فرد اربعين ماركاً وكان عليه أن يبدأ بها حياته من جديد ، من الصفر ومما تحت الصفر . كان على الشعب الألمانى كله أن يبدأ فى بناء بلده . . . غير أن نصف الورقة التى عثرت عليه فى حافظة نقود ديڤيد كان يحمل رسالة موجهة اليها ، رسالة ناقصة . . فعلى أحد وجهى العملة قرأت :

« هيلين . . ضعى ثقتك فى . . . . »

ثم لاشىء !!!

بدا لها الأمر غريبا فعادت تبحث فى أوراقه من جديد لعلها تعثر على النصف الآخر ، تساءلت بينها وبين نفسها إن كانت هناك علاقة بين ما أفضى اليها به وبين هذه الورقة المالية الغريبة . . . أدركت أنه لابد وأن تكون هناك علاقة ما . . . تحدثت إلى فرانز عن الرسالة الناقصة لكنها لم تجرؤ على البوح له بسرها المروع . . .

و . . . وهاهما النصفان الآن متجاوران فى يديها وكانت الرسالة قد اكتملت أمام عينيها وعينى فرانز معاً . . .

راح كل منهما يعيد قراءة الرسالة مرة ومرة وكأنه لايصدق عينيه ، كانت الرسالة تقول بعد أن اكتملت :

« هيلين . . . ضعى ثقتك فى هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! »

وكان التوقيع « ديفيد » .

رفع فرانز عينيه نحو سيدته متسائلا فى اضطراب :

«هل سيدتى واثقة من أن هذا هو توقيع الهرسمحون ؟ ! ! »

« دون شك ! ! »

قالتها هيلين فى ثقة وهى تخطو نحو الشابين وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عرفان ، نهض الشابان لاستقبالها فى أدب فوقفت قبالتهما وهى تمد اليهما يديها قائلة :

« يخيل إلىّ أن من حقكما أن تطلعا على نصفى الآخر ! ! »

قال أحدهما وكان قد اختطف نظرة سريعة وحادة الى نصفى الورقة المالية :

« إنها الآن من حقك وحدك ياسيدتى ، فالرسالة موجهة إليك أنت ! »

كانت هيلين الآن شامخة ، وكانت سعيدة .. التفتت نحو العجوز قائلة :

« فرانز ياصديقى ... تستطيع الآن أن تتصرف مطمئنا ، إنهما صديقان ! »

ولأول مرة منذ دخل الشابان الى البيت ، عرف الابتسام طريقه الى

شفتى العجوز الذى ضم قدميه فى أدب ألمانى صارم وهو يحنى رأسه محييا سيدته :

« سيدتى ! »

ثم مالبث أن التفت نحو الشابين ، وأحنى لهما رأسه فردا تحيته . . . ثم استدار ومضى . . . وكانت خطواته تبدو راقصة ! !

●●●

كان لاكتمال الورقة المالية القديمة ، وبالتالى اكتمال تلك الرسالة الغامضة التى وجهها ديفيد شارل سمحون الى زوجته هيلين ، تأثير السحر عليها . . . ففى الدقائق التالية لمغادرة فرانز للبيت،انكرت هيلين على نفسها ذلك الاحساس الغامر بالراحة والسعادة معاً وهى - فى حقيقة الأمر - لم يكن يعنيها أن يَصْدُق ماقاله زوجها قبل وفاته أو يكون هذيانا ، فلقد كانت هذه حياته وهو حر فيها . . . ولكن كان مايعنيها فى الدرجة الأولى أن تعرف الحقيقة قاطعة . . . ذلك أن الأمر لا يخصها بقدر مايخص الصغيرين ومستقبلهما ، بل . . . وانتماءها إلى شعب بعينه . . . وكانتْ الآن ، وهى تجلس قبالة هذين الشابين تعرف يقينا أنها تقترب من الحقيقة بسرعة لم تتخيلها !

عادت الى مقعدها وهى تضم نصفى الورقه المالية بيديها وكأنها تضم كنزا . . . استردت نفسها واعتدلت فى مقعدها وهمت بالحديث عندما بادرها أحد الشابين :

« سيدتى . . . لابد لنا من توضيح نقطة تبدو شديدة الأهمية ! »

نظرت إليه بإعجاب ، تساءلت بينها وبين نفسها : اذا كان المصريون بمثل هذا الحذق وهذه القدرة على السيطرة على المواقف وأخذ زمام الأمور فى أيديهم ، فما هذا الذى يقال عنهم ؟ ! . . . أومأت

للشاب بأن يستمر فعاد الى الحديث وهو يضغط على حروف كلماته كى يؤكدها :

« إنه على درجة كبيرة من الأهمية أن نقول : إننا لسنا مفوضين بسماع شىء منك ، كما أننا لانملك إجابة على أى سؤال قد يخطر ببالك ! ! »

كتمت أنفاسها وكأنها لاتريد لكلمة أن تفوتها ، واستطرد الشاب :

«إننا ـ مع تعازينا القلبية وأسفنا الشديد لوفاة الهرسمحون ـ نرجو أن تقبلى دعوة الحكومة المصرية لقضاء أى عدد يروق لك من الأيام فى القاهرة ! »

عاد القلق يتسلل إليها من جديد ، وصمت الشاب لثوان التقط فيها أنفاسه كمن يستعد لقول على درجة هائلة من الأهمية :

« وان كنا نفضل ـ إن قبلت الدعوة ـ أن تتم الزيارة بشكل سرى ! »

مرة أخرى صمت الشاب وكأنه يعطيها الفرصة كى تستوعب ماقاله جيدا . . . لكنه عاد الى الحديث فى لهجة ودود خلت من تلك الصرامة التى بدت فى حديثه السابق :

« فى القاهرة ، ستكونين ضيفة عزيزة على الشعب المصرى . . . كما أنك هناك سوف تجدين الاجابة عن كل سؤال قد يخطر ببالك أو يعن لك ! ! »

فى سرعة رهيبة كان عقلها يعمل !

زيارة سرية ؟ !

مامعنى هذا ؟ !

ثم . . . الى اين ؟ !

الى القاهرة حيث لاتعرف انسانا ؟ !

وبالرغم من أنها اختطفت نظرة من نصفى الورقة المالية وكأنها تعيد قراءة رسالة ديفيد مرة أخرى ، فإن الأمر بدا لها غريبا ، بل بدا لها باعثا على الاضطراب والخوف . . .

حقا ، إن ماحدث الآن يدعو الى الاطمئنان والثقة ، ولكن . . .

هل من الممكن أن تسلم نفسها لشابين لم ترهما الا منذ دقائق ؟ !

كان الأمر مربكا . . . فمن أين لها أن تطمئن الى أنها سوف تعود الى طفليها بسلام ؟ ! . . . طال الصمت وكانت فى حاجة الى المزيد من التفكير فقالت فى محاولة لكسب بعض الوقت :

« لابد أنكما تعرفان أن هناك عشرات الأسئلة قد خطرت ببالى ! » .

« بكل تأكيد ! ! » .

« لقد كان الأمر فى الحقيقة مروعا ومربكا بالنسبة لى فاننى عندما . . . . » .

أوقفتها نظرات الشاب المحذرة وتذكرت على الفور قوله إنهما ليسا مفوضين لسماع شىء أو لقول شىء . . . هى لاتفهم من كل هذا شيئا ، وعندما ظنت أنها اقتربت من الحقيقة إذا الحقيقة تبتعد عنها الوف الأميال ، إذا الحقيقة فى القاهرة . . . أرادت المراوغة فسألت :

« متى أستطيع تلبية الدعوة ؟ ! » .

« فى الوقت الذى تشائين ! » .

هاهو ذا الفتى ببراعة يضع الأمر كله بين يديها ، وهى الآن تستطيع أن تفكر وأن تتردد وأن تشك . . . ترى ، من كان هذا الرجل الذى أحبته وتزوجته وعاشت معه وأنجبت منه طفلين دون أن تعرف عنه شيئا . . . تمنت لو أنها استطاعت ـ بل أنها همت بأن تفعل هذا ـ ان

تطلب إليها مهلة للتفكير ، لكن شيئا فى أعماقها كان يدفعها دفعا الى السير فى الطريق حتى نهايته . . . كانت تكره الخوف وتحتقره ، كانت قد أقسمت ألا ترفع العلم الابيض ، فهل تفعل ؟ ! . . . عادت تراوغ من جديد علها تهدىء المعركة الدائرة فى صدرها :

« لقد ذكرت شيئا عن السرية ياسيدى ! » .

فى حسم من يعرف طريقه قال :

« إن سلامتك وسلامة الصغيرين لابد ان توضعا فى المقام الأول من اهتمامنا ! » .

« وماذا علىّ ان افعل تجاه هذه السرية المطلوبة لسلامتى وسلامة طفلىّ ! » .

« لاشىء من ناحيتك سوى ألاتذكرى لأحد ـ مهما كان صديقا أوقريبا ـ أنك ستطيرين الى القاهرة ! »

« لكنى بالتأكيد سأتغيب بعض الوقت ! » .

«ولذلك ، فيمكنك القول بأنك مسافرة لزيارة شقيقتك فلورا فى بلدة خام ! » .

اعتدلت هيلين وقد وجدت سببا للاحتجاج ، فما مدى مايعرف عنها هذا الشاب الأسمر . . . هتفت :

« أيها الشاب ؟ ! » .

استمر فى حديثه هادئا :

« وأنت غالبا ، كلما ذهبت الى خام ، تتحدثين الى الدكتور كارل جاروسلاف فى تشيكوسلوفاكيا ، وهو الطبيب الذى يشرف على العلاج الطبيعى الذى تزاولينه كل عام فى تلك المصحة النائية فوق جبال الـ . . . . » .

قاطعته هيلين وهى تهب واقفة وقد اكتسى وجهها بحمرة غضب لاتخفى :

« سيدى . . . . إن هذا كثير ! ! » .

وقف الشابان فور وقوفها ، وقال الفتى فى هدوء من أدهشه مايحدث :

«ولكن المرسمحون ذهب معك مرتين للاستشفاء بالمياه المعدنية ! » .

نظرت إليه غير مصدقة وقد أحست أنه سكب فوقها دلوا من المياه الباردة ، شعرت هيلين بأن ما كان يقوله الفتى ليس سرا بأى معنى من المعانى وهى لا تعرف لم انتابها الغضب فجأة . . . أرادت أن تعتذر فعادت الى مقعدها وهى تغمغم :

« ربما كنت على حق . . . ربما كنت على حق ! » .

عاد الشابان الى الجلوس فاستطردت :

« ارجو أن تعذرنى فالأمر يبدو بالنسبة لى غريبا بكل المعانى ! »

« فى استطاعتى أن افهم ذلك جيدا ! » .

واجهته الآن كالمتحدية :.

« واذا ما اتصلت بالدكتور كارل ؟ ! » .

« سيحدد لك موعدا اذا ماطلبت أنت » .

«هذا صحيح» .

« وعادة مايكون الموعد بعد ثلاثة أيام أو أربعة ! »

« وهذا أيضا صحيح ! » .

« وأيا ما كان الموعد ، فلسوف تغادرين خام فى اليوم التالى ، وتتبعين نفس خط سيرك الذى اعتدت عليه كلما ذهبت الى

تشيكوسلوفاكيا للاستشفاء ! » .

التمعت عيناها بنظرات صارخة . . . واستطرد الشاب متجاهلا نظراتها :

« ستستأجرين سيارة تعبر بك الحدود الى مدينة « كلاتوفى » التشيكوسلوفاكية ، حيث اعتدت ان تجدى سيارة المصحة فى انتظارك ! » .

« هل هذا معقول ؟ ! » .

«فى نفس المكان ستجدين سيارة أخرى فى انتظارك ! » .

« ثم ؟ ! » .

« لن تحملك السيارة الى المصحة بطبيعة الحال ، ولكنها ستحملك الى مطار براغ . . . وهناك ستلحقين بالطائره المقلعة إلى القاهرة فى المساء ! » .

« ومتى أذهب إلى المصحة ؟ ! » .

« عندما يحل موعد الطبيب ! » .

الى هنا لم تستطع هيلين الاحتمال ، سددت اليه نظراتها متسائلة :

« الا ترى أيها الشاب أنك تعرف عني الكثير ؟ ! » .

فى حسم ووضوح ، وبلا مداراة ، جاءها رده :

« سيدتى . . لقد كان الهرسمحون يعنى الكثير لبلاده ! » .

بدت لها إجابة الفتى رفيعة الى الحد الذى ألجمها فاعتدلت فى جلستها ، غير أنها ـ لسبب غامض ـ ارادت المقاومة فقالت :

« ولكن . . . ما السبب فى كل هذا اللف والدوران ! » .

« انه نفس السبب الذى من اجله ارسلت خطابك بالآلة الكاتبة ، حتى التوقيع . . . وفى جملة واحدة لاتعنى شيئا الا لمن يهمهم الأمر ! » .

ساد الصمت لثوان عاد بعدها الشاب الى الحديث فى نبرة من يؤكد كل كلمة من كلماته :

« مرة أخرى ياسيدتى . . ان السرية مطلوبة لحمايتك وحماية الصغيرين ! » . . .

تلقت كلمات الشاب فى صمت ، كانت الآن ، ربما للمرة الألف ، تتساءل :

من هذا الرجل الذى كان زوجها وحبيبها ، والذى يعنى بلاده الى هذا الحد ؟ . . . وعلى كل ، فلقد أحست أنها هزمت فى مباراة رياضية ، وأن عليها أن تصافح خصمها ، فقالت فى رقة :

« كنت أفكر ، كما أخبرتك فى الصباح ، ان اقضى بقية الاسبوع فى بريمن ! » .

ابتسم الشاب وقد أدرك أنها توصلت الى قرار ، واستطردت هى بنغمة من يعلن موافقته :

« فلم لا اقضى هذه الايام فى القاهرة ! » .

قالت هذا وهى تبتسم ابتسامة واضحة اعتبرها الشاب اعتذارا عما بدر منها ، فمال نحوها ـ كما هى عادة الشرقيين اذا ماتحدثوا الى انسان عزيز يبعد عنهم قليلا ـ وهو يقول :

« لقد اعتدت ياسيدتى كلما سافرت الى خام فى زيارة عائلية ، ان تستقلى الطائرة الى فرانكفورت ، ثم تستأجرى سيارة تقطع بك الطريق الى مسقط رأسك ! » .

هتفت ضاحكة :

« هذا شىء لايصدق ! » .

بدا الشاب وكأنه لم يسمع ماقالت ، أخرج من جيبه الداخلى تذكرة

طائرة قدمها خاطيا نحوها :

«هذه تذكرة فى الطائرة التى تقلع عادة فى الظهر الى فرانكفورت ! » .

كانت مندهشة الى الحد الذى أحست فيه انها أصبحت مسلوبة الارادة . . . وبالرغم من تمردها الداخلى ، فلقد مدت يدها وتناولت منه التذكرة ... فاذا به يخرج من جيب آخر جواز سفر أحمر اللون قدمه لها :

« وهذا جواز سفر مصرى ! » .

بدت وهى تتناول منه الجواز وكأنها تحلم .

« إنه كما ترين جواز سفر دبلوماسى ! »

ابتسمت رافعة اليه عينيها فى تساؤل :

« وهو الجواز الذى ستغادرين به تشيكوسلوفاكيا ، ثم تعودين به اليها ! » .

بدت هيلين الآن ذاهلة تماما ، فتحت الجواز بحركة لا إرادية ، ما ان شاهدت صورتها حتى اعتدلت فى جلستها ، انتبهت ، اختطفت نظرة من الفتى فوجدته باسما على استعداد لاستقبال نظرتها ، فلقد قال وهو يعود الى مقعده :

« إنه يحمل اسما مصريا بالطبع ! »

عادت تنظر الى الجواز ، وكان الاسم مكتوبا بالعربية كما هو مكتوب بحروف لاتينية ، وجدت نفسها تقرؤها بصوت عال :

« هيلانة رأفت الهجان ! » .

هتف الفتى :

« إن اسم هيلانة لقديسة مصرية ! »

قالت ساخرة :

« لست أعتقد أنى استحقه ! » .

« ولكنه الاسم العربى لهيلين ! ؟ ! »

« وماذا عن رأفت الهجان »

« أنه مجرد اسم ! ! »

« قبل ان تلتقط أنفاسها استطرد :

« فى السيارة التى ستقلك الى براغ ، ستتسلمين تذكرة على إحدى طائرات الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية ! » .

ولم تفه هيلين بكلمة ، كانت تشعر بأنها فى حلم غريب ، كان انتقالها من حياتها العادية إلى هذا الذى يحدث مفاجأة لم تستعد لها ، بل ، لم تخطر ببالها ... غير أنها ـ فى نفس الوقت ـ كانت تحس بمزيج غريب من الخوف المشوب بلذة فائقة ، كان إحساسها بأنها مسلوبة الإرادة يخبو ليحل محله ذلك الاحساس الفائق بالمتعة اذا ماكانت تشاهد فيلما من أفلام التوتر . . . أنها ـ حقا ـ تشعر وكأن أحدا يقودها الى طريق غامض ، ولكنه ـ أى الطريق ـ يبدو مثيرا للغاية ، وبنفس القدر من القوة . . . لوحت فى وجه الشاب بالتذكرة متسائلة فى سخرية :

« أرى أنك حددت ايضا موعد سفرى من تلقاء نفسك ! »

« هذا غير صحيح ! .» .

رفعت حاجبيها دهشة فاذا هو يستطرد :

« إن التذكرة مفتوحة . . . وكل مانطلبه إليك ان تبلغينا بموعد سفرك حتى نكون دائما هناك ، معك ، ومن حولك ، وفى استقبالك» .

فى تلك اللحظة ، أحست السيدة هيلين سمحون ، بأنها تلقى

بكل مخاوفها وشكوكها وعنادها خلف ظهرها . . . فلقد قالت على الفور وكأنها تقبل التحدى تماما :

« هل يناسبكم الغد ؟ ! » .

« أهلا بك فى أى وقت ! » .

« اذن . . . فإلى الغد !! » .

على الفور نهض الشابان مستئذنين فى الانصراف !

وفى الحقيقة فان هيلين عندما قالت جملتها الأخيرة ، لم تكن تنهى المقابلة ، ذلك أنها أحست بأنها تريد استبقاء الشابين لفترة أطول ، فعادت الى الحديث متسائلة :

« بالنسبة للسرية التى ذكرتها ، أليس مطلوبا إلىَّ أى شىء ؟ ! » .

ابتسم الشاب وهو يخطف من زميله نظرة غمض عليها معناها :

« لاشىء بالمرة سوى . . . . »

صمت مبتسما فاستفسرت :

« سوى ؟ ! » .

« سوى نظارة شمسية من النوع الذى لم تعتادى أن ترتديه . . . ولتكن نظارة من هذا النوع الحديث والسخيف !! » .

ضحكت ناهضة اليهما ، همت بالحديث فأوضح :

« على ألا ترتديها الا وانت صاعدة الى الطائرة المتجهة الى القاهرة من براغ ! » .

كانت الآن تقف قبالتهما . . . وكانت تشعر بمثل هذا الدفء الذى أمدها به ديفيد يوم تعرفت اليه . . . . يالشعوب الشرق هؤلاء ، غمرتها السعادة فجأة ، فاتسعت ابتسامتها ، وهى تمدلهما يدها قائلة :

« كم أنا سعيدة بلقائكما ! ! »

غادر الشابان البيت . . . ووقفت هيلين سمحون خلف زجاج النافذة ترقب سيارتهما وهى تنطلق مبتعدة ! .

كان الظلام قد هبط الآن تماما ، وكان البهو مضاء فسارت الى مفاتيح النور واحدا إثر الآخر ، أغلقت باب البيت بالمزلاج ، ثم عادت لتكمل إطفاء الأنوار .

الآن . . . كانت وحيدة فى البيت تماما ، وبرغم التدفئة ، فلقد شعرت بتيار من البرودة يسرى فى جسدها فارتجفت . هاهى ذى تذكرة الطائرة وجواز السفر ونصفا الورقة المالية هناك ، أمامها ، فوق مائدة صغيرة مجاورة لمقعدها . . . . على الضوء الخافت الذى أبقته سارت والتقطت الأوراق . . . تذكرت أن عليها أن تجرى بعض المكالمات التليفونية استعدادا لرحلة الغد . . . لكنها راحت تتساءل وهى تصعد الدرج الى الطابق العلوى :

ماهذا الذى حدث ؟ ! .

وكيف وافقت ؟ ! .

وأية مخاطر تزج بنفسها فيها ؟ !

ثم . . .

من هو ديفيد شارل سمحون ؟ !

مصرى أم اسرائيلى ؟ ! . . . جاسوس أم بطل ؟ ! .

تزاحمت الأسئلة فى رأسها دون إجابات . . . فقررت أن تتوقف عن التفكير ، وأن تسعى وراء الحقيقة ، وأن تعرفها كاملة وعارية ! !

الفصل الثالث

زيارة سرية للقاهرة

لابد أن هذا الذى يحدث ، لاينتمى الى عالم الواقع الذى عاشته هيلين سمحون لأكثر من أربعين عاما ، تظن فى بعض الأحيان أنها تحلم حلما غريبا سوف تتندر به بعد أن تصحو من النوم ، وفى أحيان أخرى تشعر وكأنها تلعب دوراً فى فيلم ملىء بالاثارة . . . غير أن الفرق الوحيد ، هو أن الاثارة تحدث فى الواقع والحقيقة ، وليست على شاشة بيضاء أو سطور قصة فى كتاب شائق !

كان لديفيد سمحون الفضل فى ارتيادها عالم العاطفة المسحور بكل مافيه من أضواء وألوان ومتعة ، كان جياشا دافئا وكأنه اختزن عواطفه طوال العمر حتى يلتقى بها فتتدفق فى طوفان أخذ يكتسح فى طريقه كل شىء . . . كان سعيدا كصبى يقع فى الحب لأول مرة . . . كان . . . كان . . . ولكن ، ماالذى يدير شريط الذكريات فإذا الذى

كان يمر بها مر الكرام يصبح له معنى ؟ ! . . . سألته ذات مرة ، كيف بلغ هذه السن ، وكيف كانت له كل تلك التجارب ، وكيف عاش مثل تلك الحياة ، دون أن يقع فى الحب مرة ، قال :

« لم أكن أستطيع ! ! »

صاحت فيه مازحة طالبة إليه أن يكف عن المبالغة وإضفاء ثوب البطولة على حياته ، فحتى كفاحه ودفاعه وصراعه من أجل إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، لم يكن يمنعه من الحب والزواج ! !

قاطعها ديڤيد فى حدة :

« لا . . ليس من أجل هذا ! »

كانت هذه من المرات القليلة ، بل النادرة ، التى رأت فيها الغضب فى عينيه ، شعرت أنها آذته دون أن تقصد ، حاولت الاعتذار فأوقفها باسماً فى حنان :

« ولكنك ذات يوم ستفهمين . . ذات يوم ستفهمين !! »

فهل آن لها أن تفهم ؟ !

وهل كان ديڤيد يعلم أنه سيموت عندما راح يلتهم الحياة معها التهاما يبعث على الدهشة والحيرة والسعادة الغريب ، أنها لاتزال ، حتى بعد موته ، تسبح مع أمواجه العاتية ! ! !

. . .   .

. . .   .

لم تستطع السيدة هيلين سمحون أن تشاهد القاهرة من الجو عندما وصلت اليها الطائرة بعد غروب الشمس . . . حجبت السحب الكثيفة سماء المدينة وغطتها تماما ، وكانت درجة الحرارة فيها ـ كما أعلنت المضيفة فى الميكروفون ـ تسع درجات مئوية !

اخترقت الطائرة السحب الكثيفة هابطة نحو الأرض ، فما ان تخطت ذلك الركام الضبابى حتى التمع رذاذ المطر الذى راح ينهمر فى رقة على أضواء كشافات الطائرة ، وكان له منظر يخلب الألباب . . . هاهى ذى أنوار القاهرة تبدو تحت المطر وكأنها عالم مسحور ، سألت ديڤيد ذات مرة عن أحبِّ المدن إلى قلبه فهتف دون تفكير أو تردد :

« القاهرة . . . فليس فى الكون مدينة تعادلها جمالا ! »

ومنذ أن بدأت رحلتها عند الظهر انتظرت أن يظهر ضيفاها اللذان زاراها بالأمس دون جدوى ، كانت تشعر أنهما لابد ان يكونا هناك ، معهـا ومن حولها كما قالا ، ولكن عبثا . . . وطدت العزم ـ إن هى رأتهما فى هذا المطار أو ذاك أو حتى فى هذه الطائرة أو تلك ـ أن تتظاهر بأنها لاتعرفهما . . . لكنهما لم يظهرا طوال اليوم ، وبالرغم من ذلك ، كانت تشعر بوجودهما شعورا يصل إلى درجة اليقين !

فى مساء الأمس ، وقبل أن تأوى إلى فراشها ، تحدثت إلى مديرة مكتبها ، قالت انها ستطير فى اليوم التالى إلى « خام » فى زيارة عائلية ، كما أخبرت أولجا ـ سكرتيرتها ـ وفرانز العجوز فى الصباح . . . وكانت أوامرها مشددة بالنسبة لهم جميعا ، ألا يتصل بها أحد هناك مهما كانت الأسباب ، وألا يعرف أحد أنها هناك !

عندما دخلت إلى مطار هامبورج كان أول مافعلته هو شراء نظارة شمسية ذات شكل غريب ومضحك . . . وكانت ، وهى تنتقى موديلا سخيفا ـ على حد قول الشـاب بالأمس ـ تتسـاءل : من أين لهؤلاء المصريين أن يعرفوا أن ذوقها فى الملابس « دقة قديمة » ؟ ! . . . لكنها سرعان ماابتسمت ساخرة وهى تقول لنفسها : ومن أين لهم أن يعرفوا

طريقى الذى أسلكه كلما ذهبت الى « خام » ؟ !

قبـل أن تصعـد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة فى مطار براغ ، وضعت النظارة الشمسية فوق عينيها ، وعندما نظرت فى المرآة ابتسمت فى دهشة حقيقية ، فلقد كان شكلها غريبا تماما ، إلى حد أنها أيقنت أن أحدا ممن يعرفها ، لايمكن ـ اذا مامر بها وهى ترتدى هذه النظارة ـ أن يميزها أو يتعرف عليها أو يتصور أن هذه السيدة التى تضع مثل هذه النظارة هى هيلين سمحون !

عندما صعدت إلى الطائرة كانت الدرجة الأولى خالية إلا من راكب واحـد انتحى جانبا ، وفتـح حقيبـة أوراقه ، ووضع نظارة طبية ، وانحنى على الأوراق يقرأ ويدون ويكتب ويقلب ثم ينظر فى ساعة يده ويتـأفف فى ملل من يتعجـل الوصول ، ظل طوال الرحلة على هذه الحال . . . وبالرغم من ذلك فلقد أحست بشكل ما ، أنه هناك من أجلها ! !

هبطت الطائرة فى مطار القاهرة وكان الرذاذ لايزال يغسل الدنيا فى رفق ، تقدمت نحو الباب المفتوح وشكرت المضيفتين اللتين كانتا فى وداعهـا ، واللتين أولتاها رعاية خاصة عزتها إلى قلة عدد الركاب فى الدرجة الأولى . . . أفسح لها زميلها المتأفف الطريق فخطت تحت المظلة التى كان يحملها مضيف شاب كان يقف عند رأس السلم المؤدى إلى أرض المطار حيث كانت سيارة ميكروباس تابعة لشركة مصر للطيران فى انتظار راكبى الدرجة الأولى . . . تلفتت حولها وأمامها فلم تجد من هو فى استقبالها كما قال الشابان بالأمس ، ولربما نسى المصريون أنها قادمـة فماذا عليهـا أن تفعـل. . . عنـد باب السيارة مد المضيف يده ليساعدها على الصعود إلى الميكروباس ، صعدت إلى السيارة بسرعة

هرباً من الرذاذ وكان زميلها فى الرحلة وراءها ،وكان التأفف قد اختفى من ملامحه . . . على الفور أغلق الباب وتحركت السيارة مبتعدة عن الطائرة ببطء على الأرض المبتلة . . . ما ان ابتعدت السيارة بضعة أمتار ، ولم يكن بها سوى السائق الذى بدا منشغلا بالقيادة فوق الأرض المبللة ، حتى التفت المتأفف نحوها وكانت ابتسامته المرحبة تضىء تقاطيعه فكأنه تحول إلى انسان آخر :

« مرحبا بك فى القاهرة فراو سمحون ! »

التفتت إليه فى مرح ولم تملك نفسها من الصياح ضاحكة :

« لقد خمنت هذا . . لقد خمنت هذا بالفعل !! »

« هل تسمحين لى أن أقدم لك نفسى ؟ ! »

« أرجوك ! »

« حسين شكرى من المخابرات العامة المصرية ! »

كان يتحدث بالانجليزية ، وكانت انجليزيته واضحة ، اجتاحها المرح لسبب لاتدريه ، قالت :

« هل تعرف أنى كنت أفكر طوال الرحلة ، فى أنك كنت هناك من أجلى ؟ ! »

« إذن فنحن نتعامل مع ذكاء لابد أن نحسب له ألف حساب ! »

« لاتكن متفائلا ، فلقد نهرت نفسى بعنف وطلبت اليها ألا تجنح للخيال ! »

قالت هذا وهى تضحك فبادلها الضحك وكانت السيارة تبتعد فى أرض المطار عن مبناه الرئيسى حيث الأضواء والأنوار تغمر المكان . . . خفتت الضحكات فاكتسى وجه رفيقها بمسحة من الجدية ، اعتدل فى

جلسته اعتدال منْ سيقول كلاما ينبغى له أن يسمع جيدا :

« أحب أن أنقل إليك ترحيب الشعب المصرى بوجودك فى بلاده ! »

فى انطلاق وجدت نفسها تقول :

« ليتنى أستطيع أن أشكر الشعب المصرى على كرمه ورقته فى استقبال ضيوفه »

ولم يكن هناك مزيد من الوقت كى يتبادلا الحديث أكثر من ذلك ، فلقد توقفت السيارة فى مكان بدا لها غريبا ، الهاها الحديث عن النظر إلى الطريق فاذا هى فى مكان خافت الاضاءة بعيدا عن مبنى المطار الرئيسى ، فتح باب السيارة من الخارج فور وقوفها ، وأشار حسين شكرى إلى سيارة سوداء اللون المانية الصنع فاخرة كانت تقف هناك :

« تفضلى فراو سمحون ! »

هكذا قال مضيفها فشملت المكان المظلم بعينيها وأرادت أن تخاف لكنها لم تستطع ، غادرت الميكروباس إلى السيارة تحت مظلة كان يحملها سائق يرتدى زيا خاصا أنيقا تحت معطف مطر شفاف . . . ماان عبرت تحت المطر ودلفت إلى السيارة السوداء حتى هتفت :

« ولكن حقيبتى . . . . »

ولم تكمل ، ولم تكن فى حاجة إلى ذلك ، فلقد رد الرجل الذى دلف خلفها وجلس إلى جوارها :

« لاتقلقى ياسيدتى ! »

●●●

فى إحدى الڤيللات الأنيقة ، وسط حى راق من أحياء ضاحية مصر الجديدة ، قضت السيدة هيلين سمحون ليلتها ، وجدت فى الفيللا ـ منذ أن دخلتها ـ رعاية من نوع خاص ، قدمها لها مجموعة صغيرة من

الشبان والشابات الذين كانوا يتمتعون بمواهب عديدة ، سألها مضيفها إن كانت فى حاجة إلى شىء بعينه ، فشكرته قائلة :

« ليس أكثر من عشاء خفيف ، فلست أدرى أى يوم ينتظرنى غدا ! »

أرادت بكلماتها الأخيرة أن تجرى معه حوارا تستكشف به خبايا الغد لكنه بدا وكأنه لم يسمع ماقالته ، فلقد بادلها الابتسام وهو يقول :

« إذا احتجت إلى أى شىء فليس عليك إلا أن تطلبى ! »

ثم ودعها وانصرف !

وكانت حقيبتها الآن قد وصلت !

. . . .

. . . .

كانت الفيللا التى نزلت فيها السيدة سمحون أنيقة بقدر يسمح للمقيم فيها أن يشعر بالارتياح دون حرج . . . بعد أن تناولت العشاء تقدمت منها عزيزة - وهذا هو اسم الفتاة المصرية الخمرية اللون الباسمة العينين التى لازمتها ، حتى فى العشاء ، كمضيفة لها - وسألتها إن كانت تحب أن تشاهد التليفزيون المصرى ، فسألتها هيلين عن البرامج التى سيعرضها ، فقالت الفتاة الخمرية اللون وهى تنظر فى ساعة يدها وكانت تشير إلى الحادية عشرة مساء : انه لم يبق فى البرامج سوى فيلم السهرة . . . سألتها عن موضوعه ، فقالت عزيزة إنه عن فتاة مصرية تجسست لحساب إسرائيل قبل حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وإن اسمه « الصعود إلى الهاوية » . . . وفى حقيقة الأمر فإن هيلين لم تكن على استعداد لمشاهدة فيلم مصرى ، ولكن العنوان استخفها ، فسألت عزيزة عن معناه ، فقالت هذه :

« لو أنك شاهدت الفيلم ، لادركت معناه ياسيدتى ! »

كانت عزيزة تتقن اللغة الألمانية اتقانا بدا لهيلين مدهشا ، لكن دهشتها زالت عندما عرفت أن عزيزة تعلمت فى المدرسة الألمانية منذ طفولتها المبكرة ، وكانت على استعداد لأن تترجم لها الحوار أيضا . . . وهكذا شاهدت هيلين فى تلك الليلة ذلك الفيلم وهى تتساءل : هل هى صدفة أن يعرض التليفزيون هذا الفيلم فى نفس ليلة وصولها ؟ ! . . . ولكنها لم تسأل عزيزة بالطبع ، وكان كل ماقالته بعد أن ترجمت لها الفتاة الرقيقة حوار المشهد الأخير :

« إنكم تحبون بلادكم إلى حد العذاب ! »

وردت عزيزة على الفور :

« لأننا تعذبنا فى حبها كثيرا ياسيدتى »

●●●

فى صباح اليوم التالى ، كانت السحب التى عبرت سماء القاهرة بالأمس قد انقشعت بعد أن أفرغت حمولتها طوال الليل مطرا ظل يهطل لساعات . . . فى الصباح كان الجو صحوا والسماء تبدو ممتدة الزرقة ، والشمس ترسل أشعتها الدافئة لتغمر بها كل الدنيا . . . لذلك ، فلقد وافقت « فراو سمحون » على اقتراح عزيزة بأن تتناول أفطارها فى شرفة الفيللا المطلة على تلك الحديقة الصغيرة ، التى بدت لها - برغم الشتاء وبرودة الجو - خضراء مورقة . . . كما ذكرتها بعض النباتات فيها بتلك التى كان ديفيد مولعا برعايتها فى حديقة بيتهم . . . كان افطارها مكونا - كما طلبت - من البيض والجبن الأبيض والمربى ، ثم فنجان من القهوة الساخنة اللذيذة !

فى ذلك الصباح كانت عزيزة من الرقة بحيث لم تثقل عليها بوجودها ، بل بدت لها مثل طيف يظهر إذا احتاجت لشىء ثم يختفى ... ولقد احست هيلين بأن ذهنها يبدو صافيا تماما ... كانت قد قضت ليلة هادئة ، واستغرقت فى النوم كطفل رضيع ... بدا لها كل شىء الآن ، وهى جالسة فى الشرفة ، واضحا أشد مايكون الوضوح ، وماهى إلا ساعة أو ساعتان حتى تواجه الحقيقة التى عذبتها ... تلك الحقيقة التى برغم وضوحها وسفورها ، لم تجب عن سؤال كان يلح عليها الحاحا متصلا : « من كان ديڤيد شارل سمحون ؟ ! »

« هل تريد فراو سمحون مزيدا من القهوة ؟ ! »

رفعت عينيها نحو عزيزة فبدا لها لونها الخمرى صافيا رائعا ، قالت فى ترحيب :

« أرجوك ! »

تابعت الفتاة فى انصرافها ، وتابعت فتى جاء مهرولا كى يرفع أطباق الافطار وراحت من جديد تتساءل : « من كان هذا الرجل ديڤيد شارل سمحون ؟ ! » ... من الرجل الذى تعامل أرملته فى مصر بمثل هذه الرقة وبمثل هذا الترحيب ؟ ... وكيف ... كيف عاشرته طوال مايقرب من سبع سنوات ، وانجبت منه طفلين ، دون أن تكتشف حقيقته ؟ ! ... أيه داهية كان ديڤيد ؟ ! ... وأى ثعلب هذا الرجل ؟ ! ... ثم ، أى نوع من الرجال كان ؟ !

وكان لابد ـ فى هذا الوقت من الصباح ، وفى مثل هذا الجو الدافىء المخدر ـ أن تترى الذكريات ! !

. . . .

. . . .

كان لقاؤها الأول بديڤيد شارل سمحون فى عشاء أقيم على شرفها فى تل أبيب ، التى كانت قد طارت اليها لتوقيع عقد صفقة من تلك الصفقات الروتينية التى تعقدها شركتها ومديروها مع العديد من دول العالم ... وعندما قدموا لها ديڤيد فى ذلك المساء بدا لها لأول وهلة رجلا غريبا ، ذلك أنها شعرت ـ وكانت تراه لأول مرة فى حياتها ـ وهى تصافحه ، أنه يقتحم حياتها بنظرات عينين شديدتى التعبير والنفاذ ... ظنت فى البداية أنه واحد من رجال الأعمال الذين يخلطون بين الجد والهزل فنفرت منه ، غير أن دهشتها كانت عظيمة ، عندما بدأ معها حوارا حول موضوع الصفقة التى جاءت من أجلها ... كان أول ماأدهشها فى الأمر ، أن ديڤيد كان على المام كاف وواف بجميع التفاصيل التى كانت تظن أنها تندرج تحت بند السرية ... قال لها فى تلك الليلة إنه يعمل فى السياحة حقا ، لكنه يفكر فى خوض تجربة العمل فى مجالات أخرى ... وأن لاشىء ينقصه سوى دليل يقوده عبر الدروب الأولى لهذه المجالات !

وهى لاتدرى كيف عرضت عليه أن تساعده ... هل كانت فى حاجة لأن تلتقى به مرة أخرى ، أم أنه هو الذى دفعها ، بذكائه ، إلى هذا العرض ؟ ... وهى لاتدرى كيف ضرب لها موعدا فى اليوم التالى فوافقت ، .كيف التقيا وكيف بدأ الحديث وكيف ناقشا الأمر وكيف انتهت المناقشة إلى اتفاق بانشاء شركة بينه وبينها ! !

وقد يكون هذا كله موضع تحليل يصل بها إلى انها كانت فى حاجة لهذه الشركة ربما أكثر منه ، وأن الصفقه كانت مجزية تماما ... قد يكون الأمر كذلك ، ولكن كيف كان ديڤيد شارل سمحون رجل

الأعمال الاسرائيلى ، الشهير والمرموق وموضع ثقة كل من التقت به فى تل أبيب ، كيف كان فى الأيام التالية لوجودها فى إسرائيل ؟ !

ولقد حاولت أن تجد الاجابة عن عشرات الاسئلة التى طرحتها على نفسها قبل الزواج منه وبعد أن تم الزواج أيضا ، لكنها لم تجد إجابة واحدة ، ذلك أن الأحداث كانت تندفع نحو تلك النتيجة التى وصلت اليها بقوة خفية . . . وهى لاتدرى سوى أن هذا الرجل النحيل له حديث ساحر يأخذ بالألباب ، وقدرة فذة على الاقناع دونما ضغط أو مباهاة . . . أكثر ماأدهشها فيه أنه لم يكن يساوم فى تفاصيل تافهة ، لكنها تبدو شديدة الأهمية لبنى جنسه . . . هى ليست من أعداء السامية ، وهى ترى أن العداء لجنس من البشر نوع منحط من التخلف فرضته ظروف بعينها . . . ولكن ثمة حقائق وصفات بالنسبة للأجناس تبدو كجزء من « جيناتها » وطبيعتها وتكوينها الدينى والخلقى والاجتماعى والوراثى . . . هى تعرف ـ دون تحزب أو تعصب ـ أن اليهودى إذا ماساوم إنسانا حول صفقة ، أو بيع أو شراء أو مشاركة ، سار فى طريق من يريد أن يأخذ كل شىء ، ولا يعطى شيئا على الاطلاق . . . وكما اشتهر الانجليز بالبرود اشتهر اليهود بالبخل . . . هؤلاء هم اليهود فى كل زمان ومكان وعصر .

لكن ديفيد لم يكن كذلك !

قضت الأيام التالية فى تل أبيب وهما يلتقيان كل يوم . . . أنهيا اتفاقهما ووقعا عقد الشركة بينهما وكانت تشعر أن شيئا ـ غير العمل ـ سوف يربطها بهذا الرجل إلى الأبد ! ؟

وانقضت أيامها فى إسرائيل وصحبها إلى المطار فى سيارته كى يودعها ... ورغم كثرة لقاءاتها ، ورغم الصداقة التى ربطت بينهما ،

ورغم أنهما سهرا معا وتعشيا معا ورقصا معا وقاما برحلة إلى القدس وقضيا يوما استمتعا فيه بشمس الشرق الدافئة ، رغم كل هذا ، لم يكن هناك مايشير أو يوحى بشىء من عاطفة أو حب . . . لكنه فى المطار ، وقبل أن تمضى إلى الطائرة ، مال عليها ـ بغتة ـ وقبلها فى وجنتها . . . ولقد أُخذت بما فعل رغم أنه يبدو طبيعيا ولايعنى شيئا . . . لكن حرارة الفعل سرت إلى جسدها مثل تيار كهربى جعلها ترتجف ، رفعت إليه عينين تائهتين ، وكان هو يبتسم قائلا :

« صدقى أو لاتصدقى ياهيلين ، إنى سافتقدك كثيرا ! »

ولم ترد عليه ، أرخت عينيها وهرولت هاربة من نظراته ، كان المذهل فى الأمر أنها كانت تشعر ـ هى الأخرى ـ أنها سوف تفتقده كثيراً . . . شىء غريب كان يجذبها إلى هذا الرجل الطويل النحيل ، شىء بدا لها غامضا ومثيرا أشد ماتكون الاثارة ، فى حياة كانت تسير على وتيرة شديدة الاملال ! !

فى هامبورج ، كان عليها أن تجهز أوراق الشركة للتسجيل ـ هكذا اتفقا فى تل أبيب بعد توقيع العقود ـ وكان عليها أن تبرق له اذا ما انتهت تلك الاجراءات ، كى يحضر الى ألمانيا ، لتصبح بعده الشركة كيانا قائما بالفعل .

فى البداية ـ وبمالها من خبرة ـ قدّرت أن الأمر قد يستغرق أسبوعا أو عشرة أيام ، ولكن كل شىء ـ وكانت هذه مصادفة غريبة ـ كان جاهز فى ثلاثة ايام . . . ولكنها لم تبرق إليه . . . كانت فى حاجة إلى بضعة أيام كى تتخلص من هذا الاحساس الغريب الذى راح يطاردها ليل نهار . . . استغرقت فى العمل ، ارتبطت بمواعيد للذهاب إلى المسرح ، والعشاء فى الخارج . . . كانت تقضى يومها كله فى عمل أو

متنقلة من مكان الى مكان ، غير أن الليل دائما ما كان يأتى ، وكانت لابد أن تدخل فراشها ، لتمارس أحلامها كصبية مراهقة ! !

وكان لابد أن تبرق إليه ، فأبرقت له فى صباح يوم ، ليركب هو الطائرة فى نفس اليوم ، ولتطالعها ابتسامته فى المساء وهو يهتف :

« انى فى حاجة لمن يدعونى إلى العشاء ! »

ودعته إلى العشاء ، ورقصت معه طوال الليل ، وقاومت بجهد شديد رغبتها فى الاستسلام لذراعيه ، وهى لم تكن تعرف لم كانت تقاوم ولم كانت ترفض . . . هل لأنه يهودى ، أم لأنه إسرائيلى الجنسية ، أم لأنه شرقى ، أم لأنها تعودت على الوحدة منذ توفى زوجها الأول ، أم أنها كانت خائفة من طوفان العواطف الذى كان يكتسح مقاومتها فى عنف كلما جلست إليه ؟ !

سألته ذات ليلة :

« ديفيد . . . من أنت ؟ ! »

« ملاح يبحث عن شاطىء ! »

كان هذا فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٤ وعندما لمحت الدموع تترقرق فى عينيه فى تلك الليلة ، فقدت كل قدرة على المقاومة ، وعندما امتدت يده لتأخذ بيدها ، كان صوته يتسلل إلى قلبها فيغزوه بعنف :

« ولقد وجد شاطئه ياهيلين ! »

« ولم لايرسو ؟ ! »

« ينتظر الاذن بالدخول إلى الميناء ! »

وارتمى كل منهما فى أحضان الآخر ! !

عندما أوصلها بالسيارة إلى البيت فى تلك الليلة ، قال قبل أن تغادرها :

« هيلين ! »

كان الآن يبدو غريبا ، جادا وكأنه يحمل هموم الأرض فوق كتفيه ، سمعت صوت أنفاسه اللاهثة تتردد فى سكون العربة الدافئة التفتت إليه وانتظرت ، بدا لها وكأنه يعانى من ألم مجهول . . . لكنه مالبث أن قال :

« لقد فكرت فى الزواج كثيرا طوال السنوات الماضية ! »

داعبته متحدية :

« ولِمَ لم تتزوج ؟ ! »

« لأنى – فى الحقيقة – لم أكن راغبا فى الزواج ! »

« والآن ! »

ضحك ضحكة بدت لها خجولا ، ثم جاءها صوته ممزقا بالانفعال وكأنه لايصدق مايشعر به :

« الكارثة أنى لاأحبك فقط ، لكنى أصبحت لاأستطيع العيش بدونك ! »

أيقنت أنه كان يتعذب ، وأن عذابه كان لسبب مجهول ، هتفت وهى تأخذ وجهه بين ذراعيها :

« ديڤيد »

« أحبك »

« أعرف »

« وأريد أن اتزوجك ! »

«وأنا موافقة ! »

« وأن أنجب منك أطفالا ! »

أحاطت عنقه بذراعيها وهى تهتف به :

« أيها المجنون . . . أيها المجنون ! »

واكتشفت هيلين أن كليهما كان يبكى ، وان دموعهما كانت تختلط لتغسل وجهيهما فى سعادة لم تذق مثلها من قبل ، هتفت فى لحظة فقدت فيها نفسها :

« لنتزوج غدا ياديڤيد ! »

كانت تخشى من التردد ، لكنها ، ولو عاشت مائة عام أخرى ، لن تنسى سحابة الحزن تلك التى مرت بملامحه فاجتاحتها كاعصار رهيب ، عادت تهتف به :

« ديڤيد ! ! »

« هذا ماكنت أود الحديث معك فيه ! »

« ماذا تريد أن تقول ؟ ! »

« هل تستقيم الأمور لو أننا تزوجنا وظل كل منا يعيش فى وطن ! »

«أعرف أن الأمر لن يكون سهلا ولكن . . . . »

قاطعها :

« وهل من مصلحتك ومصلحة أعمالك أن تنقليها إلى إسرائيل ؟ ! »

« هذا مستحيل ياحبيبى ! »

« وهذا ماأعرفه يقينا ! »

نظرت إليه هيلين وقد تسلل القلق إليها ، عادت تهمس :

« ماذا تريد أن تقول بالله عليك ؟ ! »

« أريد أن أقول إنى سئمت كل شىء ! »

« لست أفهم ! »

« أريد أن أصفى أعمالى فى تل أبيب ، وأن أعيش إلى جوارك مابقى لى من عمر ! »

فى حرارة وجدت نفسها تهتف :

« كم أحبك أيها المجنون ! »

« سأشرع فى نقل أعمالى إلى ألمانيا ، حتى إذا استقر بنا الأمر تزوجنا ! »

وهكـذا مضت بهما ستـة أشهـر من اللهفة والعـذاب والقلق والانتظار ، كانت تظن فى البداية أن الوقت قد يجلب التردد إلى صدرها ولكنها كانت تزداد قربا منه وحبا له ، كانا يتحدثان فى التليفون كل ليلة فتمضى بهما الدقائق لتكتمل ساعات وكأنهما صبيان يعيشان حياتهما لأول مرة ، ذات مساء صاح فيها :

«هيلين . . . لقد أفلست تماما ! »

انزعجت . هتفت :

« ماذا ؟ ! »

أطلق ضحكة جلجلت عبر الأثير عابرة القارات إلى حيث يركض قلبها بين ضلوعها :

« هل تعرفين كم دفعت فى فاتورة التليفون صباح اليوم ؟ ! »

فأطلقت هى الأخرى ضحكة مجلجلة ، لكنها ضحكت أكثر وهو يقول :

« هل نسيت أنى يهودى أيتها السيدة ؟ ! ! »

يالـرقتـه ومرحه وحنانه وسخريته اللاذعة من كل شىء حتى من نفسه ، يالروعة الشوق وحرارته وهو يغزو قلبا لم يعرف للشوق طعماً من قبل ، يالبطء الأيام وهى تزحف كالسلحلفاة لاتريد أن تخطو . . . دق

جرس التليفـون ذات ليلة وكان يتحدث من روما ، صاحت فيه أن يركب أول طائرة إلى هامبورج كى يراها وتراه ، اعتذر باعمال تشغله وكان فى عجلة من أمره وكان/سعيدا وكان مرحا . . . هى لاتنسى ، ولن تنسى ، صوته فى تلك الليلة ، كان يبدو وكأنه أمسك القمر بيده :

« هيلين . . . سوف نتزوج . . . سوف نتزوج قريبا ! »

ولكم ساءلت نفسها طويلا عن سر تلك الجملة . . . ألم يتفقا على الـزواج منذ شهور فما معنى ماقاله ؟ . . . ولكن احساسها بالسعادة صادر رغبتها فى إثارة جدل قد لاينتهى إلى شىء . . . أليس غريبا أن يملك رجـل تجاوز الاربعـين بعـدد لابـأس به من السنين ، وإمرأة جاوزت الثلاثين بنفس العدد ، كل هذه الحرارة وكل هذا الحب وكل هذا الشوق وكل تلك الرغبة فى الحياة ؟ !

حتى كان يوم من أيام مارس ١٩٧٥ . كانت مستغرقة فى أعمالها فى مكتبها بالشركة عندما أخبروها أن الهر سمحون ينتظر فى الخارج . . . صاحت غير مصدقة :

« هر من ؟ ! »

« هر سمحون ياسيدتى ! »

قفزت من مكانها ، فقدت وقارها ، اندفعت وسط دهشة موظفيها تعبر الغرفة وتفتح الباب وتصيح فى اللحظة التى وقعت فيها عيناها عليه :

« أيها الثعلب ! »

فتح لها ذراعيه فارتمت بينهما غير عابئة بنظرات الموظفين وابتسامات

الموظفات ، ألغت كل المواعيد ، واعتذرت عن كل شيء ، دفعته إلى غرفة مكتبها ، أغلقت الباب وأجلسته أمامها وانحنت نحوه متسائلة واللهفة تأكلها أكلا :

« اجازة ؟ ! »

هز رأسه نفيا . . . . فسألته وقد غاضت الابتسامة من وجهها :

« مزيد من العمل ؟ ! »

مرة أخرى هز رأسه نفيا ، صاحت وهى تلقى بنفسها إلى جواره :

« ماذا إذن ؟ ! »

همس :

« زواج ! ! »

ولم تكن هناك على وجه هذه الأرض ، إمرأة أكثر سعادة من هيلين ريشتر ، التى كانت تدعى قبل زواجها الأول ، هيلين شيبربور ، والتى سيصبح اسمها بعد ساعات « هيلين سمحون ! »

●●●

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحا بقليل ، وكانت لاتزال فى جلستها تلك فى شرفة الڤيللا المطلة على الحديقة ، ترشف من فنجان قهوتها الثانى على مهل ، عندما شاهدت السيارة السوداء الألمانية الصنع تقف بالباب .

تابعت « حسين شكرى » وهو يغادر السيّارة فى نشاط ، ثم يدلف من باب الڤيللا ملوحا فى مرح وكأنهما صديقان قديمان ، ثم وهو يقفز الدرجات المؤدية إلى الشرفة فى رشاقة من يمارس لعبة رياضة عنيفة . . . تقدم منها ملقيا عليها تحية الصباح ، ثم وقف قبالتها متسائلا :

« هل أطمع فى تناول فنجان من القهوة معك ؟ ! »

هكذا كان مرح ديڤيد ، رقيقا بسيطا خاليا من التكلف ، كانت على حق يوم صاحت فيه إنه ليس يهوديا وليس اسرائيليا ، فضحك وكأنها قالت نكتة . . . سألها حسين شكرى بعد أن وضعت عزيزة فنجان القهوة أمامه :

« كيف قضيت ليلتك ياسيدتى ؟ »

قال مبتسمة :

« هل أنت فى حاجة إلى الاشادة بالكرم المصرى ؟ ! »

« لعلك أخذت قسطا وافيا من الراحة ؟ ! »

فهمت ما الذى يعنيه فسألته :

« هل أستطيع أن أعرف شيئا عن برنامج يومى ؟ ! »

« ليست هناك سوى مقابلة واحدة ! »

« مع من ؟ ! »

«مع مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ! »

هاهى ذى تقترب من الحقيقة سافرة عارية بلا ظنون أو تخمين .

« متى ؟ ! »

« بعد نصف ساعة ! »

همت فى جلستها :

« ماذا ننتظر إذن ؟ ! »

أشار إلى فنجان القهوة هاتفا فى مرح :

« أن انتهى من قهوتى ! »

« هل هناك متسع من الوقت ؟ ! »

كانت تبدو كطفلة متعجلة . قال :

« بالطبع لا . . . ولكننا سنصل فى الموعد ! »

قال هذا وهو ينهض راشفا رشفة أخيرة من فنجان القهوة . . . وهكذا احتوتها السيارة السوداء مع رفيق رحلتها هذا ، وانطلقت بهما فى شوارع القاهرة ، وكانت المدينة ، تحت أشعة الشمس الواهنة ، تبدو مغسولة . . . تبدو كعروس خرجت من الحمام لتوها !

. . . .

. . . .

كانت السيارة التى ركبتها هيلين ، من النوع الذى يخفى زجاجها من فى داخلها ، لكى يتيح للراكب أن يرى كل شىء فى الخارج . . . ولاتدرى هيلين لم أشعرها هذا بسكينة تسللت إلى نفسها فاستسلمت مرة أخرى للذكريات ، ولم لا ؟ ! . . . ألم يولد ديڤيد فى هذه المدينة كما قال لها ؟ ! . . . ستطلب إليهم زيارة البيت الذى عاش فيه ، ولسوف يلبون بالطبع . . . حرصهم عليها يشعرها بالامتنان . . . فى نهاية عام ١٩٧٦ أنجبت طفلها الأول « يوسف » ، كان ديڤيد سعيدا سعادة تفوق حدود التصور ، لم تحلم هى بأن تنجب أصلا ، ولكن : كيف فعلت مافعلت وكيف أقدمت على ماأقدمت عليه ؟ . . . هذا مالم تفهمه حتى الآن . . . هل كانت رغبة ديڤيد فى طفل آخر هى السبب أم أنها استعذبت أن تكون أما ؟ ! ! . . . أنجبت بعد عامين طفلها الثانى « سليمان » ، سبع سنوات هى منذ التقيا حتى فارقها تاركا لها طفليه . . . تركت له كل شىء فى أعمالها فتزايدت أرباحها وتزايدت أرباحه . . . أصيب بالمرض بغتة ودون توقع أو الام أو مقدمات . . . كانت الآلام فى البداية خفيفة ، لكنها ، فى سرعة

مجنونة ، راحت تتصاعد وتتصاعد وتمزقه تمزيقا . . . اكتشفوا المرض الخبيث فى وقت متأخر ، وكان الأمل يخبو يوما بعد يوم لكنه - ديڤيد - لم يفقد الأمل لحظة . . . ورغم آلامه وعذاباته لم تختف ابتسامته أبداً ، عالجه أمهر أطباء العالم ، لكن السرطان كان مثل غول ينهش بقية عمره بلا رحمة . . . دوامة بدأت ولم تنته حتى الآن . . . فى تلك الليلة كان واضحا أنه سيذهب ، كان واهنا ضعيفا ، كان يبدو وكأنه ملّ من المقاومة ، فقرر أن يترك ماتبقى من عمره للسرطان كى يقضى عليه بلا مقاومة . . . فناداها !

لبت نداءه وجلست إلى جواره وتركت له يدها كى يتشبث بها . . . كان شاحبا شحوبا مروعا .

« هيلين . . . استمعى إلىّ جيدا ! »

كانت تتمزق عذابا من أجله . . انهمر الدمع من عينيها بالرغم منها .

« ديڤيد . . . هل آتيك بحاخام ؟ ! »

وابتسم ديڤيد ، وهى أبدا ، ومهما مر بها من أحداث أو عمر ، لن تنسى تلك الابتسامة الواهنة على شفتيه الزرقاوين .

« ديڤيد ! »

« ياحبيبتى . . . هذا ماكنت أود أن أقوله قبل أن أذهب ! »

« ماذا تريد أن تقول ؟ ! »

« إن من كان مثلى لايحتاج الى حاخام ، فلست فى حقيقة الأمر يهوديا ! »

ظنته يهذى ، ربتت على وجنته هامسة :

« ألا تريد أن تستريح قليلا ! »

« أنا لا أهذى ياهيلين ، وليس هناك وقت ! »

« ستعيش مائه عام أخرى فلا تقلق ! »

كانت تريد أن تمازحه ، لكنه قال فى حدة :

« لست يهوديا ولست إسرائيليا ! »

لم تنطق كلمة ، بدا لها الأمر فوق كل خيال ، كان واضحا أنه لايهذى حقا .

« انني مصرى ، وأنا أيضا مسلم ! »

« ديڤيد ! »

« وليس اسمى ديڤيد ! »

قال هذا ثم راح يلهث . . . وبدت فى عينيه نظرة ملهوفة .

« اسألى . . . . اسألى عنى جهاز المخابرات المصرى . . . الـ . . . الحقيقة عندهم ! ! »

ازداد شحوب وجهه وزرقة شفتيه كما ازدادت لهفته . . . بدا وكأن آلاف الكلمات تتزاحم فوق شفتيه ، تشبث بيدها أكثر ، حاول الحديث ، حاول أن يقول شيئا ، حاول ، حاول ، لكنه لم يقل سوى :

« الولدين ! »

ثم صفت نظرته صفاء مدهشا ، وابتسم ، وشهق ، وسقط رأسه !!!

●●●

« فراو سمحون ! »

التفتت نحو الرجل الذى احترم صمتها فلزم الصمت طوال

الطريق ، انتزعت نفسها انتزاعا مما كانت فيه ، وكان هذا يشير إلى مبنى هائل بدا لها على يسار الطريق وهو يقول :

« وصلنا ! »

انتبهت كل حواسها ، وكانت السيارة تنثنى الآن إلى اليسار كى تعبر بوابة يقف عليها عدد من الحراس أدوا التحية لمن لايرونهم فى داخل السيارة . . . عبرت البوابة الخارجية ثم دارت نصف دورة فى الفناء ، لتصعد منحدرا إلى حيث الباب الرئيسى لمبنى جهاز المخابرات العامة المصرية . . . وكان هناك اثنان فى استقبالها . . . ولم يكونا سوى الشابين اللذين زاراها بالأمس فقط ، فى بيتها فى مدينة بريمن ، على بعد آلاف الأميال !!

●●●

من العسير أن نعرف طبيعة الحوار الذى دار فى مكتب مدير جهاز المخابرات العامه المصرية فى ذلك اليوم ، ولايستطيع المرء أن يعرف ـ على وجه اليقين ـ ان كانت صعوبة الحصول على هذا الحوار مردها إلى المعلومات السرية التى تبودلت فى تلك الجلسة الحميمة التى ضمت مدير الجهاز ومجموعة من معاونيه لاتتجاوز الأشخاص الثلاثة ، مع السيدة هيلين سمحون ، أم أن فى الأمر شيئا آخر يصعب التكهن به . . . وعلى كل ، فثمة حقيقة لايمكن انكارها أو اخفاؤها ، وهى أن الجلسة كانت ودية للغاية ، ولقد لاحظت « فراو سمحون » أن واحدا من معاونى المدير ، بدا لها وجهه وكأنها التقت به من قبل . . . غير أن الحديث جرف الجميع ، فبعد أن قدم لها المدير تعازيه وتعازى زملائه ، وقال إنه يأسف لأن التعزية جاءت متأخرة ، فلم يكن ممكنا .

أن يبادر أحد بالاتصال بها قبل أن تتصل هى أولا حتى يجنبها كل حرج لو أنها لم تكن تعرف شيئا عن حياة المرحوم ديڤيد شارل سمحون ، ذلك أن هناك طريقا وحيدا وواحدا من الممكن لها أن تعرف الحقيقة عن طريقه ، هو ديڤيد نفسه ولاأحد سواه !

قال المدير هذا ثم صمت ، وترددت السيدة سمحون قليلا ، لكنها ـ فى اختصار شديد ـ قالت : إن الأمر كان مفاجئا لها ، خاصة أن ديڤيد باح لها بما باح به قبل أن يسلم الروح مباشرة ... ولقد كانت خائفة ومرتبكة ولاتدرى كيف تتصرف ... فلقد تزوجت رجلا إسرائيليا يهوديا ، ثم فوجئت به يقول بأنه مصرى مسلم ، وكان هذا قبل وفاته بثوان ... فهل هذه هى الحقيقة ؟ !

« نعم ياسيدتى ، كان زوجك مصريا ، وكان أيضا مسلما ! »

اندفعت هيلين فجأة وكأنها تذكرت هذا الأمر على غير انتظار وفى غير وقت التذكر :

« لست أدرى كيف غاب هذا الأمر عن ذهنى طوال ذلك الوقت رغم أنى فكرت فيما حدث وما كان مئات المرات ، واستعدت ذكرياتى مع ديڤيد طوال تلك الأيام التى انقضت منذ وفاته وحتى صباح اليوم .... ان ... ان الأمر يبدو لى غريبا بعض الشىء ! »

ساد الغرفة صمت غريب وترقب بدا فى عيون الرجال التى احاطتها بالود ، حتى قال المدير :

« ماهو هذا الشىء الغريب ؟ ! »

« كنت ... كنت أدخل عليه أحيانا فأجده جالسا على الأرض ، ومتجها نحو الجنوب الشرقى ، دائما ... دائما نحو الجنوب الشرقى ... رباه ... انى اتذكر الآن جيدا ولكنى وقتها لم أعر الأمر

اهتماما ... كان يتجه نحو الجنوب الشرقى فى غرفة نومنا ، وكان يجلس على الأرض وهو يقرأ فى الـ ... الـ ... ماسم كتاب المسلمين المقدس ؟ ! »

« القرآن ! »

« نعم ... كثيرا ما كان يقرأ القرآن ... وعندما سألته ذات مرة ، وكنت أعرف أنه يتقن اللغة العربية ، ربما أكثر من العبرية والألمانية ، ابتسم وبدا وكأنه يخفى سراً ، وقال انه يقوم ببحث فى الأديان منذ سنوات ! »

وعاد الصمت يلف الجميع من جديد حتى عادت هى إلى الحديث :

« لقد صدقته ... نعم صدقته فلم يكن ديڤيد يكذب علىّ أبدا ! »

كانت المرارة تتساقط من كلماتها وهى تتفوه بجملتها الأخيرة ، فقال أحد معاونيه على الفور وكأنه يوضح أمرا هاما :

« سيدتى ... لم يكن ديڤيد يملك أن يطلعك على سره ، فلم يكن ذلك السر ، بكل المعانى ، ملكا له !! »

تمتمت هيلين :

« الآن أدرك ذلك ... أدركه عن يقين ! »

قال المدير :

« على كل الأحوال ، أحب أن أقول لك اننا على استعداد للاجابة عن أى سؤال ، كما أننا على استعداد ، أيضا ، لتلبية أية رغبة ، سواء بالنسبة إليك أو للصغيرين ! »

هتفت هيلين فى محاولة لتوضيح الأمور :

«مهلا سيدى المدير ، لقد كان كل شىء كما قلت لك مفاجأة لى ، ولقد عشت أياما صعبة حقا . . . وبالطبع فان لدى عشرات الاسئلة التى أريد أن أطرحها . . . أما الرغبات ، فلست أعتقد أن لى رغبات معينة ، ولعلكم تعرفون ـ وأنتم لابد تعرفون ـ أن ديڤيد ترك لولديه ولى بضعة ملايين من الماركات والدولارات . . . ولكنه فى النهاية ذلك الاحساس بالمسئولية تجاه الصغيرين !! »

« هذا شىء نقدره تماما ! »

« لقد عوملت فى بلادكم معاملة كريمة حقا ، وهذا يربكنى أكثر ! »

« لاتنسى ياسيدتى أنك كنت زوجة لبطل من نوع فريد وفذ !! »

« بطل ؟ ! »

هتفت هيلين بالكلمة فى صوت مرتجف ، وبدا أن ارتباكها قد ازداد وإن كانت بشرتها قد تشربت بحمرة من ارتدت إليه الحياة ؛ قالت وقد استقام صوتها :

« هناك سؤال واحد ، اعتقد انه المفتاح بالنسبة لكل الاسئلة الأخرى ! »

« لك أن تسالى أى سؤال يعن لك ! »

« من كان زوجى ؟ ! »

عاد الصمت يلف الغرفة ، اعتدل المدير فى جلسته ، فاستطردت هيلين :

« لست أقصد اسمه فلقد كان له اسم مصرى بالطبع ، وهو نفسه قال لى قبل أن يذهب ان ديڤيد ليس اسمه ، ولكن الذى اقصده بالتحديد هو : من كان الرجل الذى أنجب يوسف وسليمان . . . إنه

والدهما ، ولسوف يسألان ذات يوم من أبوهما ، ولابد لى أن أجيب

كانت هيلين الآن تلهث انفعالا ، ولقد ترك لها المدير الفرصة كى تقول كل ماتريد ، ولقد عادت بالفعل إلى الحديث :

« وأحب إذا ماأجبت عن سؤالهما ألا أكذب ، أو على الأقل ، الا أخطىء ! »

بدا أنها بجملتها تلك ، قد أفرغت كل مافى جعبتها ، لذلك فلقد اعتدل المدير قائلا :

« لايستطيع انسان على وجه هذه الأرض أن ينبئك عمن هو زوجك ، سوى الرجل الذى عاش معه ، وكان صديقا حميما له ، بل ربما كان أقرب الناس إليه على الاطلاق ! »

« من هذا الرجل ، وهل استطيع أن القاه ياسيدى ؟ ! »

أشار المدير إلى صاحب الوجه الذى أحست هيلين بأنها التقت به من قبل :

« إنه هنا . . . السيد عزيز الجبالى ! »

التفتت هيلين نحو عزيز بسرعة ، هتفت :

« سيدى . . . ألم نلتق من قبل ؟ ! »

كان عزيز ـ بشكل ما ـ يبدو أكثر حزنا وانفعالا بالموقف من الجميع ، ولقد بدا لها خجولا مهذبا ، ولقد تردد قليلا وكأنه ينتقى الكلمات ، ثم قال فى صوت خافت :

« حدث هذا مرة واحدة ياسيدتى ! »

أضاءت الذاكرة فجأة فقالت هيلين :

« نعم . . . يوم الجنازة ، لقد كنت هناك و . . . وعندما انتهت مراسم الدفن تلفت نحوك لكنك كنت قد اختفيت فجأة ، كما ظهرت

فجأة ! »

« لم يكن ممكنا ألا أودعه . . . لم يكن ممكنا ألا ألقى عليه نظرة أخيرة ! »

« ولكن لماذا لم . . . . »

بدأت السؤال مندفعة ثم توقفت ، فلقد أدركت الجواب فورا . . . تمتمت :

« لاعليك . . . إنى أدرك الآن . . . أستطيع أن أفهم ! »

ابتسم لها المدير فى ود وهو يقول :

« لعلك فى شوق لأن تعرفى الاجابة عن سؤالك ؟ ! »

« نعم . . ولعلى أخذت من وقتك أكثر مما ينبغى ! »

قالت هذا وهى تنهض فنهض الجميع ، صافحها المدير قائلا :

« لابد أنك تدركين أن هناك بعض الأسرار التى لايمكننا ـ مهما كانت الاحوال ـ أن نبوح لك بها ! »

« ثق ياسيدى انى لن اثقل عليه . . وداعا ! »

« بل إلى اللقاء ! »

● ● ●

كان المكان الذى جلسا فيه ـ هيلين سمحون وعزيز الجبالى ـ عبارة عن صالـون صغـير ، مؤثث بأثـاث متـواضـع ، له نافـذتان غريبتا التصميم تطلان على حديقة صغيرة تبدو مهجورة . . . ولقد لاحظت هيلين ، منذ اللحظات الأولى ، أن هذا الصديق يبذل جهدا حقيقيا ومضنيا كى يخفى عنها اعصارا رهيبا من الحزن كان يجتاحه . . . جلس كل منهما قبالة الآخر ، ووضع أمام كل منهما كوب من عصير الليمون وفنجـان من القهـوة . . . راحت تنـظر اليه بامعـان ، كان متـوسط

الطول ، متناسق التقاطيع فى وسامة مهملة ، حاد النظرات ، ثابت الملامح ـ ان صح التعبير ـ فلقد كان وجهه قناعا غريبا لانسان يصعب ان تخترق ماوراء عينيه . . . ظلت صامته حتى قال مبتسما :

« حسن . . . من أين تريدين أن نبدأ ؟ ! »

« ماإسم زوجى الحقيقى ؟ ! »

« رأفت الهجان ! »

صاحت :

« أليس هذا هو الاسم الذى . . . . . . »

« نعم ، هو اسمك فى جواز السفر ! ! »

همت بالنطق ثم تراجعت . . . لكنها عادت تسأل :

« كيف التقيت به لأول مرة ؟ ! »

ضحك عزيز ضحكة مقتضبة ، بدا عليه الحرج ، تردد قليلا قبل أن يقول :

« عفوا سيدتى ، فأنا لم التق برأفت ولامرة واحدة ! »

نظرت إليه ذاهلة :

« لست أعتقد أنى فهمت الاجابة ! »

وكـان هذا ماأحست به هيلين حقيقة ، لقد كانا يتحدثان باللغة الانجليزية . . . ولقد ظنت أن ثمة معنى لكلمة قالها عزيز قد فاتها فلقد يتحدث الانجليزية بطلاقة من تدرب على هذا طويلا ، ويبدو أن عزيز قد خمن مايدور فى ذهنها فلقد قال :

« انـك لم تخطىء ياسيدتى فى فهم ماقصـدته ، فأنا فعلا لم ألتق برأفت ولامرة واحدة ! »

« يبدو الأمر وكأنه مجموعة من الألغاز ! »

« وإنه لكذلك فعلا ! »

مالت نحوه كما يفعل الشرقيون إذا ماكان الحديث هاما ، وهى تقول فى انتباه بالغ :

« إذن تفضل لى بحق السماء . . . من ديڤيد تشارلز سمسون ، أو . . . أو رأفت الهجان ؟ ! »

صمت عزيز قليلا ، استأذنها فى التدخين فأستأذنت فى سيجارة ، وسرعان ماتصاعدت سحب الدخان فى جو الغرفة ، وبدأ عزيز الجبالى يحكى !

الفصل الرابع

القناص اليهودى !!

لم يكن السؤال الذى طرحه عزيز الجبالى على السيدة ڤيلين سمسون من قبيل المجاملة وإن كان الأمر يبدو كذلك . . . فهو عندما سألها : من أين تريدين أن تبدأ ؟ . . . كان يريد - فى حقيقة الأمر - أن يعيد التفكير بصوت عال ، فهو - منذ اللحظة التى تقرر فيها دعوة السيدة سمسون إلى القاهرة - كان يعلم أنها سوف تأتى مادامت قد عرفت حقيقة زوجها ، ذلك أنه من المستحيل أن تكون ڤيلين قد عرفت من « ديڤيد » أو « رأفت » سوى شىء واحد ، هو أنه كان على علاقة بجهاز المخابرات المصرى ، فهذا ماكانا - عزيز ورأفت - قد اتفقا عليه بعد حوار قصير عن الظروف والأعمار التى هى بيد الله أولا وأخيراً ، ثم عن الولدين إذا ماحدث له شىء . . . هذا ماكانا قد اتفقا عليه : ألا يبوح رأفت بشىء لزوجته مهما كانت الظروف إلا بهذه المعلومة فقط ، ثم يترك لها الباقى بعد ذلك ، كى تختار بنفسها الطريق !

وهـو . . . هو يعـرف رأفت جيدا ، يعرفه ويعرف مدى التزامه الحديدى بأمن بلاده . . . ثم ، ثم هو كان يعرف ـ أيضا ـ من تكون « فراوسمحون » . . . عرفها منذ أن أعلن رأفت ذات لقاء فى روما أنه ـ أخيراً وبعد كل هذا العمر ـ قد وقع فى الحب . . . كان هذا منذ سبع سنوات ، قال رأفت إنه يريد الزواج من سيدة الأعمال الالمانية « هيلين ريشتر » . . . وكان لابد أن يعرف عزيز كل شىء عن هذه السيدة منذ أن ولدت فى بلدة « خام » بالجنوب الشرقى لألمانيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، وحتى تلك اللحظة التى تجلس فيها أمامه فى احدى غرف الاستقبال المتواضعة الاثاث فى جهاز المخابرات العامة المصرية . . . كان لابـد أن يعـرف « هو » رغم المعلومـات الـدقيقة والوافية والصادقة تماماً التى قدمها رأفت عن المرأة التى اختار فى النهاية أن يربط حياته بحياتها ، وأن يعطيها اسمه المزيف ، وأن ينجب منها أطفـالاً . . . كان لابـد لعـزيز الجبالى أن يعرف،لالشىء ، الا لأن « رأفت الهجـان » لم يكن ـ بالنسبـة لبلاده ـ مواطنا عادياً ، بل كان « سوبر مواطن » إن صح التعبير ، أو « مواطنا فوق العادة » كما تعود أن يطلق عليه بينه وبين نفسه !

كان عزيز الجبـالى اذن يعرف أنها سوف تأتى وسوف تسأل . . . وهذا حقها ، ثم هو كان أيضا يعلم أنه سوف يحكى مايجب عليه أن يحكيه دون زيادة ، ومـايجب أن يحكيه للسيدة سمحـون هو ـ بايجاز شديد ـ قصة بطل قدم لأمته كل عمره فى ذكاء وحرص من يعرف ويقدر المسئولية الجسيمة التى القيت فوق عاتقه ، وأنه صنع ـ بالمعنى العلمى المطلق ، ودون أدنى قدر من المبالغة ـ واحدة من أعظم وأكمل شبكات التجسس فى التاريخ الانسانى كله لصالح شعبه المصرى ، وأمته

العربية !

ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لعزيز ، كانت المشكلة التى يخشى منها بعض الشىء ، تكمن فى تدفق الـذكـريات وهو يحكى ، تكمن فى ضرورة انفصالة عن ذاته . . . ذلك أن عزيز الجبالى اكتشف ـ منذ أن علم بوفاة رأفت الهجان ـ أن حياة هذا الانسان الذى لم يلتق به مرة واحدة وهو حى ، محفورة فى حياته هو شخصيا ، فعلى مدى عشرين عاماً كاملة ، حدث فى حياتـه ـ وهو على اتصال متوتر ودائم برأفت الهجان ـ كل مايمكن أن يحدث فى حياة انسان . . . فأين المفر ؟ ! . . . أين المفر ؟!!

لكننـا نسـطيع القـول ، دون تجاوز ، ان هذه مشكلة كان عزيز يستطيع تجاوزها بشكل أو بآخر مهما كان تأثير علاقته برأفت عميقاً فى وجدانه ، ذلك أنه بالقطع قد تدرب طوال ربع قرن من الزمان ، هى عمره كضابط مخابرات ، على أن يتحدث فى شىء وصدره يحوى شيئا آخـر . . . كان ـ مثلا ـ يلتقى بخـائن يملك الأدلـة الـدامغـة على خيانته ، فيعامله معاملة المواطن الشريف والمحترم لأن الوقت لم يحن بعد لكشف خيانته . . . وبوضوح ، تعود عزيز الجبالى أن تكون حياته حياتـين ، وعقله عقلين ، واسمـه اسمـين ، ووجـدانـه مقسـما الى قسمين . . . قسم لا يراه أحد ، وقسم للناس ، وربما معهم أهل بيته !!!

وحتى هذا كان مقدوراً عليه . . . لكن الذى أضناه حقاً ، مشكلة أخـرى بدت له بالفعل عويصة . . . وكانت هذه المشكلة تكمن فى نفس السؤال الذى وجهه الى هيلين سمحون فى جلستهما تلك باحدى غرف الاستقبـال المتـواضعـة الاثـاث بمبنى المخابـرات العـامة

المصرية . . . كانت هذه المشكلة العويصة هى : من أين يبدأ ؟ ! !

. . . .

. . . .

ولابد لنا من الاعتراف بأن عزيز الجبالى كان على حق ، ذلك أن الصعوبة فى اختيار بداية لحديثه ، أنه لم تكن هناك بداية واحدة ، بل كانت هناك بدايات متعددة لهذه القصة الغريبة والمركبة . . . وهى فوق هذا ـ بدايات متداخلة ، تقود كل منها الى الأخرى بالضرورة !

وعلى سبيل المثال ، فلقد تساءل عزيز الجبالى : هل يبدأ من تلك الليلة الشديدة الحرارة من ليالى شهر يوليو عام ١٩٥٨ ؟! . . . عندما التقى « هو » لأول مرة مع « رأفت على سليمان الهجان » ، أو ، « ديفيد شارل سمحون » ، فى مجموعة أوراق يضمها ملف سُلم له مع عدد آخر من الملفات كان عليه أن يدرسها ويمحصها ويقتلها بحثا ! . . . وكيف كان فى ذلك اليوم قد واصل العمل منذ الصباح فنسى نفسه حتى داهمه الليل ، وراح ينصب الشراك لجيوش الناموس التى راحت تهاجمه من الحقول المحيطة بهذا المبنى المهجور الذى كانت تشغله مجموعة صغيرة تعد على أصابع اليدين من الضباط الشبان الذين كانوا يشكلون ـ فى تلك الأيام ـ واحدة من الخلايا الأولى لجهاز المخابرات المصرى الوليد ؟! . . . وكيف خلع القميص مع اشتداد الحر ، وظل بالفانلة والسروال يتصبب عرقاً لأن المبنى الذى كان يعمل فيه لم يكن يعرف رفاهية أجهزة التكييف أو حتى المراوح الكهربائية . . . ثم كيف ـ وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ ـ كان يستعد للانصراف عند منتصف الليل ، عندما طالعته صورة رأفت فجأة ، تلك الصورة

الغريبة ذات الابتسامة الغامضة والنظرات الداعية والنائية وكأنها استغاثة من عالم مجهول ؟ ! . . . كيف أنها كانت مجرد نظرة أراد لها ان تكون عابرة ، فاذا به يعود الى مقعده ، يحملق فى الصورة ، ويقلب الأوراق ، ويقرأ السطور . . . ثم يقع فى الحيرة حتى طلع عليه النهار ، وقد نسى تماماً ايذاء الناموس كما نسى نفسه ؟ !

هل يبدأ من هنا ، أم يبدأ من حيث كانت البداية الأولى لعلاقة رأفت الهجان بأول ضابط مخابرات يراه فى حياته ؟ ! . . . منذ بدايته مع « محسن ممتاز » ـ ابن العمدة المتجهم الملامح ، الجاد التصرفات ، الشديد الجلد والقدرة على مواصلة العمل لأيام متوالية دون نوم أو راحة ـ والذى التقى برأفت لأول مرة عندما كان محجوزاً فى سجن الاستئناف بعد أن قبض عليه فى « ليبيا » على أنه يهودى هارب من مصر اسمه « ليڤى كوهين » !

كان هذا فى عام ١٩٥٤ ، وكان وكيل النيابة وضباط الشرطة والمباحث قد كونوا شبه مؤتمر لبحث حالة هذا الشاب المتوسط الطول الغريب الملامح والتصرفات الشديد الذكاء لدرجة أوقعتهم جميعا فى الحيرة والعجز عن معرفة شخصيته التى تقول بعض الأوراق ـ وكانت بين أيديهم ـ إنه يهودى ، وبعضها يؤكد أنه مسيحى ، وأوراق دامغة بأنه مسلم . . . بل ان أوراقا بعينها مختومة وموقعة كانت تقول انه بريطانى الجنسية ، وأخرى لاتدع مجالا لشك بأنه أمريكى ، وثالثة لاسبيل إلى مناقشتها تؤكد أنه مصرى لحماً ودماً ! ! !

هل يبدأ عزيز الجبالى قصته منذ تلك الليلة . . . أم يبدأ من حيث كانت بداية المأساة فى حياة « رأفت على سليمان الهجان » الفتى

القاهرى الذى توفى والده وهو طفل صغير - وكما كان يحدث فى الأفلام المصرية فى تلك الأيام - فوجد نفسه يواجه قسوة اليتم التى دفعته الى الهرب من البيت ، ثم مابعد الهرب من تشرد وسوء حظ قدرى راح يدفعه فى اصرار يدعو الى الدهشة ، نحو طريق أدخله - على مدى سنوات وراء سنوات - أكاديمية كونية كانت وكأنها تدربه وتعلمه فى عنف وقسوة ، على القيام بدور مجهول قدر له أن يلعبه فيما بعد باقتدار الاستاذ العظيم ؟ !

هل تبدو هذه البداية مناسبة ، أم أن البداية الحقيقية كانت فى تلك الليلة الثانية والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، عندما تحركت مجموعة من الضباط الشبان فى الجيش المصرى عرفت باسم « الضباط الأحرار » ، وقاموا بثورة على نظام حكم فاسد ، ثم اكتشفوا أنهم أمام معضلة شديدة التعقيد ، وكارثة بلا حدود ، فلم تكن هناك « دولة » بالمعنى العصرى والحديث لهذه الكلمة ، بل كيان متهاو ينخر السوس فى قوائمه ، فبدت لهم بلادهم خرابا كان عليهم أن يعمروه ، ثم اكتشفوا أن ذلك الخراب انما يجعل منهم - ومن الشعب المصرى كله - عزلاً من أى سلاح يواجهون به تلك الصيحة التى انتشرت فى صحافة مصر قبل قيامهم بثورتهم ، والتى كانت عنوانا على ماوصلت اليه البلاد من حال ، صيحة كانت تطالب بالقضاء على « الفقر والجهل والمرض » . . . ثم ، اذا بهم مع الأيام يكتشفون أنهم ليسوا عزلاً فقط أمام فقر وجهل ومرض وتخلف و . . . و . . . وكل هؤلاء الاعداء فى الداخل ، بل انهم عزل بالفعل أمام أعداء متربصين مسلحين يتحينون الفرصة كى ينقضوا ويدمروا ويُضعفوا ويحتلوا الأرض ؟ !

وليت الأمر اقتصر على هذا ، كانت المصيبة أنهم كانوا عزلا حتى من المعرفة المطلوبة لاعادة البناء ، بل عزلا من « وسائل » هذه المعرفة أيضا !! . . . اكتشف هؤلاء الضباط الشبان قليلو الخبرة الممتلئون حماسة وحباً لمصر . . . أن عليهم أن يعيدوا البناء وسط ركام بلا نهاية من الخرائب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لاقامة دولة عصرية ، وأن عليهم أن يبدءوا من الصفر ، بل من تحت الصفر !!!

كان هذا هو الموقف أمام عزيز الجبالى !

وكان موقفاً محيراً . . . فلقد كانت كل بداية من هذه البدايات ، هى بداية حقيقية للقصة الغريبة التى كان عليه أن يبدأها . . . وكانت كل بداية مرتبطة ارتباطاً موضوعياً وعضوياً بهذه القصة التى عاشها ، منذ أن التقى برأفت على سليمان الهجان ، مجرد صورة وبضعة أسطر ، ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى عام ١٩٥٨ ، وحتى هذا اليوم من أيام يناير عام ١٩٨٠ ، الذى يجلس فيه مع سيدة الأعمال الألمانية « فراو ديفيد شارل سمحون » أو . . . أو حرم المرحوم رأفت الهجان !

●●●

« هر جبالى »

رفع عزيز عينيه نحو هيلين ، وكانت هى تنظر اليه بدهشة ، وكانت أيضا مبتسمة ، أدرك على الفور أنه سرح مع تلك الخطوط المتشعبة والمتداخلة فيما هو مقدم عليه . . . غير أن ابتسامتها اتسعت وهى تميل نحوه متسائلة :

« ألى هذا الحد كنت مرتبطا به ؟ ! »

ولا يدرى عزيز الجبالى لم خطر بباله فى تلك اللحظة «محسن ممتاز» ،

لم فرض وجــه محسن الــريفي المتجهم نفســه على مخيلتــه ؟ . .
وعلى أية حال ، فان عزيز ـ شأنه شأن كل ضباط المخابرات المدربين لايترك محدثه يقوده بأسئلته الى حيث يريد ، بل يبادر هو ، بإجاباته الى قيادة محدثه نحو مبتغاه . . . فاجاب رداً على سؤالها وهو يبتسم ابتسامة واسعة ، ربما كانت الابتسامة الأولى التى تراها هيلين على وجهه ، وقال :

« يقولون أنك كنت صاعقة الجمال وأنت صبية فى السادسة عشرة من عمرك فراوسمحون ؟ ! »

ابتسمت هيلين للمجاملة ، كما انها ، فى نفس الوقت ، فهمت معنى جملته الخبيثة ، أعجبها الأسلوب فبادرت برد الكرة اليه فى سرعة وذكاء :

« أشكرك هر جبالى . . . ولكن ، هل لهذا الأطراء علاقة بالسؤال الذى وجهته اليك ؟ ! »

ولم تكن هيلين تدرى أن هذا ، بالضبط ، ماكان يريده عزيز ، فلقد قال :

«نعم ياسيدتى . . . فلقد كنت فى السادسة عشرة من عمرك عندما بدأت احداث تلك القصة ! »

●●●

فى بقعة نائية فى أطراف القاهرة ، حيث لاعمران ولا « صريخ ابن يومين » كما يقول المثل الشعبى المصرى . . . كان يقوم بناء غريب الشكل مهجور من ساكنيه . . . كان هذا البناء يتوسط حقلاً من الحقول الممتدة فى تلك البقعة الى مدى البصر ، يحيط به سور غير مرتفع مهدم فى بعض أجزائه ، يدل على أن البناء قد هُجر منذ زمن ليس بالطويل . . . ولم يكن السور فقط هو الدليل على أن البناء مهجور ، ولكن تَساقُط الطلاء الأبيض من واجهة البناء المكون من دورين ، والاهمال الشديد البادى على حديقته المتوسطة الاتساع ، وذلك الصدأ الذى علا طلمبة المياه القائمة بجوار الجدران الخلفية ، وعلو الحشائش من حولها نتيجة لتسرب المياه . . . و . . . وحتى ذلك الخفير البطىء الخطو فى الحديقة وخلف البوابة بجلبابه الريفى و« اللبده » الصوفية فوق رأســه فى « أغسطس » . . . كل هذا كان دليلا على أن سكان المبنى قد هجروه منذ زمن !

ولقد كان هذا حقيقيا تماماً . . . فذات يوم من الأيام الأولى لعام ١٩٤٩ أقيم هذا البناء فى ذلك المكان النائى كى يكون مستشفى للأمراض النفسية . . . كان صاحب المشروع طبيبا شابا أنفق من عمره عشر سنوات فى احدى جامعات سويسرا كى يدرس فيها الطب النفسى ـ وكان هذا النوع من الطب فى تلك الأيام حديثاً وجذابا فى نفس الوقت ـ وكان ذلك الطبيب ، كما تقول أوراق الجامعة التى درس فيها ، نابغة . . . كما انه كان ابنا لأب من الأثرياء ، يمتلك ألوف الأفدنة ، وينتمى لأحد الاحزاب القائمة ، ويحمل رتبة الباشوية . . .
أما أمه ، فلقد كانت سليلة واحدة من أسر مصر العريقة ، وفوق هذا

فهى سيدة مجتمع بارزة ، كان لها نشاط مرموق فى بعض المشروعات الاجتماعية الهامة ، مثل مشروع « الحفاء » الذى اشتهر فى تلك الأيام وامتلأت صفحات الصحف والمجلات بالحديث عنه ، وكان الغرض منه االتصدق على أفراد الشعب بأحذية وصنادل تقيهم السير فى الشوارع حفاة !!

ولذلك ، فعندما وقع اختيار الفتى على تلك البقعة النائية فى أطراف القاهرة ، لم يكن صعبا عليه أن يشترى قطعة الأرض التى تجاور طريقاً جانبياً كان من السهل الوصول اليه عبر احدى ضواحى القاهرة ، كما كان من السهل أيضاً أن يرصف هذا الطريق الجانبى الذى ظل غير ممهد لسنوات طويلة ، وفوق هذا ، استطاع الفتى أن يمهد الطريق الواصل - عبر الحقول - حتى باب المستشفى التى أحيطت بحديقة غناء بديعة التصميم ، وسرعان ما امتدت أسلاك الكهرباء ليصل التيار الكهربائى الى المستشفى الذى جهز بأحدث الأجهزة الطبية ، وبمجموعة منتقاة من الممرضات السويسريات والفرنسيات اللائى ، باشرافهن على مجموعة أخرى من الممرضات والخدم المصريين ، حولن المستشفى الى قطعة من أوربا .

كانت المشكلة الوحيدة التى واجهت الطبيب الشاب هى مشكلة المياه ... فرغم أن مجموعة العمال والمهندسين الذين أشرفوا على بناء المستشفى كانوا قد أقاموا « مضخة » للمياة الجوفية كانت تمده بكل مايحتاج اليه من مياه ، الا أن مشروع مد أنابيب المياه الى المستشفى عبر الضاحية القريبة توقف فجأة عندما اقيلت الوزارة ، وعينت بدلا منها وزارة أخرى ... فبدأت أوراق المشروع تتعثر !!

لكن هذا لم يفت فى عضد الشاب الذى كان متحمسا حماساً شديداً ، فلقد افتتح مستشفاه لعلاج المرضى النفسيين والمصابين بالاكتئاب وانفصام الشخصية و ... و ... وما إلى ذلك ... واستقبل المستشفى بالفعل مجموعة لا بأس بها من المرضى الذين كانوا من أبناء الموسرين والاغنياء والقادرين على دفع تكاليف العلاج الباهظة !

فى الشهور الأولى بدا الأمر وكأن كل شىء على مايرام ، وأن المستشفى يلقى رواجاً شديداً ، خاصة بعد أن اشتهر أمر الطبيب الشاب وسط فتيات العائلات الارستقراطية ، وبعد أن أصبح المرض النفسى « موضة » بين فتيات الأسر وسيداتها ... ولكن الذى حدث ، أنه فى منتصف عام ١٩٥١ ، توقف المستشفى عن استقبال مرضاه ، واختفى الطبيب الشاب الذى قيل فى أول الأمر إنه سافر الى اوربا لاستحضار بعض الأجهزة الحديثة اللازمة لمستشفاه ، والاطلاع على آخر تطورات العلم ... ثم ، وعندما طال غياب الطبيب ، وبدا أن المستشفى لم يعد يجد رعاية من أسرته ، وأن كل الممرضات السويسريات والفرنسيات قد عدن الى بلادهن ، أو التحق بعضهن بالعمل فى مستشفيات أخرى ، بينما سرّحت الممرضات المصريات والخدم ... قيل وقتها الكثير عن أسباب اغلاق المستشفى ، منها أسباب عاطفية ، ومنها أسباب تمس شخصيات لها أهميتها فى المجتمع ... ثم قيل ان الطبيب الشاب نفسه قد وقع فريسة اكتئاب نفسى امتلزم علاجه فى الخارج ... ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ونسى الناس الأمر مع طوفان الأحداث التى جرفت مصر من

ولاأحد يدرى ، بالضبط ، متى بدأت الحياة تدب مرة أخرى فى هذا المبنى الذى ظل مهجوراً منذ منتصف عام ١٩٥١ ، ولكن الثابت أنه فى منتصف عام ١٩٥٣ ، قيل إن أحدهم تقدم لشراء المستشفى ومايحيط به من أرض من والد الطبيب الذى كان قد اعتكف عن الحياة العامة بعد أن ورد اسمه فى بعض الفضائح التى ارتكبها رجال ذلك العهد وكشفت عنها الثورة بعد قيامها ، لكن الخفير الذى كان معينا لحراسة المستشفى ظل فى مكانه ووظيفته ... وبعد بضعة أشهر ، وكان الناس قد نسوا الأمر تماماً وسط الأحداث المتلاحقة التى ازدحمت بها سماء مصر ، علقت على المبنى لافتة غريبة مكتوب عليها : « ادارة البحوث والانشاء » ... كان الاسم غريباً فى ذلك الوقت ، ولم يفهم أحد أية بحوث هذه ، وأى انشاء ، ولم يعرف أحد أية وزارة تتبعها هذه الادارة التى راح موظفوها يتوافدون على المبنى كل يوم فى سيارة اتوبيس قديمة ومتهالكة ، ولاتحمل اسم وزارة أو مصلحة ... كان المالك الجديد قد طلب إلى الخفير أن يظل فى الحراسة كما كان ، وإن كان قد استأجر معه خفيراً آخر راحا معاً يتناوبان الحراسة على المبنى ، وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين ... وعادت الحياة الى المبنى المهجور ، وإن ظل يبدو من الخارج ـ ولكل من يمر عليه من بعيد ـ أنه ادارة من ادارات الحكومة القليلة الأهمية !

لكن الغريب فى الأمر ، أن « ادارة البحوث والانشاء » هذه لم تكن تتعامل مع الجمهور ، وكان عدد موظفيها محدودا للغاية ، وكانوا جميعا ـ

وبلا استثناء ـ من الشبان الشديدى الالتزام بمواعيد العمل ، فما أن تدق الساعة الثامنة صباحاً ، حتى يكون هذا الاتوبيس القديم يتهادى على الطريق وهو يحمل الموظفين ، وما ان يفرغ حمولته حتى ينصرف ولايعود قبل الثانية ظهراً ... ثم ...

ثم لم يكن هناك من يهتم بمثل هذه الادارة المهملة من ادارات الحكومة كى يكتشف مثلا ، أن مجموعة المكاتب والدواليب الحكومية التى نقلت اليها ، كانت تحوى فيما تحويه من أثاث ... عددا لابأس به من الخزائن الحديدية الحديثة ، والمزودة بأقفال ذات أرقام ... وأن بعض هؤلاء الموظفين كانوا يسهرون فى المبنى إلى ساعة متأخرة من الليل منكبين على عملهم فى حماسة غير معهودة فى موظفى الحكومة ... ولكن ـ وهذا هو الأهم ـ لم يلحظ أحد أبدا أن واحداً من هؤلاء الشبان كان لابد أن يبيت فى المبنى كل ليلة فى ذلك الجناح البعيد من أجنحة المستشفى السابق !!!

لم ينتبه أحد الى كل هذا بطبيعة الحال ، ففى تلك الأيام كانت العاصمة المصرية تغلى بالأحداث السياسية والخلافات العنيفة ، وتصطرع فيها الصراعات التى قدر لها أن تحسم مستقبل الدولة الى سنوات طويلة قادمة !

لم ينتبه أحد الى مايحدث فى تلك البقعة النائية ، وكان هذا هو المطلوب تماما ... فلقد كان هذا المبنى الذى ظل مهجوراً لا يزيد على العامين ، هو واحد من بضعة أماكن وقع عليها الاختيار ـ بعد دراسات ومناقشات وبحث ـ فى أماكن متفرقة ، لتكون مقار لبعض أقسام جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد ... وكانت مجموعة الموظفين الذين

يبدو وكأنهم يعيشون يومهم وليلهم فى هذا المكان النائى ، ليسوا سوى مجموعة من الرواد الأول الذين وضعوا البذرة الأولى لهذا الجهاز الذى قدر له أن يلعب فى الحياة المصرية ، وفى حياة الشرق الأوسط ، بل والعالم أجمع . . . دوراً هاما ، قدر له ـ فيما عدا النادر منه ـ أن يظل طى الكتمان !!

. . . .

. . . .

فى نهاية الثلث الأول من عام ١٩٥٤ ، كان ثمة ضابطان من « موظفى » ذلك المبنى الذى رفعت عليه لافتة « ادارة البحوث والانشاء » ، يجلسان فى مكتب أحدهما وقد استغرقا فى مناقشة طالت بهما منذ مابعد الظهر حتى شارفت الساعة على الثامنة مساء . . . واذا كان « حسن صقر » و « محسن ممتاز » اثنين من هذا الفريق الذى وقع عليه الاختيار ، فى بداية الثورة ، كى يتولى انشاء أول جهاز للمخابرات العامة المصرية . . . فانهما فى ذلك الوقت من اليوم ، بعد غروب الشمس بساعة أو أقل قليلا ، كانا يبدوان مجهدين أشد مايكون الاجهاد . . . ذلك أنهما عندما بدآ خطواتهما الأولى تلك ، كانا يكتشفان فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، حاجتهما الماسة الى « المعرفة » . . . كان هذا الفريق الذى عهد اليه بتلك المهمة العسيرة قد أقسم ـ قبل أن يبدأ العمل ـ يمين الولاء لمصر ، لا لشخص ، ولا لنظام ، ولا لمجموعة ، ولا لحزب . . . وربما كان هذا هو السبب فى أنهما ـ برغم الأزمة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الأيام ـ أعطيا ظهريهما لكل تلك الأحداث الملتهبة التى كانت تغلى بها العاصمة المصرية فى ذلك الحين ، خاصة فى أعقاب أزمة مارس الشهيرة . . .

كان لكل منهما رأى فيما كان يحدث بالقطع ، لكنهما كانا كلما توغلا فى الدراسة والبحث أو الاجتهاد أو استغرقا فى التفكير ، يكتشفان مدى الهوة الرهيبة التى كانت مصر تقف على حافتها . . . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وللضرورات التى فرضتها تلك الحرب ، ثم فى السنوات التى أعقبتها . . . كان علم المخابرات قد تقدم تقدماً مذهلا ، وكان قد أصبح علماً له مدارسه وأصوله وقواعده ، وفى الوقت الذى كانت مصر تفتقر فيه إلى مصادر معلومات تبدو وكأنها شرايين حياة وسط مجتمع دولى مفترس ، ومحتل يدنس أرض الوطن بأحذية جنوده ، كانت اسرائيل ـ العدو القائم على الحدود فى تربص ـ تملك من وسائل المعرفة مايتفوق على ماتملكه بعض الأجهزة القائمة فى العالم بالفعل . . . ولقد كان لهذا ظروفه وكانت له أسبابه وملابساته . . . ولكن ، حتى هؤلاء الذين طلب المصريون إليهم سرا وعلى استحياء أن يمدوا لهم يد العون فى هذا المجال ، ابتسموا وهم يقدمون قشوراً عفا عليها الزمان ، وأكل عليها الدهر وشرب . . . لكن هذا لم يفت فى عضد الرجال ، فلقد أيقنوا منذ البدايات الأولى أن واحدة من دول العالم ـ مهما تغنت بصداقتها لنا وحرصها علينا ـ لن تقدم لهم أى عون حقيقى وفعال فى هذا المجال . . . وإذا قدمت ، فهى لن تقدم سوى تلك الوسائل والبدايات التى أصبحت بلا قيمة تذكر . . . وكان هذا فى حد ذاته ـ بالنسبة لهؤلاء الشباب ـ مرضياً تماماً ، وإذا كان هؤلاء قد بدءوا بتلك القشور منذ عشرات السنين ، فانهم يستطيعون أن يبدءوا أيضا من هنا ، بتلك القشور التافهة ، على أن يسابقوا الزمن ، ويختصروه بالتجربة والدراسة والتعليم والاحتكاك الذى أصبح مفروضاً

علينا كأمة وكدولة وكثورة معا . . .

ثم . . .

ثم كانت هناك دائما وسائل للحصول على اللب أو بعض مايحيط به فيما تحت القشور . . .

كانت هناك وسائل - قد تكون خطيرة في بعض الأحيان - لكن الرجال كانوا في أشد الحاجة الى العلم عطاشا للمعرفة !

ثم كانت هناك التجربة التى أصبحت - بمرور الوقت - خير أستاذ تعلموا على يديه الكثير !

ولكن . . . وبالرغم من كل هذا ، فلقد كانت هناك عقبات لايصلح فيها سوى الاقتحام . . .

عقبات كانت تبدو مستحيلة التجاوز !

منها - على سبيل المثال - أن اسرائيل كانت تملك - فى كل بلاد العالم ، ومنها البلاد العربية ، ومن بينها مصر - جاليات يهودية تدين لها بالولاء ، أو مع أقصى درجات حسن النية ، يدين بعضها بالولاء لدولتهم الجديدة . . . وكان هؤلاء بوصفهم مواطنين يلعبون أدوارا اقتصادية واجتماعية بل وسياسية هامة داخل هذه الدول . . . وكان هؤلاء يستطيعون امداد اسرائيل بكل ماتحتاج اليه من معلومات عن مصر . . . وعلى ذلك فان مصر كانت ، بطبيعة الحال ، فى حاجة الى عيون لها فى قلب اسرائيل . . . وباختصار ، فلقد كان « حسن صقر » و « محسن ممتاز » فى ذلك اليوم ، يبحثان عن وسيلة لايجاد « جاسوس » يعيش فى قلب اسرائيل ، كى يمدنا بما نحتاج اليه من معلومات .

لم تكن المناقشات التى دارت فى هذا اليوم من أيام ابريل عام ١٩٥٤ قد بدأت فى هذا اليوم ، لكنها كانت قد بدأت قبل ذلك بشهور طويلة ، وكانا قد قرآ كل ما استطاعت أيديهما أن تصل اليه من تجارب حول هذا الموضوع . . . وكان الفريق الذى سافر الى الخارج فى مهمات سرية ، وانتشر فى دول عديدة فى العالم ، ومراكز تجسس كانت تغلى بما فيها من صراعات - قيل وقتها إن هذه المجموعة من الضباط خرجوا ليبددوا أموال الشعب على ملذاتهم بعد أن « استولوا » على البلد - قد استطاع أن يكون فى شهور قليلة ، أول مكتبة يستطيع الرجال أن يلجئوا اليها ويدرسوها . . . كانت هناك « عمليات » تمت اثناء الحرب العالميه ، بعضها أعلن عنه ، والبعض الآخر لم يعلن عنه . . . من هذه العمليات ، بدأت الخطوة الأولى فى التعليم .

ولقد فكرا - حسن صقر ومحسن ممتاز - فى « تجنيد » اسرائيلى . . . ولكن ، كانت أحداث الحرب العالمية الثانية قد أكدت أن « الطابور الخامس » الشهير ، والذى زرعته المانيا فى كل دول الغرب ، قد انكشف أمره بصورة أو بأخرى ، وسقطت شبكاته واحدة اثر الثانية !

ان اسرائيل تستطيع - بسهولة - أن تفعل هذا معنا ، لأن المجتمعات العربية - ومنها مصر - مجتمعات مستقرة ومفتوحة ، وفيها مواطنون يهود ، واذا كانت اسرائيل لاتضم مواطنين مصريين فإن فيها مواطنين فلسطينيين ، مواطنين عربا . . . وكان لابد ان يفكرا فى اللجوء الى مواطن عربى يعيش فى اسرائيل ، وماكادت الدراسات والمناقشات تتقدم خطوات ، حتى اكتشفا أن هذا أيضا مستحيل . . .

ذلك أن العرب الذين يعيشون فى اسرائيل ، موضوعون ـ بالضرورة ـ تحت رقابة صارمة ، ثم إنهم مبعدون ـ بالضرورة أيضا ـ عن مواطن المعلومات . . . بل إن ثمة أماكن بعينها محرم عليهم ارتيادها ! ! !

كان حسن ومحسن يشعران كلما أوغلا فى المناقشة ، أنّ ثمة حبلا يلتف حول عنقيهما . . . ففوق قلة خبرتيهما ، بدت الطرق أمامهما مسدودة ... فلو أنهما ـ مثلا ـ لجآ الى شخص من « جنسية ثالثة » ـ غير الاسرائيلية والمصرية ـ فإن هذا الشخص أولاً لن يكون سوى زائر ، وليس مقيما كما هو مطلوب ، وهو ثانيا لن يكون ولاؤه لمصر ، لأن ولاءه الحقيقى سيكون لعدد الجنيهات التى ستدفع له نظير عمله ومخاطرته . . . وهو ثالثا لن يكون مواطنا اسرائيليا ، ومهما بلغت الثقة فى شخصه ، فلسوف يظل فى البداية والنهاية أجنبيا ! . . . مثل هذا الشخص ، سيكون ولاؤه الحقيقى لمن يدفع أكثر ! ! !

وهنا هداهما التفكير الى البحث عن فدائى .

جاءت الفكرة فى لحظة من لحظات الضيق والاختناق والاحساس بالعجز أمام عقبات تبدو مستحيلة التخطى ، عندما هتف محسن ممتاز :

« مفيش غير انى أروح أنا بقى ! »

نظر اليه حسن صقر فى دهشة ، كان يعرف أن محسن ممتاز من هذا النوع من الفدائيين الذين دوخوا الانجليز فى القناة لسنوات طويلة دون أن يعرف أحد عنه شيئاً ، حكايات بلا نهاية تلك التى يحكيها الفدائيون والذين عرفوا محسن ممتاز ، عن جرأته الفائقة فى مواجهة المخاطر والموت معاً !

وفى البداية فلقد راقت الفكرة لحسن صقر . . إن الصفة الأولى والهامة والتى يجب أن تتوافر فى « الجاسوس » المطلوب ، هى الولاء المطلق لمصر . . . فهل يطمع أحد فى ولاء أنقى من ولاء محسن ممتاز ؟ !

ولكن . . . لأنهما تعلما ألا يخضعا للفكرة البراقة ، وألا يتحمسا لشىء قبل دراسته من كل الوجوه ، فلقد بدآ على الفور فى دراسة الفكرة . . . فكرة « زرع » فدائى داخل المجتمع الاسرائيلى !

دون شك كانت الفرصة متاحة !

فالمجتمع اليهودى فى مصر ـ فى ذلك الوقت ـ كبير ، منهم رجال الأعمال و أصحاب الملايين ، ومنهم عمال ومهنيون وتجار وطلبة ومدرسون وموظفون وأصحاب محلات كبرى ومحلات صغرى ومحلات بقالة و . . . و . . . وهما كانا منذ عامين قد قتلا هذا المجتمع بحثا وتحرياً حتى وصلا الى مايشبه المعرفة الكاملة به . . . وكان المطلوب الآن ، هوالبحث عن وسيلة لـ « زرع » هذا الفدائى أولاً ، وسط المجتمع اليهودى فى القاهرة . . . كانت هذه بالضرورة ، هى الخطوة الأولى !

« قهوة متاتيا ! »

هتف محسن باسم هذا المقهى التاريخى والذى كانت الجالية اليهودية تتخذ من أحد أركانه مقراً للقائهم فى الخمسينيات من هذا القرن ، ومن هذا المقهى ، يمكن أن تبدأ عملية « الزرع » . . .

ولم يكن حسن صقر مختلفا مع محسن الذى ألهب الحماس أفكاره

قراءات تتدفق من بين شفتيه وكأنه عاش سنوات يفكر فى الموضوع ، كان حسن صقر موافقاً فلقد كان طبيعيا أن يظهر يهودى فى قهوة متاتيا ، وكان سهلاً أن يحكى عن نفسه قصة شديدة الاحكام تجعله مقبولاً فى هذا المجتمع ، كما أنه سيصبح من الطبيعى أن يتعرف إلى بنى جنسه الجدد ، وأن يصنع لنفسه عملاً أو وظيفةو . . . و . . . ولكن حسن صقر كان - برغم مشاركته فى الحوار - يبدو ساهماً . . . ففى لحظة ضاق محسن ممتاز بسهومه هذا وكان متعبا فصاح فيه :

«تقدر تقول لى انت سرحان فى ايه ؟ ! »

قال حسن على الفور :

«فاكر يوم العسكرى الانجليزى ماشتمك ؟ ! »

« احنا فى ايه والا فى ايه ؟ ! »

«فاكر اليوم ده يامحسن ؟ ! »

« ايو فاكره . . . ايه بقى ؟ ! »

ايه اللى حصل ؟ ! »

لم يكن محسن من النوع الذى يحب الحديث عن نفسه ، علمته الحياة مع الفدائيين أن الذات هى آخر مايجب أن يفكر فيه الانسان الذى وهب حياته لقضية عامة ، ولذلك . . فلقد ضاق بسؤال صديقه وإن كان - رغماً عنه - قد تذكر هذا اليوم فى السويس !

كانوا قد عهدوا اليه بعملية على درجة عالية من الأهمية والخطورة داخل المعسكرات البريطانية فى القناة ، فوضع الخطة التى بدت له محكمة ، ورتب كل شىء ، ولم يعد باقياً سوى الحصول على بعض

المفرقعات التى كان عليه أن يتسلمها فى بار احدى دور السينما فى السويس ، والتى كانت متخصصة فى عرض الأفلام الأجنبية التى يرتادها جنود الاحتلال ، ويعج بهم البار فى نفس الوقت .

فى الموعد المحدد ، وحسب الخطة التى وضعت ليتسلم بمقتضاها الشحنة الناسفة من شخص ما ، ذهب محسن ممتاز الى البار ، غير أنه حدث أن دخل الى المكان جندى يترنح من فرط السكر ، راح الجندى يتخبط هنا وهناك ، ثم . . . فى خطوة غير مقصودة ، اصطدم بمحسن ممتاز ، الذى كان مشغولاً عنه بمراقبة باب البار . . . ورغم أن محسن ابتسم له معتذراً ، فإن الجندى راح يتحرش به . . . وكان من المحتمل أن يصفح محسن عن بذاءات الجندى وسبابه مهما كان ، وهو قد تغاضى عما ناله شخصياً من سباب ، ولكن . . . أن يقول الجندى عنه إنه : « مصرى قذر » . . . فهذا مالم يحتمله محسن .

قال الجندى هذا وانقلبت الدنيا رأسا على عقب ، وبهت الحاضرون لهول الضربات التى راحت تنهال على الجندى بعنف أسال دمه وأفقده الوعى فى دقائق خاطفة . . . ومالبث محسن أن اطلق ساقيه للريح قبل أن يفيق الحاضرون من هول ماصنعه . . . فر محسن ، ولم يتسلم المفرقعات ، وأجلت العملية !

«عاوز تقول أيه ! »

أدرك محسن أن وراء سؤال صديقه ماوراءه . . فلقد نهض حسن صقر وقال وهو يتناول جاكتته استعداداً للانصراف :

« الفدائى ماينفعش ! »

هم محسن بالاعتراض عندما صاح فيه حسن

« مش أنت بالذات يامحسن ، أى فدائىماينفعش ! »

ولم تطل المناقشة بعد ذلك ، فلقد وصلت هذا المرة أيضا الى طريق مسدود . . . فالفدائى الذى لايحتمل سباب رجل سكران ، لايستطيع أن يعيش فى مجتمع الأعداء . . . لأنه هناك ، سوف يسمع عن وطنه وأهله وناسه ماقد يفقده صوابه ، بل وحياته !

ران الصمت على الغرفة . . . وسرى اليها نقيق الضفادع من الخارج ، ورفع محسن رأسه نحو رئيسه وزميله وصديقه متسائلا :

« تقدر تقول لى انت لبست الجاكيت ليه ؟ ! »

«عاوز اتفسح ! »

مرة أخرى حاول محسن الاعتراض ، فصاح حسن وهو يندفع نحو باب الغرفة :

«مش عاوز اشتغل ، تعبت ، مخى تعب ، عاوز ارتاح ولو ساعتين ! »

●●●

لأن محسن ممتاز كان ابن عمدة ، ولأنه كان أعزب ووحيد والديه ، فلقد استطاع أن يمتلك سيارة صغيرة من ماركة فرنسية كان تصميمها - ولايزال حتى اليوم - غريباً ومضحكاً ، وكانت هذه السيارة منتشرة فى مصر فى تلك الأيام . . . ولقد قاد محسن سيارته هذه فى تلك الليلة الى لاهدف !

« اطلع بينا على الدنيا ياأخى خلينا نشوفها ! »

هكذا قال حسن ، وهكذا مضت بهما السيارة تضرب فى شوارع

القاهرة حتى وصلت الى وسط المدينة حيث الأضواء والناس ودور السينما والمسارح والمطاعم ، ولقد تعمدا طوال الطريق الا يتحدثا فى الموضوع على الاطلاق ، فقبل أن يركب حسن الى جواره صاح فيه :

« محسن ! »

مال هذا وهو جالس فى مقعده خلف عجلة القيادة مطلا على صديقه الذى صاح :

«قبل ماركب . . مش عاوز كلام فى الشغل خالص ! »

وهكذا ، وقد أصبحا فى شارع سليمان - وهو شارع دور السينما والمحلات الراقيه فى قلب القاهرة - راحا يمتصان الأضواء والألوان والحياة والحركة ، حتى اذا مرت السيارة باحدى دورالسينما الامريكية ، مال حسن صقر محملقاً فى الأفيش الذى كان يحوى رسوماً لجنود ومظلات وحروب وانفجارات فصاح :

« اركن يامحسن ! »

مال محسن بالسيارة وتوقف .

«تعال ندخل الفيلم ده ! »

بدا على محسن التأفف ، فلقد كان جائعا ، وكان يطمع فى الذهاب الى مطعم يسكت فيه صراخ معدته ، لكن حسن قال مقنعاً اياه :

« ماهو احنا مش حاننسى الشغل . . . وزى انا مابافكر فيه وانا قاعد جنبك ، انت بتفكر فيه وانت بتسوق العربية . . . وأنا عاوز انسى ، ولازم ننسى ، والسينما دى بتعرض فيلم عن الحرب ، تعال نتفرج علية !! »

بدا منطقه سليما تماماً ، فلانهما ضابطان سابقان فى الجيش ، ولأنهما شاركا فى حرب فلسطين ، فان فيلماً حربياً ، كان كفيلا بان يمتص انتباههما !

دفعـا خمسة عشر قرشاً ثمناً لتذكرتين فى الجزء الخلفى من الصالة . . . ودخلا الفيلم !

و . . . .

وكانت كارثة !!

●●●

قال عزيز الجبالى للسيدة هيلين سمحون وهو يحتسى معها فنجانا آخر من القهوة المصرية التى أعجبتها . . . إن ثمة أشياء يصنعها القدر دون أن يستطيع الانسان أن يخضعها لقانون معين ، وأن الحضارة الغربية بكل مافيها من مادية ، تتجاهل هذا الجزء الهام من حياة الانسان دون بحث كاف واهتمام بقيمة مصادفة كتلك التى حدثت فى ذلك اليوم من الأيام الأخيرة لشهر ابريل عام ١٩٥٤ . . . والتى كانت السبب المباشر فى كل ماسوف يقصه عليها بعد ذلك من أحداث !!

. . . .

. . . .

كان الفيلم يحكى قصة واقعية قرأها حسن صقر ومحسن ممتاز فى تلك الأوراق والكتب المنشورة والمستجلبة ، والتى استطاعت المجموعة التى سافرت الى الخارج أن تحصل عليها ، حقاً إن الفيلم أضفى على العملية الحقيقية رونقا ، كان هناك مزيد من الاثارة ، ومزيد من

الاحداث التى جعلت من الفيلم تحفة فنية شدت المتفرجين الى المقاعد طوال مدة عرضه وقد كتموا أنفاسهم . . . كانت قصة مشهورة عن احدى العمليات التى قامت بها المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية .

فلقد كان النازيون أثناء احتلالهم لفرنسا ، قد اختاروا قصراً من قصورها الرائعة وسط الريف الفرنسى ليجعلوا منه مركزاً للمخابرات الالمانية فى فرنسا . . . وأصبح هذا القصر مايمكن أن يطلق عليه « المركز الرئيسى للمخابرات الألمانية فى أوربا كلها » . . . وعلى ذلك ، فقد كان يحوى كل الوثائق الخاصة بالطابور الخامس الالمانى المنتشر فى كل دول أوربا وكان الحصول على الكشوف التى تحمل أسماء هؤلاء الجواسيس ، قد أصبح أمراً على أكبر قدر من الأهمية بالنسبة لمسار الحرب . . . خاصة ، بعد أن علمت المخابرات البريطانية ، أن هذه الكشوف موجودة فى خزانة سرية فى إحدى غرف هذا القصر . . . وكان المطلوب ، هو الحصول على « صورة » من هذه الكشوف دون أن يشعر الالمان بذلك . . . أى أن المطلوب كان اقتحام القصر - سراً - الذى وضع تحت حراسة رهيبة طوال الاربع والعشرين ساعة ، ليس بالحراس اليقظين فقط ، وانما ايضا بكلاب متوحشة تمزق كل من تسول له نفسه عبور السور الذى أوصلوا اليه تياراً كهربائيا صاعقاً . . . ثم ، واذا ماتخطى الفدائيون هذه المواقع المخيفة ، كان عليهم أن يقتحموا القصر نفسه - دون أن يشعر بهم أحد - وأن يصلوا الى الغرفة التى تحوى الخزانة ، ثم يفتحوها ويصوروا الكشوف التى تحمل اسماء افراد الطابور الخامس فى كل دولة من دول أوربا ، ثم يعيدوها إلى مكانها

ويغلقوا الخزانة كما كانت تماماً . . . بعد ذلك كان عليهم أن يغادروا القصر ويعودوا الى بريطانيا بكنزهم الثمين ! !

ولقد عهد الى أحد ضباط المخابرات البريطانية بهذه العلمية ، وبدأ على الفور فى اختيار الرجال ، ودراسة القصر من واقع الخرائط التى وضعت تحت يده ، درس مداخله ومخارجه وحراسه وحراسته والكشافات ومواقعها والكلاب ودوراتها . . . ثم درس الرحلة وامكاناتها والاماكن التى سيسقط فيها الرجال بالمظلات ، وأين يذهبون ثم الوصول الى القصر . . . و . . . وعشرات التفاصيل والمراحل التى تبدو مستحيلة تماماً . لكنه كان أمام واجب قومى سينقذ البلاد من نزيف للمعلومات مؤكد . وكان لابد أن تتحول المستحيلات الى ممكنات

ولقد حدث هذا . . .

تمت الدراسات والتدريبات والتجهيزات . . . و . . . وبقيت عقبة واحدة .

كانت هذه العقبة هى الخزانة .

قالت المعلومات التى وصلت الى المخابرات البريطانية ، إن « الخزانة » من نوع متقدم للغاية ، وأنها تغلق وتفتح حسب أرقام معينة ، ولقد وجد رجل المخابرات البريطانية نفسه أمام معضلة . . . فإنه يستطيع الوصول برجاله الى الخزانة دون أن يشعر به أحد ، ولكنه كى يفتحها ، مضطر لأن يدمرها ويدمر معها العملية كلها ، فالتدمير سوف يوقظ الحراس وينبههم ، ثم إنه سوف يشى بأن الكشوف قد صورت أو سرقت ، وسوف يجد الالمان ألف وسيلة لتحذير عملائهم ،

حتى اذا وصلت هذه الكشوف الى لندن فى رحلة العودة كان هؤلاء قد اختفوا . . . ولم يكن أمام رجل المخابرات البريطانى سوى طريق واحد ، هو أن يلجأ الى « سكوتلانديارد » !

وفى زيارة لرئيس « سكوتلانديارد » ذات الشهرة العالمية ، قال الرجل إنه فى حاجة الى ضابط خبير فى فتح الخزائن . . . ولم تكن هذه مشكلة ، فهناك عدد كاف من الخبراء الذين يستطيعون فتح أية خزانة على وجه الأرض ، ولكن . . . ماهو الغرض الذى يريده هذا الضابط من أجله ؟ !

كانت العملية على أعلى درجة من السرية ، ولم يكن البوح بها سهلا ، لكن رجل سكوتلانديارد قال : إن الغرض مهم جدا لاختيار الشخص المناسب . . . وبعد حوار لم يطل كثيراً ، اقتنع رجل المخابرات وأفضى الى رجل البوليس بالمهمة . . . فابتسم هذا قائلا :

« اذن فأنت ياصديقى لست فى حاجة إلى ضابط ! »

نظر اليه هذا فى دهشة ، فبادره رجل البوليس بقوله :

« أنت فى حاجة إلى لص ! ! »

وكان منطق رجل البوليس فى هذا بسيطا للغاية : إن اللص لديه احساس أكبر وأعمق بالأمن والسرية من الضابط . . . اللص عندما يسرق ، يفعل هذا وكل حواسه مشرعة لملاقاة الخطر القادم أو المحتمل ، لذلك . . . فإن أصابعه سوف تعمل فى دائرة هذا الاحساس الحاد بالأمن . . . أما الضابط ، فلسوف يستطيع فتح الخزانة حقاً ، لكن إحساسه بالأمن لن يكون فى حدة إحساس اللص ، فهو لم يسرق من قبل ، وهو لن يشعر بذلك الخوف اذا

ما انكشف أمره .

« وهل لديك هذا اللص ؟ ! »

« نعم . . . إنه فى السجن ! »

« وهل تستطيع اقناعه بالقيام بهذه المخاطرة ؟ ! »

« هذا عملك ياصديقى وليس عملى ! »

وكان رجل البوليس ، مرة أخرى على حق !

لكن الغريب أن ضابط المخابرات لم يبذل جهداً فى إقناع اللص ، فما ان عرض عليه المهمة ، حتى وافق على الفور ،فرغم أنه مسجون الا أنه أحس أن « الوطن » فى حاجة اليه ، وكان لابد له أن يلبى ، ولو كانت المخاطر تحيط بالعملية من كل جانب . . . وافق اللص من قبل أن يسمع أنه سيصدر عنه عفو عام ، وأنه ـ لو أدى المهمة ـ سيعود مواطنا شريفا نظيف الماضى !

وهكذا بدأ اللص فى التدريب على القفز بالمظلة من الطائرة ، وعلى ماكان ينقصه كجندى أو فدائى . . . وأصبح فردا من أفراد تلك المجموعة التاريخية التى استطاعت ـ بما يشبه المعجزة ـ أن تقتحم هذا القصر ، وأن تصور الكشف كاملة ، وسقط بعدها كل جواسيس ألمانيا النازية فى أوربا .

وكان الفضل للص لديه الاحساس بالأمن أقوى من ضابط بوليس !

. . . .

. . . .

كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً ومازالت تلك السيارة الصغيرة فى مكانها من شارع سليمان باشا أمام احدى دور السينما

الأمريكية . . . فى داخلها جلس شخصان لم يكفا لحظة عن الحديث ، وكان حديثهما خافتا ، فشل الشرطى المكلف بحراسة هذا الشارع أن يسمع منه كلمة رغم مروره بجوارهما جيئة وذهابا منذ أن أغلقت دور السينما والمحلات وأطفئت الأنوار ، وبالرغم من أنه كان فى بعض الأحيان يتلكأ بجوارهما لعله يسمع شيئا مما يقولانه أويتآمران عليه فى مثل هذا الوقت من الليل ، الا أنه لم يستطع . . . ساوره الشك منذ ساعة وبعض الساعة ، لكنه فى نهاية الأمر ضاق بالمراقبة فقرر أن يحسم الأمر . . . تقدم من السيارة وانحنى نحو الجالسين فى الداخل :

« مساء الخير يابهوات ! »

التفت اليه الجالس خلف عجلة القيادة :

« مساء الخير ياشاويش ! »

على استحياء سأل الرجل :

« فيه ـ لامؤاخذة ـ حاجة ؟ ! »

« حاجة زى ايه ؟ ! »

« انتم واقفين هنا من بدرى ، والساعة بقت تلاتة ! »

هتف محسن ممتاز وهو ينظر فى ساعته ذاهلا :

« معقول ده ؟ ! »

وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً ، عندما أدار محسن موتور السيارة ، وانطلق بها وهو يعتذر للشرطى بكلمات متلاحقة وبلا معنى . . . اندفعت السيارة الفرنسية الصنع المضحكة المنظر تخترق شوارع القاهرة الخالية تماماً . . . لكن « حسن صقر » و « محسن ممتاز » كان قد استقر بهما الرأى على أنه لابد من « البحث عن آفاق » !

الفصل الخامس

البحث عن أفاق

قالت « هيلين سمحون » وهى تعتدل فى مقعدها وعيناها تبرقان : إن القصة تبدو لها غريبة ومثيرة للاهتمام ، حتى ولو لم تكن تدور حول زوجها الراحل ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعة هذا النوع من القصص ومايحيط بأحداثها من غموض . . . ثم اعترفت لعزيز الجبالى اعترافا بدا له مثيرا حقا ، قالت : إن حبها لديڤيد لم يتأثر بعد أن عرفت عنه ماعرفت ، وإنها حاولت ـ طوال الأسابيع الماضية ، ومنذ ليلة وفاته التى اعترف لها فيها بأنه مصرى وليس اسرئيليا ومسلم وليس يهوديا ـ حاولت أن تثور عليه وعلى ذكراه معا ، حاولت أن تغضب والا تغفر له أنه خدعها حتى ولو كان مضطرا لذلك ، لكنها لم تستطع . . . باءت كل محاولاتها بالفشل ، فلقد ظل الرجل الذى أحبته وتزوجته وانجبت منه طفلين ، ماثلا أمامها بكل حنانه ورقته وحرارة حبه وتدفقه لكن الغريب فى الأمر ـ هكذا قالت لعزيز وهى تدارى خجلا اعتراها ـ أنها

كانت تشعر كلما أوغل فى الحكاية بقلبها يدق . . . لالشىء إلا لأنها تعرف أن هذه الأحداث الغريبة سوف تقودها بالقطع نحو حقيقة زوجها ، نحو حقيقة ديفيد شارل سمحون !

ولقد استمع لها عزيز صامتا ، حتى إذا انتهت ، غمغم بكلمات لاتعنى شيئا وهو يبتسم مجاملة . . . ثم راح يكمل قصته !!

●●●

فى صباح اليوم التالى ، كان « محسن ممتاز » ـ رسميا ـ هو المسئول عن هذه العملية ، عملية « البحث عن أفاق ! »

ولقد يبدو الأمر بسيطا لأول وهلة رغم أنه بالقطع ليس كذلك ، فإنك قد تستطيع العثور على مئات الأفاقين فى الكثير من الأماكن المشبوهة ، فى قمة المجتمع كما فى قاعه ، ولكن . . . وفى مثل هذا النوع من العمل السرى ، يصبح البحث عن « أفاق ما » ، بمواصفات خاصة وشروط شديدة الصرامة ، أمرا عسيرا إلى حد كبير . . . وبالرغم من هذا ، فهو ليس بالطبع مستحيلا ، وإن كان يحتاج إلى الكثير من « الخبرة » حتى يستطيع الباحث أن « ينتقى » من وسط العشرات الذين سيلتقى بهم ، واحدا تنطبق عليه هذه الشروط الضرورية .

بدأ محسن ممتاز البحث فوراً ، وفى نفس اليوم ، وفى اتجاهات متعددة . . . ورغم ماكان لديه من أعمال أخرى كانت تمتص جزءا كبيرا من وقته ، فإنه أعطى لهذه العملية جهدا مضاعفا ، خاصة انه لم يكن يستطيع أن « يفصح » ـ كما كان الأمر بين رجل المخابرات البريطانى ومسئول سكوتلاند يارد مثلا ـ عن الهدف من البحث عن

مثل هذاالأفاق من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإننا لانستطيع أن نزعم أنه كان يعرف « كيف » يمكن العثور على مثل هذه الشخصية التى لابد أن تكون ـ بكل المقاييس ـ متميزة . . . ذلك أن الخبرة هنا كانت ضرورية ، وإذا كان محسن ممتاز يعلم أنه كان قليل الخبرة ، وفى نفس الوقت عاجزا عن الافصاح إلى من طلب اليهم مساعدته عن طبيعة المهمة المطلوب من أجلها هذا الأفاق ، فلم يكن لديه سوى « الاحساس » العام بالعملية كى يستند إليه فى سعيه نحو الهدف !

كان هذا الشاب الريفى المولد يعرف أنه يخوض معركة مضنية تحتاج إلى قدر هائل من السرية ، فهو لايتحرك فى مجتمع « مغلق » كالمجتمع الاسرائيلى مثلا ، لكنه كان يتحرك فى مجتمع « مفتوح » على مصراعيه لجاليات يهودية وأوربية عديدة ومنتشرة فى جميع انحاء البلاد !

ذلك أن المجتمع المصرى فى تلك السنوات ، كان « يشغى » بجاليات مع جميع أنحاء الأرض ، منها جاليات إيطالية ، ويونانية ، وفرنسية ، وبلجيكية ، وانجليزية ، وتركية ، وهندية ، وعربية ، واسبانية ، ومالطية . . . و . . . وكانت هذه الجاليات منتشرة ومنبثة فى جميع أنحاء الوطن ، من العاصمة ، وحتى أصغر قرية فيه !

ولقد كانت المشكلة التى واجهت مجموعة الضباط الشبان الذين عهد إليهم بإنشاء أول جهاز مخابرات مصرى « منظم وحديث » ، ليست فقط فى قلة المعلومات عن هذه الأجهزة وكيفية تنظيمها وأقسامها وأسلوب عملها ، فلقد كانت هذه مشكلة من الممكن ـ بالممارسة ـ التغلب عليها ، بل وإيجاد صيغة مصرية لها . . . ولكن المشكلة الحقيقية

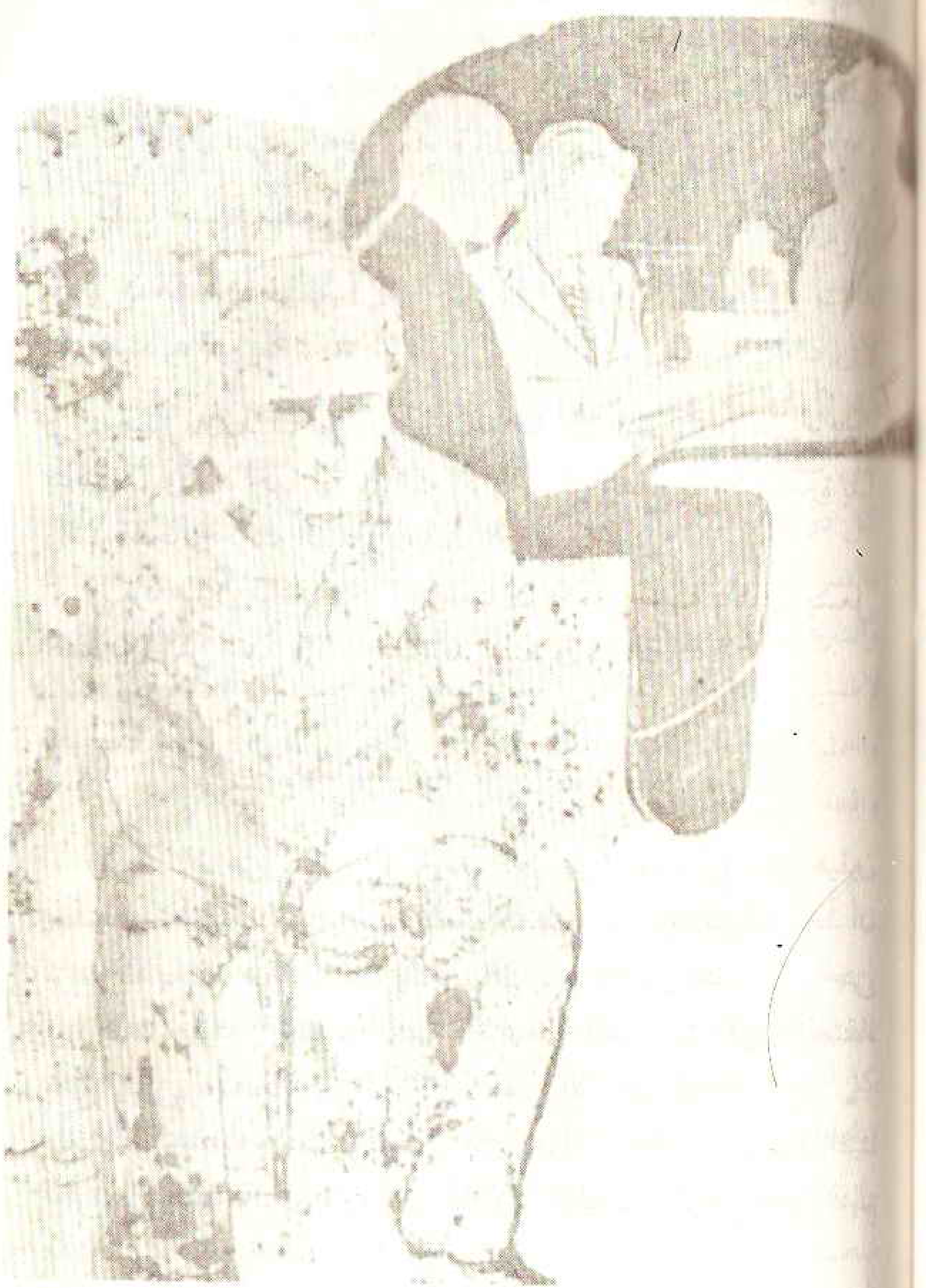

كانت فى « قلة الخبرة » فيما يختص بأسلوب العمل مع المندوبين او العملاء ، واختيارهم وتدريبهم ، واقناعهم ، وما إلى ذلك من فنون كانت قد تقدمت كثيرا وبصورة فاضحة ـ إن جاز لنا أن نقول ذلك ـ عما كان معمولا به فى الأجهزة المصرية فى ذلك الوقت . . . والذى كان يزيد من صعوبة المشكلة ، هو أن إسرائيل كانت قد استطاعت إنشاء جهاز متقدم بالفعل للمخابرات ، بل لقد كان « الموساد » ـ بالقياس إلى بعض الأجهزة الأوربية ـ يعتبر جهازا فعالا ومؤثرا ، لافى المحيط الخاص بالشرق الأوسط فقط ، بل على مستوى العالم كله . . . وكان لذلك أسبابه بطبيعه الحال ، وهى أسباب لاترجع إلى « العبقرية » اليهودية ، كما يحاول البعض أن يروج ، وكما يحاول الاسرائيليون أنفسهم أن يشيعوا فى العالم كله خاصة فى الدول العربية ، وإنما ترجع هذه الأسباب إلى ظروف تاريخية وموضوعية جعلتهم ، بالضرورة ، يكتسبون خبرة كبيرة ومؤثرة هذا المجال . . . كما كانت هناك ظروف موضوعية وقاهرة جعلت المصريين ، فى تلك الأيام ، يفتقرون إلى تلك الخبرة التى كانوا فى أشد الحاجة اليها !

. . .   .

. . .   .

هنا توقف عزيز الجبالى عن الحديث ناظرا نحو « فراو سمحون » نظرة من يريد أن يفصح عن شىء ، ولقد فهمت هى هذه النظرة ، ومالت نحوه مشجعة إياه على الإفصاح عما يدور فى ذهنه . . . وتحدث هو بصراحة ،قال : إنه لابد هنا من وقفة تبدو بعيدة عن تيار القصة التى يحكيها ، لكن الحقيقة أن أحداث أية قصة ، وقيمة أبطالها ،

وبناء شخصياتها لايمكن أن يتم إلا من خلال محيطها الموضوعى ، والجو العام الذى وقعت فيه . . . وعلى هذا فإن أحداث القصة وطبيعة الأدوار التى لعبها كل فرد من أبطالها ، لايمكن أن تفهم على حقيقتها إلا من خلال معرفة « الجو العام » الذى وقعت فيه .

قالت السيدة سمحون :

« إن هذا أمر طبيعى ! »

فاستطرد عزيز :

«ولهذا فلابد لنا من أن نعرف ، على أية أرض كان محسن ممتاز يتحرك ، وفى مواجهة أية عقبات ؟ . . . وأى مجتمع ، وبأية خبرة بدأ رأفت الهجان حركته الشديدة الخطر ؟ ! »

ولم ترد هيلين سمحون ، وانتظرت أن يكمل حديثه بعد أن يشعل السيجارة التى شرع فى تدخينها وقد استغرق فى التفكير !

. . . .

. . . .

ولقد كان عزيز الجبالى فى واقع الأمر على حق ، ولم تكن هيلين سمحون تعرف ماالذى يجول بخاطره بالقطع . . . ولايستطيع أحد أن يزعم أنه يعرف ماالذى كان يشغل بال عزيز الجبالى قطعا . . . حتى ولو حللنا حديثه إلى تلك السيدة الألمانية ، فلقد كانت ثقوب المصفاة التى يحكى ماينفذ منها تضيق فى بعض الأحيان إلى حد كبير . . . ولكننا قد نستطيع أن نشتم بعض ماكان يجول فى خاطره ، وإذا ماالقينا نظرة على عدد الكتب التى أخرجها الاسرائيليون ، أو من كتبوا عنهم

وهم ، تخيلنا هذا الكم من المبالغة التى أضفوها على عبقريتهم ، وقارنا هذا الذى قيل بالواقع ، لهالنا الأمر .

وعلى سبيل المثال ، فانه من تلك العناصر التى من أجلها اكتسب « الموساد » منذ البداية ، تلك الخبرة التى تحدثنا عنها . . . إن المنظمات الارهابية الاسرائيلية التى ولدت فى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل ، كانت كل منها تملك جهازا خاصا بها يعمل منذ أن بدأت ، سرا . . . لافى داخل فلسطين وحدها ، بل فى قلب الأمة العربية على اتساعها من المحيط إلى الخليج ، وفى كل دول العالم أيضا بحكم تشرذم اليهود على سطح الكرة الأرضية . . . إن أعضاء هذه العصابات جندوا من كل دول العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . . . وكان لكل واحدة منها ـ بالضرورة ـ وكلاء منتشرون فى كل الدنيا ، يمدونهم بالأسلحة والتبرعات والمعونات ، وبطبيعة الحال ، بالمعلومات . . . وكان يكفى لإسرائيل عام ١٩٤٨ ، أن تجتمع هذه الأجهزة الصغيرة فى جهاز واحد ، ولم يكن الأمر يحتاج إلا الجهد تنظيمى لتصبح الموساد حقيقة واقعة !

ليس هذا فقط ، بل إن « الوكالة اليهودية » التى كان لها ـ قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة ـ فروع فى جميع أنحاء العالم ، ومنها بالطبع ، الدول العربية ، لم تكن سوى جهاز مخابرات يعمل مع كل الدول ضد كل الدول لمصلحة اليهود . . . وإذا ضربنا مثلا واحدا على ذلك الدور الخطير الذى لعبته الوكالة اليهودية فى العالم ، فان مكتبها فى القاهرة ، وكان مقره فى احدى عمارات شارع قصر النيل ، بوسط العاصمة المصرية ، استطاع المساهمة اثناء الحرب العالمية الثانية فى كشف عدد

لابأس به من قضايا التجسس لصالح الحلفاء . . . وربما كانت أشهر تلك القضايا وواحدة من أخطرها ، هى قضية الجاسوس الألمانى «هانز ابلر » ، الذى كان يحمل اسما مصريا هو « حسين جعفر » - وهو اسم حقيقى ، فلقد كان هانز ابنا لسيدة ألمانية تزوجت من مستشار مصرى أعطى لطفلها اسمه بعد أن جعله يعتنق الاسلام وبعد أن صحبه معه ليؤدى فريضة الحج ! - وهى قضية اشتهرت فى التاريخ المصرى - وفى العالم كله - باسم قضية الراقصة حكمت فهمى ! !

استطاع « هانز ابلر » اثنا الحرب العالمية الثانية أن يحقق نجاحات مذهلة بتوغله داخل ضباط الأمبراطورية الذين كانوا يملأون العاصمة المصرية فى تلك الأيام ، سواء الذين كانوا يأتون فى إجازة من ميدان القتال فى الصحراء الغربية ، أو المقيمون أو الذين يمرون بها فى طريقهم إلى دول أخرى ، كما استطاع أن ينمى صداقة وطيدة مع ضابط مخابرات بريطانى كان يقطن العوامة المجاورة لعوامته . . . وعن طريق ابلر هذا - مع زميله الذى كان يدعى « مونكاستر » والذى تخصص فى الارسال اللاسلكى - أحرزت الجيوش الألمانية فى الصحراء الغربية بقيادة روميل ، انتصارات هددت الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط كله . . . ولقد ضبطت إحدى الدوريات البريطانية - وبطريق المصادفة البحتة - محطة اللاسلكى التى كانت تستقبل رسائل ابلر ، وعرفت بالتالى أن فى القاهرة جاسوسا يعمل لحساب ألمانيا ، لكنها أبداً لم تستطع الوصول اليه إلا عن طريق الوكالة اليهودية !

كان مسئول الوكالة قد تلقى من إحدى فتياته - وهى فتاة ليل اسمها إيڤيت - بلاغا عن هانز ابلر - الذى كان يعيش ويتحرك باسم حسين

جعفر - بعد ليلة واحدة قضتها معه فى عوامته الشهيرة ، كان ابلر قد أعطاها عشرين جنيها استرلينيا فى الصباح ، وهو مبلغ - بحساب تلك الأيام - كان يعتبر مهولا . . . لكنها قالت لمسئولها فى الوكالة :

« ان الرجل الذى قضيت معه ليلة الأمس يقول إنه مصرى ، ولكنى متأكدة من أنه ألمانى ، فلقد سمعته يتحدث مع زميله بالألمانية ، بل وبلهجة السار ، وهوعصبى المزاج ، ومعه مال كثير ! »

وطلب إليها مسئولها فى الوكالة أن تداوم الاتصال بهذا الفتى ، وألا تبلغ أحدا عنه . . . وبالطبع نفذت ايڤيت الأوامر وظلت على اتصال بالجاسوس الذى كان يلتقى بها فى أحد النوادى الليلية ، حتى استطاعت ذات ليلة أن تحصل على « الشفرة » التى كان يستعملها فى رسائله اللاسلكية . . . وبعدها باعت الوكالة اليهودية معلوماتها للانجليز ، نظير ثمن دفعته بريطانيا التى كانت فى ذلك الوقت ، فى ورطة أكيدة !

ودون استطراد فى هذه القصة ، فإنها تكشف لنا بوضوح ، كيف كان عملاء الوكالة اليهودية - حتى من فتيات الليل - على درجة عالية من الكفاءة والتدريب . . . . فإن « إيڤيت » هذه التى قدمت نفسها لهانز ابلر على أنها فرنسية من لبنان ، أى أنها تتقن الفرنسية والعربية معا ، كانت أيضا تتقن الألمانية بكل لهجاتها بحيث استطاعت أن تعرفَ اللهجة التى يتكلم بها الجاسوس ، وهى لهجة إقليم السار !

كانت الوكالة اليهودية وحدها اذن - وعند قيام إسرائيل - تصلح لأن تكون نواة ممتازة لجهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة !

لكن الأمر لم يقتصر على هذا فقط .

وإذا كانت الحركة الصهيونية تستعد منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضى وحتى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، فإن الأمر الطبيعى أن تعمد هذه الحركة إلى الاستعانة باليهود فى الدول المتقدمة - انجلترا وفرنسا وألمانيا وأيطاليا والولايات المتحدة وروسيا القيصرية ثم الاتحاد السوفييتى فيما بعد - وتحثهم بصفتهم مواطنين فى هذه الدول ، على الالتحاق بأجهزة المخابرات فيها . . . ولقد خلق هذا جيلا من رجال المخابرات اليهود ، الذين ماإن قامت إسرائيل ، حتى كانوا جاهزين تماما لوضع خبرتهم - التى تحوى كل مدارس التجسس فى العالم - تحت إمرة جهازها الوليد ! . . . وعلى هذا ، فإن الموساد - فى تلك السنوات الأولى من الخمسينيات - كان جهازا حديثا حقا ، لكنه كان يضم خبرات أعرق الأجهزة ، بل وأعظمها على الاطلاق !

ثم يصبح الحديث بعد ذلك عن الجاليات اليهودية فى الدول العربية ، وتأثيرها الاقتصادى والاجتماعى بل والسياسى ، من قبيل التزيد . . . وبالرغم من كل هذا ، وجدت مجموعة الشبان المصريين الذين عهد اليهم بانشاء جهاز للمخابرات « منظم وحديث » ، نفسها أمام « غول » آخر ، هو تلك العلاقة الفورية التى أقامها الموساد مع أجهزة المخابرات القوية ، بدءاً بالمخابرات البريطانية ، ومرورا بالمخابرات الفرنسية ، ثم انتقالا إلى مايشبه الوحدة مع المخابرات المركزية الأمريكية !

وعلى هذا ، فلقد كان من السهل أن تزرع إسرائيل فى الخمسينيات ، جاسوسا له قدرات متفوقة مثل « ايلى كوهين » الذى ولد فى مصر ، وبدأت عملية زرعه فى امريكا الجنوبية ، ثم انتقل إلى سوريا كى يتغلغل فى قيادة الدولة حتى يقترب من منصب الوزير . . .

كان سهلا ، لا لأنهم كانوا يملكون الخبرة فقط ، بل لأنهم كانوا على دراية كاملة بمجتمعاتنا ، بعاداتنا وتقاليدنا . . . ولكن ، كيف يمكن للمصريين أن يعرفوا شيئا عن مجتمع لم يكن قد تشكل بعد ، ولم تصبح له سماته ومقوماته الأساسية ، كالمجتمع الاسرائيلى فى تلك الأيام ؟ !

أمام كل هذه القدرات ، كان على الرجال أن يبدءوا من الصفر . . . ليس فقط ، بل انهم كانوا يعلمون يقينا أن اشتداد موجات الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، يعطى أساليب العمل السرى - ومع تقدم العلوم والتكنولوجيا العصرية التى دخلت فجأة عصر الذرة - دفعات مهولة وتطوراً كان يطرد يوما بعد يوم . . . ولم يكن عليهم فقط مسابقة الزمن ليلحقوا بما فات بلادهم عبر عشرات السنين ، بل كان لابد من تزايد سرعة تقدمهم حتى يكونوا أقدر على الوصول إلى أحدث ماوصلت إليه أساليب هذا العلم الحديث ، وحتى يستطيعوا التعامل معه !

كان الأمر شاقا حقا ، وكان صعبا . . . لكنه - أبدا - لم يكن مستحيلا !

•••

كان ثمة سؤال يواجه محسن ممتاز منذ البداية : « أى نوع من الأفاقين سوف يبحث عنه ؟ ! »

ولقد كان من الطبيعى أن يصبح الشرط الأول ، هو أن يكون هذا الأفاق مصريا لحما ودما . . . إن الولاء هنا هو الركيزة الأولى للفكرة التى كانت تختمر فى رأسه لحظة بعد لحظة . . . علمته نشأته الريفية كيف يصبر وينتظر - مثله مثل الفلاح المصرى - لشهور وهو يرقب

الأرض بعد أن بذر الحب ، ثم يمتع نفسه وقلبه بمنظر الزرع وهو يشق التربة لينمو . . . وبقدر ماتعطيه من رعاية ، بقدر مايعطيك من ثمر !

وهكـذا راح يجرى اتصـالاتـه بمجموعة منتقاة من الرجال الذين انتشروا فى جميع أنحاء مصر ، ولقد كان من الممكن أن يكون الأمر سهلا لو أنه طلب إلى الرجال أن يبحثوا له عن « نصاب » أو « لص » أو حتى « قاتل محترف » ، ولكن كلمة « أفاق » هذه ، لم تكن واضحة فى أذهانهم ، كما أنه ـ هو نفسه ـ لم يكن قادرا على تحديد المعنى بشكل قاطع ونهائى .

فإذا كان الشرط الأول لهذا الأفاق أن يكون مصريا ، فلقد كان الشرط الثانى ، هو أن يصلح لأن يكـون يهوديا . . . إن اليهـود المصريين لهم « سحنة » خاصة ، وأسلوب خاص فى الحياة ، وروح خاصة اكتسبوها من المجتمع الذى عاشوا فيه . . إن الانسان لايستطيع أن يفرق بين المصرى إذا كان مسلما أو مسيحيا ، بل من المستحيل أن يفعل ذلك . . . لكن المصرى اليهودى كانت له سمات لايخطئها من كان على دراية بالمصريين . . . وإذا كان هذا من ناحية الشكل يجعل المهمة صعبة فإن المضمون يجعلها أكثر صعوبة . . . إن اليهودى المصرى ، مهما كانت مكانته الاجتماعية أو فقره أو غناه ، كان لابد أن يتقن ، بجانب اللغة العربية ، لغة أجنبية ـ على الاقل ـ اتقانا تاما ، ولقد كانت اللغة الفرنسية هى الشائعة بين يهود مصر ، فمن أين له بأفاق مصرى يتقن الفرنسية اتقانا تاما ، ثم لغة ثالثة يستطيع التحدث بها بيسر وسهولة ؟ !

كانت هذه السمات ضرورية فى الاختيار ، لكن محسن لم يستطع

ابدا أن يبوح بها لمن طلب إليهم البحث عن أفاق !

وكما فعل رجل المخابرات البريطانى عندما لجأ إلى سكوتلانديارد ، لجأ محسن إلى مجموعة من أصدقائه من ضباط الشرطة الذين يعملون ، خاصة ، فى المباحث !

ولأن محسن كان ذا شخصية جادة لاتعرف الهزل ، فقد تلقى أصدقاؤه من ضباط الشرطة طلبه هذا بدهشة . . . وكان طبيعيا أن يسأله أى منهم عن السبب فى بحثه عن أفاق ، وكان من المستحيل عليه أن يخبرهم . . . كل ماكان يستطيعه ، هو الجلوس اليهم ، وإدارة نوع من الحوار المرهق الذى كان ـ بجهد شديد ـ يوصله إلى مبتغاه ! .

ولم يكتف محسن بهذا ، بل نزل إلى الشارع !

وكما كان سهلا عليه أن يرتاد النوادى الاجتماعية والرياضة والنوادى الخاصة ويصل إلى ذروة المجتمع فى جولة صبور . . . لم يكن صعبا على رجل مثله أن يرتدى ملابس عامل أو سائق أو موظف صغير ، وأن يندس فى المقاهى ويرتاد البؤر ، ويختلط بنوعيات من البشر صعودا فى المجتمع إلى قمته وهبوطا إلى قاعه . . . وبالرغم من أن تجربته هذه بالذات لم تقده إلى العثور على ضالته ، فإن فائدتها بالنسبة إليه ، فاقت كل ماتصوره . . . فلقد اكتشف أن الأفاقين كانوا يكثرون كلما اقترب من قمة المجتمع ، وكم التقى فى الفنادق الكبرى والجلسات الخاصة التى تضم أسماء لامعة لفنانين وكتاب ورجال أعمال ، بنوعيات من الأفاقين كانوا يبدون للناس وكأنهم من « صفوة » المجتمع ، لكنه اكتشف أن فى أعماق الريف المصرى ، الذى هو منه ، ذكاء يصل إلى حد العبقرية . . . وفى رحلاته إلى أعماق الصعيد ، كان يلتقى بنماذج من

النصابين والمحتالين واللصوص ، يبتكرون من وسائل النصب والاحتيال مايفوق كل خيال . . . من اسوان وحتى الاسكندرية راح محسن ممتاز يتنقل بين الأسواق فى القرى والمدن الصغيرة والكبيرة ، فى الحقول ، بين المقامرين ، والهاربين من القانون ، ومهربى المخدرات ، والتجار والسماسرة ، وحتى الباعة المتجولين وأبناء الذوات وأبناء الأسر المتوسطة على حد سواء ، بحثا عن هذا « النمط » الذى كانت ملامحه ، يوما بعد يوم ، وتجربة بعد أخرى ، تكتمل فى مخيلته . . . حتى جاء عليه يوم كان يشعر أن هذا « النمط » الذى خلقه خياله ، إنما هو رجل يسعى معه وبين يديه ، يلازمه فى الليل والنهار ، يعيش معه ، يأكل ويشرب ويغضب ويفرح . . . أصبحت الفكرة شخصا ، وكان عليه أن يعثر على هذا الشخص وسط مايزيد على العشرين مليونا من البشر ، هم تعداد سكان مصر فى ذلك الوقت !

ومرت الأسابيع .

ومرت شهور دون أن يعثر محسن على ضالته . . . كان إذا التقى بشخص توسم فيه الصلاحية ، مايلبث أن يكتشف فيه عيبا أو نقصا يجعله يعدل عن اختياره فورا . . .

حتى كانت ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ .

كانت ثلاثة أشهر قد انقضت منذ تلك الليلة التى شاهد فيها ذلك الفيلم الأمريكى مع رئيسه وزميله وصديقه حسن صقر ، دون أن يعثر على بغيته . . . عاد إلى بيته بعد يوم شاق فى عمل اقتضى منه أن ينتقل من مكان إلى مكان وكان الحر لافحا ، كل ماكان يحلم به فى تلك

الليلة ، هو دش بارد يزيل العرق ، وجلباب يعطى لجسده فرصة الاسترخاء بعد يوم مضن . . . ولقد حدث هذا ، أزال عرقه وارتدى جلبابه واستعد للاسترخاء المنشود عندما دق جرس التليفون .

وكان المتحدث واحدا من أصدقائه ضباط المباحث ، وكان يتحدث من سجن الاستئناف فى حى « باب الخلق » الذى يتوسط المسافة فيما بين ميدان العتبة الخضراء ، وقلعة محمد على .

« عندى ولد غريب يامحسن عاوزك تيجى تشوفه ! »

« شكله ايه ؟ ! »

« معرفش ! »

كان الرد غريبا فاستيقظت حواس محسن :

« يعنى ايه ماتعرفش ؟ ! »

« ماعرفش حقيقى ! »

فى غضب هتف محسن :

« ماتعرفش شكله ايه ؟ ! »

« تعال شوف وانت تتأكد بنفسك ! »

« طب اسمه ايه ؟ ! »

« ماعرفش ! »

« أنت شارب حاجة ؟ ! »

« احنا قدامنا كذا اسم ماحناش عارفين اسمه الحقيقى أنهو فيهم ! »

« وده ملته ايه ؟ ! »

« ماعرفش ! »

هتف محسن مغاضبا :

« اسمع يارشدى لما اقول لك . . . . »

قاطعه الرجل من الطرف الآخر :

« حقيقى محدش عارف إن كان مسلم والا مسيحى والا يهودى ! »

« دانت ممكن تعرف بالنظر ياأخينا ! »

« اصله ينفع كله ! »

تذرع محسن بالصبر وعاد يسأل :

« وده تهمته ايه ؟ ! »

« مااعرفش ! »

صرخ محسن وقد بدا له الأمر هزلا لاجد فيه :

« امال قبضتوا عليه ليه ؟ ! »

« مش عارفين ! »

« بقى ده كلام ؟ ! »

« ماهو فيه قدامنا كذا تهمة ، فيه نصب واحتيال ، وفيه سرقة ، وفيه تزوير . . . لكن التهم دى موجه لكذا واحد ماحناش عارفين هو مين فيهم ! »

ولأن محسن كان ذا طبيعة لاتخلط الهزل بالجد حتى مع الأصدقاء ، فلقد أدرك أنه أمام حالة خاصة ، وان هذه الحالة قد تكون بغيته . . . فقال فى حسم :

« أنا جاى لك ! »

●●●

عندما وصل محسن ممتاز إلى سجن الاستئناف ، كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء ، فوجد كل شىء جاهزا . . . كان هناك وكيل النيابة ، وضابط المباحث ، ثم ضابط السجن وكاتب الجلسة . . . ومع أكواب الشاى المصرية التى قدمت للحاضرين ، عرف محسن القصة .

هو شاب فى حوالى الخامسة والعشرين من العمر ، قبضت عليه السلطات البريطانية فى ليبيا على أنه يهودى هارب من مصر اسمه « ليفى كوهين » ، لكنه كان يحمل جواز سفر أمريكيا وغير مزور باسم « جونى برات » ، وعندما وصل إلى القاهرة وأخذت بصماته ، عادت البصمات بتقرير يقول إن له اسما آخر مصريا ومسلما هو « رأفت على سليمان الهجان » ، ومن مكان آخر جاءت التحريات لتؤكد أن له سابقة تحايل فى أحد فنادق القاهرة الكبرى التى ترك فيها جواز سفر فرنسيا باسم « دانييل مارتان » ، وعندما واجهوه بذلك ، قال بفرنسية طليقة كانجليزيته الطليقة سواء بسواء : « ان هذا هو اسمى ! » . . . ثم وصلت إشارة من الاسكندرية ـ التى كان قد وصل اليها عقب ترحيله من ليبيا ـ تقول إن المذكور ـ صاحب البصمات التى أخذت هناك ـ اتضح أن له ملفا باسم «عادل مرقص سيدهم » . . . وكان الأمر محيرا تماما ، فإن التحقيقات التى اجريت معه لم تصل إلى أية نتيجة حاسمة ، فاضطروا فى النهاية إلى السؤال عنه فى البوليس الدولى ـ الانتربول ـ الذى أفاد أن هذا الشخص مطلوب فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا بتهم متعددة ، وأن هناك بضعة أسماء أخرى له . . . ولقد اعترف الفتى ، عندما عاد تقرير البصمات الأول ، أن اسمه بالفعل هو « رأفت على سليمان الهجان » ، ثم عاد وقال إن هذا

هو الاسم الذى انتحله عندما اخذوا بصماته ، وان اسمه الحقيقى هو « أحمد العلايلى » . . . وفى أحد التحقيقات قال انه مسلم ، ثم عدل عن ذلك وقال انه فى الحقيقة مسيحى ، لكنه فى مرة ثالثة قال إن الانجليز فى ليبيا كانوا على حق ، وإنه يهودى أراد الفرار من مصر !

الذى زاد من حيرة المحققين أن نظام تحقيق الشخصية لم يكن معمولا به فى مصر فى ذلك الوقت ، وكان جوازا السفر الامريكى والفرنسى وثيقتين تثبت كل منهما أنه امريكى الجنسية وفرنسى الجنسية . . . ولقد فشلت كل المحاولات والوسائل فى تحديد شخصيته أو ديانته أو هويته بشكل قاطع . . . ثم ، وعندما أعياهم الأمر ، فكروا فى الاتصال بمحسن ، فقد يصلح الفتى لأن يكون هو من يبحث عنه منذ شهور ، وقد يستطيع أن يعرف بالقطع من هو ؟ !

استمع محسن بانتباه شديد لكل كلمة قيلت ، ثم استأذن فى الاطلاع على الأوراق ، وراح يقلبها ، ثم طلب إليهم عقد جلسة تحقيق عادية جدا ، يحضرها هو كواحد من الموظفين أو الضباط !

وهكذا رتبت الجلسة كما ترتب الجلسات عادة فى مثل هذه الأحوال ، كانت الغرفة التى انتقلوا اليها متسعة بعض الشىء وإن كانت خالية إلا من مائدة مستطيلة وضعت خلفها مجموعة من المقاعد بعدد الذين سيحضرون . . . وفى ركن الغرفة كان ثمة دولاب كبير متهالك تماما ، مفتوح على مصراعيه ، تبرز أحشاؤه من الملفات القديمة والجديدة على السواء . . . فى مواجهة المائدة باب يؤدى إلى ساحة السجن ، جلس وكيل النيابة وضابطا الشرطة ، واختار محسن لنفسه مكانا بجوار الكاتب فبدا وكأنه أحد مساعديه . . . كان الجميع

يرتـدون المـلابس المدنية فلا تعرف من منهم الضابط ومن منهم الموظف . . . وكـانـوا جميعـا ـ الآن ـ يعـرفون ماالذى يريده محسن بالضبط ، فكل ماكان يريده ألا يلتفت إليه أحد ، وألا يعيره أحدهم اهتـماما وكأنه موظف قليل الشأن ، فلقد كان حريصا على ألا يشعر الفتى بوجوده بأى شكل من الاشكال ، حتى يعطى لنفسه الحرية فى التفرس والدراسة دونما شعور من الفتى بأنه محل بحث أو تفحص أو تفرس أو دراسة !

ونودى على « المتهم » !

وفتـح البـاب ودخـل شاب متوسط الطول قمحى اللون منصهر الملامح ـ إن صح التعبير ! ـ إلى حد إلى الدهشة ، يبدو وجهه وكأنك التقيت به من قبل مئات المرات دون أن يلفت نظرك ، هو وجه من تلك الـوجـوده المـألـوفة إلى الحد الذى يصبح من الصعب أن يعلق بذاكرتك . . . أنف طويل مدبب الطرف ، شفتان رقيقتان تنفرجان عن ابتسـامة لاتدرى إن كانت ساخرة هى أم بلهاء ، عينان تبدوان لأول وهلة ناعستـين وكأن صاحبهما قد تناول مخدرا مازال يسرى فى دمائة ، نابت الذقن ، مهوش الشعر ، ملابسه ليست رثة أو قديمة ، وان كان يبدو ان صاحبها لم يخلعها منذ أيام . . . بحركة لامبالية ، وخطوات بطيئة ، تقدم الفتى من الحاضرين كمن أسلم نفسه لقدر أهـوج ، فى يديه المضمـومتـين أمـامه ، قيد حديدى كانت سلسلته الصغيرة تصنع صوتا ناعما مع حركته فى الغرفة التى سادها الصمت فور دخـولـه ، خلف الفتى دخـل جندى من حراس السجن مالبث أن غادرها بعد أن طلب إليه ذلك ، على بعد خطوات من المائدة توقف الفتى ، طافت عيناه بالحاضرين وكأنه يعرفهم جميعا ويعرف ماسوف

يدور بينه وبينهم ، وعنـدمـا مرت عيناه بوجه محسن المنزوى بجوار الكاتب كأى موظف قليل الشأن توقفت العينان برهة ، ثم التمع فيهما بريق صاحبته ابتسامة غامضة افترت عنها الشفتان الرقيقتان !

« قرب ياواد هنا ! »

تقدم الفتى خطوة أخرى نحو وكيل النيابة الذى ناداه .

« هيه . . . قول لنا اسمك ايه ؟ ! »

بدا التأفف صارخا على ملامح الفتى وهو يغمغم بصوت متكاسل :

«تانى يابيه ؟ ! »

صاح ضابط الشرطة فى غلظة :

« رد على البيه كويس يابن الـ . . . »

فى لكاعة من لايهاب العنف قال :

« مانا قلت لكم ياحضرة الضابط ! »

كانت هذه هى المـرة الأولى التى يرى الفتى فيها ضابط المباحث هذا ، وكان صاحبنا يرتدى ملابس مدنية :

« ايش عرفك انى ضابط ياواد ؟ ! »

ابتسم الفتى ابتسامة ساخرة كانت تغنى عن أى جواب ، عاد وكيل النيابة إلى السؤال :

« من غير لف ولادوران . رد على سؤالى . . . اسمك ايه ؟! »

« ليڤى كوهين ! »

قلب وكيل النيابة فى الأوراق التى أمامه :

« يعنى مانتاش أحمد العلايلى ؟ ! »

« علايلى مين بس ياسعادة البيه ! »

لوح وكيل النيابة بجواز السفر الأمريكى :
«أمال الباسبور ده بتاع مين ؟ ! »
قال الفتى فى انجليزية سليمة :
« انه لى ياسيدى ! »
« يعنى انت جونى برات ؟ ! »
« ماهو الاسم قدام سعادتك ! »
عاد وكيل النيابة يقلب فى الأوراق التى أمامه :
« امال ايه حكاية عادل مرقص سيدهم دى ؟! »
« ده فى اسكندرية ! »
«ورأفت على سليمان الهجان ؟ ! »
« مانا قلت لسعادتك ان ده اسمى مارضيتش تصدق ! »
« يعنى أنت مسلم ؟ ! »
« وموحد بالله ! »
« مسلم واسمك ليڤى كوهين ؟ ! »
« الدين لله والوطن للجميع ! »
« أنت بتهزر يابن الـ . . . . »
«مش ده الشعار اللى معلقاه الثورة على الجدران ؟ ! »
وانقضت الدقائق ، دقيقة وراء الأخرى ، واكتملت ساعة ، ثم ساعة ونصف !
«الباسبور ده بيقول انك أمريكانى ، وده بيقول انك فرنساوى ، والورق ده بيقول انك مصرى . . . أنت جنسيتك الحقيقية ايه ؟ ! »
« أرض الله واسعة ! »
فاض الأمر بوكيل النيابة فصاح فيه :

« يعنى أنت مين بالضبط . . . حسن والا مرقص والا كوهين ؟ ! »
وانفجر الجميع ضاحكين . . .
جاءت صيحة وكيل النيابة وسط الجو الذى كان قد توتر ، مثل نسمة انعشت الجميع ، فما أن سمعوا اسم مسرحية الفنان المصرى العظيم نجيب الريحانى هذه ، حتى وجدوا فيها متنفسا للحيرة التى أوقعهم فيها هذا الشاب الذى كان على استعداد لأن يكون حسن أو مرقص أو كوهين بالفعل . . . ظلوا يضحكون لثوان فإذا الرأس نصف الساقطة تشرع فوق العنق ، وإذا القامة المهدلة تستقيم ، وإذا العينان الناعستان تصحوان إلى بريق غريب متيقظ وأخاذ فى نفس الوقت ، ثم إذا بالفتى يلتفت نحو محسن بالذات ، ويواجهه وكأنه انسان آخر تلبس الجسد الذى كان ماثلا أمامه . . . وإذا الفتى يقول بصوت له جرس ورنين وكأنه صوت إنسان آخر غير هذا الذى كان يقف امامهم ـ طوال ساعة ونصف ـ دون تعب أوملل :
«أنا شايف إن القعدة دى لها طعم تانى غير طعم القعدات اللى تغم النفس إياها ! »

همّ ضابط الشرطة بأن ينهره وإذا به يستطرد :
« وبالشكل ده ، يبقى مفيش داعى للاساور دى ! »
قال هذا وهو يرفع يديه المصفدتين بالقيد الحديدى أمام عيون الجميع ، وإذا القيد بين أطراف أصابعه يتأرجح فى الهواء ، وإذا هو يتقدم من المائدة فى خطوة رشيقة كى يضع الاصفاد ـ مغلقة ـ فوقها وقد علت شفتيه ابتسامة مزهوة . . . وهنا ، هنا فقط ، اعتدل محسن ممتاز فى جلسته !
هتف ضابط الشرطة وهو ينهض إلى القيد الحديدى غير مصدق :

« ياشيطان يابن الابالسه . . . ! »

ابتسم الفتى وكان الضابط يفحص الاصفاد فإذا هى مغلقة ، استدار نحوه فإذا الفتى يبادره فى تحد :

« وياما فى الجراب ياحاوى ! »

« تقدر تعمل ايه تانى ؟ ! »

« معاك جنيه ؟ ! »

« حاتنصب علىّ يا ابن الكلب ! »

« طب وحاروح منك فين ؟ ! »

كان الفتى على حق ، فأخرج ضابط الشرطة من جيبه جنيها من تلك الجنيهات المصرية القديمة ذات اللون الأخضر والمساحة الكبيرة ، تناوله الفتى منه وهو يومىء نحو الدولاب فى طرف الغرفة :

«حادخل وراء الدولاب عشر ثوان . . . وابقى طلع الجنيه منى بعد كده ! »

بدا الأمر مثيرا تماما ، بل بدا وكأنه نوع من التحدى بين الضباط والفتى ، تبادل الجميع النظرات فعاد الضابط إلى مقعده وهو يومىء للفتى أن يفعل . . . سار هذا نحو الدولاب واختفى خلفه لعشر ثوان لم تزد ، ثم عاد إليهم وهو يرفع ذراعية قائلا :

«الجنيه معايا ، بس محدش حايعرف يطلعه منى ! »

ابتسم ضابط المباحث ابتسامة ساخرة وهو ينهض اليه ، تناثرت الضحكات والتعليقات وهو يفتش ملابسه قطعة قطعة ، مضت الدقائق دون أن يعثر الضابط على الجنيه ، نهض اليه ضابط السجن وراحا معا يعيدان التفتيش فى دقه المحترفين ، كان فى بذلته شق امتدت

فيه أصابعهما حتى تمزق الجاكيت واتسع الشق دون جدوى ، نظرا فى ملابسه الداخلية فلم يمانع ، فتشا فتحتى اذنيه وفتحتى انفه وطلبا إليه أن يفتح فمه ففتحه على أقصى اتساع دون أن يعثرا على الجنية . . .

بدا الأمر محيرا فصاح ضابط السجن بلهجة الواثق :

« تلاقيك حطيته فى . . . . »

هتف الفتى مقاطعا :

« عيب يابيه ماتكملش ! »

قالها بلهجة ابن العائلات المهذب الذى تلقى تربية تمنعه من نطق فاحش أو حتى الاستماع اليه . . . و . . . ولم يكن هناك مفر من التسليم بالعجز .

« طب فين الجنيه ! »

فتح الفتى فمه واخرج ضرسين صناعيين كانا مركبين فى فكه الاسفل ، ومن تحت الضرسين الصناعيين أخرج الجنيه وكان مطويا فى دقة مذهلة ، ثم راح يفرده أمامهم طية بعد أخرى !

ولقد مضى وقت ليس بالقصير ، قدم لهم الفتى فيه عرضا سحريا جذابا . . . لم يكن العرض السحرى هو مايلفت النظر إلى الفتى بقدر ماكانت لهجته وأسلوب حديثه الذى ينم عن طبقة اجتماعية محترمة ، وتلك الكلمات الفرنسية أو الانجليزية التى كانت تتناثر وسط الحديث كما هى عادة ابناء العائلات فى تلك الأيام ، كان يشرح لهم كل لعبة ويدلهم على أصول كل خدعة وكأنه صديق قديم فلقد سقطت فجأة بينه وبينهم ، كل الحواجز . . . مر الوقت وكأنه حفل سمر ، ثم انفض وقد انتصف الليل منذ ساعة دون أن يعرف أحد من يكون

الفتى... حسن أم مرقص أم كوهين... هل هو مصرى أم فرنسى أم أمريكى ... هل هو مسلم أم مسيحى أم أنه يهودى ؟ !

●●●

مضى بعد تلك الليلة أسبوعان !

كان محسن ممتاز قد صرح لصديقه ضابط الشرطة بعد أن انفضت الجلسة أنه لايدرى ان كان الفتى يصلح لما يريده له أم لا ، وأنه فى حاجة إلى وقت للتفكير . . . غادرهم وقد انشغل فكره بهذه الشخصية الغريبة ، بدا له الأمر وكأن القدر قد ساق اليه هدية ممتازه وشخصية مثالية . . .

كان الفتى بالفعل مصريا لحما ودما . . لكنه أيضا ، كان يتمتع بتلك السحنة التى عرف بها يهود مصر ، وهو يتقن الفرنسية والانجليزية ، أو على الأقل ، لديه حصيلة منهما تجعل اتقانه لهما أمرا ميسورا . . . وهو بقوامه هذا وصوته واسلوبه وقدرته الفذة على التلون وتطويع ملامحه لما يريد ، يصلح لأن يكون أحد أبناء الجنوب الفرنسى فيما حول مرسيليا وطولون ، ثم ـ على جانب آخر ـ كان يصلح لأن يكون واحدا من أبناء المستعمرات البريطانية قد تزوج أبوه من انجليزية وحصل بعدها على الجنسية !

كان الفتى غريبا بحق ، صالحا ـ من ناحية الشكل ـ تماما !

ولكن ، هل كان يصلح من ناحية الموضوع ؟ !

وإذا كان يصلح من ناحية الموضوع ، هل يقبل المهمة ؟ ! !

ولم تكن الاجابة عن هذه الاسئلة سهلة ، كان على محسن أن يتعرف

إلى الفتى عن قرب ، كان لابد له أن يلتقى به ، أن يحاوره ، أن يسبر غوره ، أن يقتحم صدره ويتعرف على تضاريسه الحقيقية . . . وقبل كل هذا ، كان لابد من معرفة الحقيقة : فمن هو؟ ! . . . هل هو جونى برات ؟ ! . . . أم « دانييل مارتان » ، أم « أحمد العلايلى » ، أم انه « رأفت على سليمان الهجان » ، أم « عادل مرقص سيدهم » . . . كان لابد من يقين يرسو عليه : هل هو حسن ، أم مرقص ، أم كوهين ؟ !

. . .   .

. . .   .

مضى اسبوعان بعد تلك الليلة دون أن يسأل محسن صديقه ضابط المباحث عن الفتى مرة أخرى ، فأيقن هذا ، كما حدث من قبل ، أن محسن قد صرف النظر عنه !

غير أن الثابت أن أحدا من الذين اجتمعوا فى تلك الغرفة بسجن الاستئناف فى ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ ، لم يعرف شيئا عن الفتى بعد ذلك ، وبالقطع فلقد نسوه تماما مع مانسوا من وجوه الآلاف الذين مروا بهم ، فلقد جاء أمر غريب بترحيل الفتى من سجن الاستئناف إلى قسم السيدة زينب ، لكن الأغرب ، أن الاوراق التى وصلت مع الفتى إلى القسم كانت غامضة كل الغموض ، فلم يعرف أحد من ضباط القسم ماهى التهمة الموجهة إلى هذا الفتى بالضبط ، ولا لماذا نقل من سجن الاستئناف إلى هذا القسم ... ولكن ، عندما جاءت إشارة أخرى بنقله من قسم السيدة زينب إلى أحد أقسام مصر الجديدة ، بادر المأمور بترحيله فورا وقد أسعده التخلص من هذا

اللغز . . . ولقد تساءل الفتى لماذا يرحلونه ، ولماذا ينقلونه ، وماهى الأسباب ، وماالذى يحدث ؟ ! . . . وهو لم يجد جوابا من أحد لأن أحدا لم يكن عنده جواب ... فى مصر الجديدة مكث الفتى أسبوعا كاملا نقل بعده إلى قسم ثان جيزة ... وكما حدث فى السيدة زينب ومصر الجديدة ، كانت الأوراق فى قسم ثان جيزة غامضة وغريبة . . . وعندما تساءل المأمور عن هذا الفتى وعن التهم الموجهة اليه لم يجد اجابة كافية . . . غير أنه بعد ثلاثة أيام أخرى وصلت اشارة ذات صباح إلى قسم ثان جيزة بترحيل الفتى مع مخصوص إلى قسم الزيتون ، وبسرعة ، نفذ المأمور الأمر ، فلقد كان سعيدابالتخلص من سجين لايعرف له تهمة ، ووصل الفتى إلى قسم الزيتون ـ والزيتون ضاحية بعيدة من ضواحى القاهرة كانت فى ذلك الوقت تبدو كأنها فى مدينة أخرى ـ فى الواحدةظهرا ، ولم يدفعوا به إلى التخشيبة ، بل طلبوا إليه الانتظار ، والقيد فى يديه ، حتى يعرض على وكيل النيابة !

لكن وكيل النيابة لم يصل إلا فى صباح اليوم التالى ، ونام الفتى فى تلك الليلة جالسا على مقعد خشبى ، وعندما مثل بين يدى وكيل النيابة كان قد وصل إلى حالة من التعب والارهاق جعلته زائغ العينين ، مستعدا لأن يلقوا به فى جهنم حتى يرحموه مما هو فيه من غموض . . . لكن المفاجأة ، أن وكيل النيابة ماإن رآه حتى طلب إلى الشرطى ـ فى جفاء ـ أن يفك القيد الحديدى من يديه ، وكانت أربع وعشرون ساعة قد انقضت وبدا الفتى فى الاصفاد ، فأحس مع الراحة التى انتابته بخوف غامض . . . نظر إلى وكيل النيابة فإذا هو أمام شاب يبدو حديث التخرج قليل الخبرة ، وكان هذا يقلب فى أوراق يحويها ملف قديم مهلهل وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ،ومالبث أن رفع رأسه

نحو الفتى متسائلا :

« انت أحمد العلايلى ؟ ! »

همّ الفتى بالنطق ، لكن وكيل النيابة فى تأفف من يريد أن يتخلص مما فى يديه بأى ثمن ، راح يكتب فى ورقة من أوراق الملف وهو يقول بصوت عال :

« يفرج عنه بكفالة عشرين جنيه ! »

لم يصدق الفتى ماسمعه ، اجتاحته فرحة غريبة وطاغية ، ولكنه بالرغم من ذلك صاح :

« عشرين جنيه حته واحدة ، أجيبهم منين ؟ ! »

عادوكيل النيابة ينظر اليه فى ضيق عندما جاء من خلف الفتى صوت يقول :

« الكفالة جاهزة ياسعادة البيه ! »

التفت الفتى إلى الخلف فى عنف من هوت على رأسه مطرقة ، فإذا به وجها لوجه أمام محسن ممتاز . . . فغر فمه دهشة لكنه عاد ينظر إلى وكيل النيابة الذى كان يسأل محسن فى جفاء :

« انت مين ؟ ! »

« أنا ابن خالته ! »

« وحاتدفع له الكفالة ؟ ! »

أخرج محسن النقود من جيبه قائلا :

« دى مش أول مرة ياسعادة البيه »

راح وكيل النيابة يكتب فى الأوراق مكملا إجراءاته عندما هتف

محسن :

« بس دى آخر مرة وسعادتك شاهد ، دى آخر مرة ! »

لم يرد وكيل النيابة ، بدا مستغرقا فيما كان فيه ، بينما كان الفتى يبدو ذاهلا ومحسن يخاطبه غاضبا :

« انت حاتفضل طول عمرك مش نافع ، حاتفضل فاضحنا ومغلبنا لحد امتى ؟ ! »

صاح وكيل النيابة ناهرا محسن :

« اتخانقوا بره مش هنا . . . يالله اتفضل انت وهو ! »

قال هذا وهو يضغط زر جرس دخل بعدها شرطى خاطبه الشاب قائلا :

« خده ياعسكرى من هنا وخليه يدفع الكفالة ! »

. . . .

:

. . . .

كان الفتى قد تعرف إلى محسن منذ النظرة الأولى ، تذكر تلك الليلة فى سجن الاستئناف التى ظل بعدها يتنقل من قسم إلى قسم ومن تخشيبة إلى تخشيبة دون سبب مفهوم . . . أراد الحديث ، لكن وجه محسن المتجهم ونظراته المخيفة أوقفته ، راح الجندى يدفعه أمامه فى غلظة من مكان إلى مكان حتى تنتهى اجراءات دفع الكفالة . . . لم يجد الفتى بدا من الاستسلام لذلك القدر الغامض الذى هبط عليه من حيث لايدرى . . . . انتهت اجراءات الافراج ، وخرج الفتى فى صحبة محسن من باب القسم ولم يصدق أنه أصبح حرا . . . على بعد خطوات كانت هناك سيارة صغيرة فرنسية الصنع مضحكة المنظر ، دار محسن حولها وهو يقول فى جفاء من انتوى شرا :

« اركب ! »

ركب الفتى إلى جوار محسن الذى بدت السيارة صغيرة على جسده المتنامى ، انطلقت السيارة إلى حيث لايدرى ، كان كل مافعله أن اسند رأسه إلى يده فى إرهاق ، ماان مضت بهما السيارة بضع عشرات من الامتار حتى التفت إلى محسن متسائلا :

« معاك سجاير يابيه ؟ ! »

أخرج محسن صندوق سجائره والقى به فى حجر الفتى دون كلمة ، اشعل هذا سيجارة راح ينفث دخانها فى تلذذ . . . ولقد حاول فى لحظة ماأن يجرب الحديث . . . لكن نظرة خاطفة من عينى محسن الجمت لسانه . . . ولقد أيقن لحظتها أنه ـ حتى الحديث ـ غير مسموح له به إلا بإذن !

عند بقعة هادئة فى الطريق الموصل فيما بين ضاحية مصر الجديدة والقاهرة ، وبجوار شريط الترام الذى كان يطلق عليه « الترام الأبيض » ، وكان يربط ـ فى ذلك الوقت ـ ضاحية هليوبوليس بحى العباسية الشهير ، توقف محسن بالسيارة فى ظل شجرة من الأشجار المتناثرة بطول الطريق !

كان الفتى صامتا فظل صامتا لاينبس بكلمة . . . ألزمته نظرة محسن النارية حدود الأمر فلم يعصه ، التفت اليه محسن وكأنه يأذن له بالالتفات اليه ففعل ، ظل يرقبه قليلا ، راح يتأمله وكأنه يملأ منا عينيه ، ثم لاح فى العينين الناريتين شبح ابتسامة رطب جو السيار الملتهب بالقلق والتوتر ، أخيرا . . . أخيرا قال محسن بصوت آمر :

« ودلوقت . . . أنا عاوز أعرف منك حاجة واحدة بس ! »

« ايه هيه يافندم ؟ ! »

« أنت مين ؟ ! »

انتفض الفتى صائحا :

«أنت اللى مين ياسعادة البيه ؟ ! »

الفصل السادس

صداقة حميمة مع سوء الحظ !

قالت السيد سمحون إنها تشعر وكأنها تستمع الى خطوات التاريخ فى مكان مامن الكرة الأرضية لم يخطر ببالها أن تطأه أو تتعرف عليه . . . كان عزيز الجبالى قد انقطع عن الحديث عندما أصبح عليهما أن يستعدا لتناول طعام الغداء فى تلك الغرفة ذات الاثاث المتواضع فى جهاز المخابرات المصرية . . . أكثر ماأثار دهشتها تلك الذاكرة البلورية التى يتمتع بها عزيز الجبالى ، والتى تحتفظ بالتفاصيل فى نقاء من عاش الأحداث وشاهدها وتيقن منها . . . كان الغداء مكونا من شرائح السمك والبطاطس المقلية على الطريقة الفرنسية ، وكان هناك طبق مترع بالسلاطة الخضراء الطازجة ، ثم تلا السمك طبق من اللحم البارد المصحوب بقليل من الخضروات المسلوقة ورقائق البطاطس . . . ثم دورق ملىء بعصير البرتقال !

انقطع الحوار عندما أصبح عليهما أن ينتقلا الى تلك المائدة الصغيرة التى حملت الى الغرفة عندما أبدت السيد سمحون رغبتها فى تناول الغداء فى نفس الغرفة حتى لاتنقطع عن « الجو » الذى اجتذبها اليه عزيز الجبالى . . . ماإن جلست الى المائدة حتى ضحكت ، ورفع عزيز عينيه اليها فقالت :

« أنكم حتى تعرفون مم تتكون وجبات طعامى ! »

ابتسم عزيز فى خجل غير مصطنع ولم يرد ، فاستطردت :

« لو أن احدا قال لى إنى سأتناول غدائى ذات يوم فى أى جهاز من أجهزة المخابرات فى العالم ، حتى ولو كان جهاز المخابرات الألمانى ، لاتهمته بالجنون ! »

غمغم عزيز بصوت خافت وإن كانت نبرته شديدة الوضوح :

« إن الحياة أكبر من أن نحتويها ياسيدتى ! »

كان الشاب الذى يقدم لهما الطعام ريفى الملامح الى درجة تدعو الى الدهشة والاحساس بأنه لم يغادر حقله الا بالأمس . . . ورغم هذا ، فلقد راح « يخدِّم » عليهما وكأنه واحد من جرسونات أفخم المطاعم الباريسية !

لاحت للسيدة سمحون فكرة راودتها أثناء حديث عزيز فلم تشأ أن تقاطعه ، توقفت عن الطعام فتوقف هو الآخر ، تلاقت نظراتهما فاذا هى تسأله :

« اين كنت طوال تلك الاحداث ؟ ! »

« على الحدود المصرية الفلسطينية ! »

عادت الى الطعام فأكمل :

« كنت ملازما فى الجيش المصرى ! »

رفعت اليه عينين متسائلتين فأجابها قبل أن تنطق :

« كان للمعركة هناك وجه آخر ! »

ادركت ماكان يعنيه فعادت إلى الطعام . . . لاحت منها نظرة اليه بدا مستغرقا فى حلم طويل . . . لزمت الصمت لدقائق ، لكن الحديث سرعان ماتصل من جديد بعيدا عما كانا فيه ، راحا يدردشان حول السياحة فى مصر وإمكان إقامة مشروعات سياحية تساعد على جذب المزيد من السائحين ، ولقد كان عجيبا بالنسبة لها ، أن تكتشف فى حديث عزيز ، معرفة تكاد تكون شاملة عن السياحة وأساليبها و . . . و . . وانتهى الطعام ، ورفعت الاطباق وجاءت القهوة ومعها عدد لابأس به من حبات البرتقال المصرى الفاخر . . . ومالبث عزيز الجبالى أن عاد إلى حكايته من جديد !

●●●

كان الموقف غريبا بحق ، الضابط والفتى فى طريق عام ، فى سيارة صغيرة مضحكة المنظر ومنتشرة بين شباب مصر من الطبقة الوسطى فى تلك الايام ، تحت ظل شجرة من تلك الأشجار الوارفة التى تميز الأحياء الراقية أو الطرق المؤدية اليها فى قاهرة ذلك الزمان . . . كانا يجلسان فى هدوء بحيث اذا شاهدهما إنسان ، لايمكن أن يقول إلا أنهما صديقان فى انتظار شخص أو شىء أو موعد . . . وذلك ، بالرغم من أن كلا منهما لم يكن يعرف من يكون الآخر ، وكانا قد افصحا عن ذلك عندما سأل كل منهما الآخر : من أنت ؟ !

أحدهما يريد التيقن من عشرات الأسئلة التى تضطرم فى رأسه ، يريد التيقن أولا وقبل كل شىء ، من احتمالات الصدق والكذب عند

الفتى ! . . . هل سيصدقه القول أم يزوغ ويروغ ويتلاعب بالموقف واللفظ والحدث معا ؟ ! . . . يتمنى بداية تقوده الى حيث يخدمان معا وطنا هو فى أشد ما تكون الحاجة الى خدماتهما . . . وهو فى تحسسه الى تلك البداية يختار الخطوات فى عناية ودقه بالغتين . . . يعلم يقينا أنه يروض وحشا كامنا فى صدر الفتى ، ولو أنه أحس للحظة واحدة بأن القبضة ليست محكمة ، فلسوف يدمر الأحلام جميعا . . . وأن عليه كما يفعل مدرب الوحوش فى السيرك ، أن يسمع الأسد فرقعة السوط فقط دون أن يقترب السوط منه أو يلمسه ، إن الفرقعة هى التى ترعب الأسد وتخيفه ، لكنه لو ذاق لسعة السوط مرة ، فلسوف يكتشف أن الأمر هين ، وليس فى حاجة الى خوف ، ولكانت هذه هى النهاية !

أما الثانى ، فكان - لأول مرة فى حياته - يتخبط أمام مجهول عليه أن ينزع عنه أستاره . . . يتساءل الفتى فيما بينه وبين نفسه من يكون هذا الرجل ذو النظرة الرهيبة والابتسامة الساحرة فى نفس الوقت ؟ ! . . . هذا الرجل الذى اخرجه من السجن ، ونجاه من ورطة ، وأعطاه حريته دون سبب معلوم ، ثم . . . ثم هو لايعرفه ، لايعرف اسمه ولاعمله ، ولاهويته ، ولا ماالذى يريده منه . . . ينظر إلى ملامحه مستعينا بكل ماأوتى من خبرة وذكاء فطرى ومكتسب ، فيكاد يقسم أنه ضابط . . . ولكن ، أى نوع من الضباط هو؟ . . . أى نوع من الضباط هذا الذى يفرج عنه ويجلسه بجواره فى السيارة ويجلس معه فى الطريق العام بلا حراسة ولاتهديد ولا حتى حيطة . . . فهو ، الآن ، يستطيع أن يفتح باب السيارة بسرعة لايتخيلها هذا الجالس الى جواره ، وان يطلق ساقيه للريح ، ولن يلحق به هذا الضابط حتى ولو

استعان بعشرة/سيقان مع ساقيه . . . وبالرغم من هذا فانه لايفعل . . . فلماذا ؟ !

لو أنه - فقط - يعرف ما الذى يريده منه هذا المجهول لاستطاع أن يلاعبه ويلاغيه !

« أوعدك انك حاتعرف كل حاجة فى وقتها ! »

هكذا قال محسن ردا على التساؤل الصارخ فى عينى الفتى ، ولم يخف هذا دهشته فتساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا الضابط يقرأ افكار الناس ؟ !

« قول لى بقى انت مين ؟ ! »

أحس برغبة عارمة فى الاستسلام :

« شوف ياسعادة البيه . . . كل اللى قلته قبل كده كان مراوغة ! »

رفع محسن حاجبيه فور سماعه لكلمة « مراوغة » هذه التى لم تكن من الكلمات الدارجة التى تعود المصريون على استعمالها فى تلك الأيام ، لاحظ الفتى دهشة محسن فصاح مؤكدا :

« ايوه مراوغة ، وماكانش فيه غير حاجة واحدة بس هى اللى صح . . . . والغريبة انهم مارضيوش يصدقوها ! »

« ايه هى ؟ ! »

« ان اسمى رأفت الهجان ! »

عندها - لدهشة الفتى البالغة - اجتاحت وجه محسن ابتسامة واسعة وسعيدة ، ظنها الفتى سخرية منه فهتف محتجا :

« طبعا أنا عارف انك مش حاتصدقنى وحاتقول انى نصاب ! »

لم يرد محسن وظلت ابتسامته معلقة فوق شفتيه .

« ده اسمى فعلا ياسعادة البيه . . . اسمى رأفت على سليمان

الهجان ! »

اتسعت ابتسامة محسن وازدادت اشراقا فعاد الفتى الى الصياح :

« تحب اثبت لك ؟ ! »

« امال ايه حكاية ليفى كوهين دى ؟ ! »

« ماكنتش عاوز الانجليز يرجعونى من ليبيا !»

أدار محسن موتور السيارة فورا وهو يقول وكأنه اكتفى تماما :

« طب يالله بينا ! »

« على فين يابيه ؟ !»

«على بيتك ! »

●●●

كانت الاسابيع التى انقضت منذ رأي محسن هذا الفتى فى سجن الاستئناف ذات ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ ، وحتى وقف معه بالسيارة بجوار شريط الترام الأبيض الموصل مابين ضاحية هيلوبوليس وحى العباسية ، ذات يوم من أيام سبتمبر من نفس العام . . . لم تمض هباء .

كان على محسن ممتاز أن « يعرف » أكبر قدر من الحقيقة عن الفتى قبل أن يلقاه مرة أخرى . . . إن المعرفة هنا ستجعله - أولا - قادرا على امتحان صدق الفتى وكذبه . . . وهى ثانيا - ستساعد على تطبيق ذلك المبدأ الهام من مبادىء علم المخابرات ، والذى يقول إنه لابد أن تكون لـ « ضابط الحالة » اليد العليا على المندوب أو العميل أو سمه ماشئت من التسميات . . . ولم يكن ممكنا مع شخصية زئبقية ، وهبها الله قدرا هائلا من الذكاء كتلك التى يتمتع بها ذلك الفتى ، التى جعلته يحير ، لا البوليس المصرى فقط ، بل البوليس الدولى أيضا . . . لم يكن ممكنا ان تتم السيطرة عليه ، وأن تكون لمحسن اليد العليا معه ، إلا إذا امتحن صدقة ، ثم بعد ذلك يأتى دور الترويض والتلجيم - إن صحت الكلمة - ثم من بعد ذلك التدريب !

كان السؤال الأول الذى وجهه محسن ممتاز إلى نفسه بعد أن غادر سجن الاستئناف ، قبل أى شى آخر ، هو :

من يكون هذا الفتى ؟ !

وماهى جنسيته ؟ !

وماهو اسمه الحقيقى ؟ !

ولقد كان أمام هذا الضابط الشاب ، بضعة أسماء سمعها من الفتى أثناء الاستجواب الصورى الذى حدث فى سجن الاستئناف ، كما

ذكرتها الأوراق والوثائق التى كانت موجودة !

كان هناك اسمان اجنبيان واسم يهودى ، وثلاثة أسماء مصرية !

أما الاسمان الاجنبيان فكانا : « جونى برات » - وهذا هو اسم جواز السفر الذى ضبط مع الفتى فى ليبيا - والاسم الثانى هو « دانييل مارتان » ، وهو الاسم الذى دلت التحريات أن الفتى كاد، يقيم به فى احد فنادق القاهرة الكبرى !

ولم يكن من السهل على محسن ممتاز أن يعرف شيئا عن شخصين ، احدهما أمريكى والآخر فرنسى وكلاهما لايعيش فى مصر . . . ولكن ، ولأنه كان على علاقة وثيقة بمصلحة الجوازات والجنسية ، وهى فوق انها علاقة صداقة وطيدة مع بعض كبار الضباط فيها ، فهى ايضا علاقة عمل استطاع محسن بواسطتها أن يعرف أن « دانييل مارتان » الفرنسى ، شاب دخل الى مصر فى زيارة علمية سريعة للآثار المصرية دامت اسبوعين ، وانه نزل فى احد الفنادق المتوسطة شأنه شأن الطلبة ، حيث سرق منه جواز سفره ، فابلغ الشرطة عن الحادث واستخرج من السفارة الفرنسية جوازا آخر عاد به الى بلاده . . . ، وكانت هذه هى الخطوة الاولى ، فلقد عرف أن اسم الفتى - يقينا - ليس « دانييل مارتان »

لكنه واجه أثناء بحثه شيئا غريبا . . . ذلك انه لم يجد فى سجلات المصلحة أى بريطانى دخل مصر باسم « جونى برات » . . . لكنه عثر على اسم فتاة بريطانية اسمها « جوان برات » دخلت مصر كسائحة ، وقضت ثلاثة أسابيع فيها بين الأقصر وأسوان والقاهرة ، ثم امتدت اقامتها أسبوعا آخر عندما فقدت - فجأة - جواز سفرها . . . فأبلغت

الشرطة ، واستخرجت جواز سفر جديداً ، وعادت إلى بلادها !

ثم . . .

ثم كان من السهل أن ينتشر رجاله وسط الجالية اليهودية ـ فى القاهرة والاسكندرية بالذات ـ بحثا عن الاسم الثالث الذى أدلى به الشاب الى السطات البريطانية فى ليبيا على أنه اسمه ، وهو « ليفى كوهين » . . . ولأن اليهود المصريين كانوا يتوجسون خيفة فى تلك الايام من الثورة المصرية ، فلقد كان الأمر يحتاج الى بعض الوقت . . . أما بالنسبة للأسماء المصرية الثلاثة التى وردت فى حديث الفتى ، فلقد كان الأمر بطبيعة الحال يختلف . . . كانت هذه الأسماء هى : عادل مرقص سيدهم ، وأحمد العلايلى ، ورأفت الهجان !

وبالرغم من كثافة التحريات فى الاسكندرية وشمولها وانتشارها فى جميع أحياء الثغر ، فقد جاءت كل النتائج سلبية . . . فلم يكن هناك من يدعى بالتحديد « عادل مرقص سيدهم » . . . لكن محسن ممتاز لم يركن إلى هذا ، وأمر باستمرار التحريات ، بل وامتدادها الى البحيرة ورشيد وغيرهما من المناطق المحيطة بالعاصمة الثانية لمصر !

ولأن محسن ممتاز كان من أصل ريفى عريق ، فلقد كانت مسألة « العائلات » بالنسبة اليه مسألة على جانب كبير من الأهمية . . . ذلك أن الناس فى الريف المصرى إذا عرفوا ـ مثلا ـ ان فلانا قد تزوج من فلانه سألوا : بنت من هى ؟ ! . . . ومن أية عائلة ؟ ! . . . ومن أى فرع من فروع هذه العائلة ؟ ! . . . ثم ، من إخوتها وأخواتها وأعمامها وأخوالها . . . و . . . وهم لايفعلون ذلك من باب الفضول كما يتصور

لبعض ، لكنهم يفعلونه من باب تأصيل الأمور ، ورؤية الصورة كاملة بالنسبة للمجتمع الذى يعيشون فيه !

ولذلك . . . ولما كان محسن يعرف أفرادا من عائلة العلايلى ، فلقد اثبتت التحريات بعد أربع وعشرين ساعة فقط ـ لأنه كان يعرف كيف يوجهها وإلى أين ولمن بالتحديد ـ ! ـ أن « أحمد العلايلى » هذا شخص موجود بالفعل ، وأنه يعيش حياة عادية ، متزوج وله ولدان ، يشغل وظيفة محترمة فى أحد البنوك . . . و . . . ومع استمرار التحريات ، عرف أن احمد العلايلى هذا فقد جواز سفره ذات يوم فى ظروف غامضة وأبلغ الشرطة عن الواقعة ، وكتب محضرا فى القسم ، واستخرج جواز سفر جديدا !

هل كان الفتى يحترف سرقة جوازات السفر ؟ ! . . . إن ثلاث حالات من الأسماء الستة التى ادعاها الفتى لنفسه ، ضاعت جوازات السفر الخاصة بأصحابها . . . ولكن ، ووسط عشرات من علامات الاستفهام التى أحاطت بشخصية الفتى ، جاءت المفاجأة مع ورود بشائر التحريات الخاصة باسم « رأفت على سليمان الهجان » !

فى زيارة خاطفة لقريته التى كان أبوه عمدة لها ، وفى دردشة مسائية على المصطبة فى الدوار مع الرجال الذين علموا بوصوله فجاءوا يسلمون ويرحبون ويحتسون الشاى . . . عرف « محسن ممتاز » أن « الهجاجنة » فى مصر ثلاثة بطون ، كل بطن يقطن محافظة ـ كان اسمها فى ذلك الوقت لايزال « مديرية » ! ـ واحدة فى البحيرة والثانية فى دمياط . . . أما الفرع الثالث فكان فى الشرقية !

وهكذا انطلقت تحرياته بشعبها الثلاث فى سرعة محمومة تبحث عن

« الهجان » الذى ادعى الفتى أنه ينتمى إليه . . . ولم يكن الأمر سهلا فى حقيقة الأمر ، لكن التحريات فى القاهرة جاءت تقول إن ضابطا فى الجيش المصرى برتبة « صاغ » - رائد - اسمه محمد رفيق ، متزوج من هجاجنة دمياط . . . وكان محسن يعرف محمد رفيق هذا منذ دخل الكلية مستجدا ، وكان رفيق من الطلبة القدامى ، وكان شاويشا عليه . . . وعندما تحسست التحريات طريقها حول الصاغ محمد رفيق ، جاءت المفاجآت بأن حرم الصاغ محمد رفيق اسمها « شريفة على سليمان الهجان » . . . فاذا كان الفتى يدّعى ان اسمه « رأفت على سليمان الهجان » ، فإن تطابق الأسماء يدعو الى الدهشة ، فهل يكون شقيقها ؟ ! . . . أم انه يدعى ذلك ؟ !

فى تلك الأيام كان محسن ، بالرغم من تظاهره بالهدوء ، يبدو وكأنه يقف على أطراف أظفاره . . . وكان السؤال الذى يتردد فى ذهنه ، هل حقا وضع يده على اسم الفتى الحقيقى ، على أصله وفصله كما يقولون فى مصر ؟ ! . . . وعلى كل فلقد توالت الأخبار تحمل اليه المزيد من المعلومات . . . . توالت تقول : ان السيدة شريفة هى ابنه الاستاذ المرحوم على سليمان الهجان الذى كان ناظرا لمدرسة النجاح الثانوية للبنين ، وإن الرجل انجب من زوجته الأولى ثلاثة ابناء هم عادل وسليم ومحمود . . . فلما توفيت زوجته الأولى تزوج من أرملة انجب منها ولدا وبنتاهما : « رأفت » و « شريفة » ، ولكن زوجته الثانى توفيت بعد مرض قصير ، فحزن عليها حزنا شديدا ، ولحقها بعد بضعة أعوام تاركا رأفت وشريفة فى رعاية أخوتهما . . . لكن رأفت كان مدللا فنشأ فاسدا ، ولم يكمل تعليمه رغم محاولات العائلة التى يشغل أفرادها وظائف محترمة من تلك التى يشغلها عادة أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمة

فى مصر . . . وهو دائما - أى رأفت - مصدر تعاسة لافراد الاسرة مما دفعهم إلى إغلاق أبوابهم فى وجهه ، فيما عدا اخته شريفة التى تزوجت بعد حصولها على شهادة التوجيهية - الثانوية العامة - مباشرة - وكان رأفت - لشدة تعلق كل منهما بالآخر - يزورها أحيانا بالرغم من أن زوجها الصاغ محمد رفيق لم يكن يطيق سماع اسمه . . . فلقد حدث أن أحد أصدقائه من الضباط كان فى زيارته عندما سأله بشكل يبدو عارضا وغير مقصود بالمرة ، إن كان يعرف فتى اسمه « رأفت الهجان » ؟ ! . . . فاذا به يستشيط غضبا ، ويصيح بأنه لايعرفه ولايريد أن يعرفه كما أنه لايريد أن يعرف عنه شيئا ، وانه حرم عليه دخول البيت ، وأن العائلة كلها قد تبرأت منه منذ سنين . . . ثم . . . ثم سأل محدثه - الذى كان مذهولا من غضب رفيق فهو لم يكن يعرف شيئا عن الأمر - إن كان رأفت قد نصب عليه أو احتال عليه أو سرق منه شيئا . . . وتلجلج الرجل فعاد الصاغ رفيق يقول : « هو فى أنى سجن دلوقت ؟ ! » واضطر الصديق ، وقد وجد نفسه فى موقف لم يستعدله ، أن يؤلف قصة مؤداها أن ثمة فتى تقدم لخطبة إحدى قريباته ، وأن اسمه « رأفت على سليمان الهجان » ، وأن العائلة لجأت إليه كى يسأل عنه شأن كل العائلات المصرية فى مثل تلك الاحوال . . . فما كان من حضرة الصاغ إلا أن صاح فى صديقه محذرا ومنذرا طالبا إليه تحذير الفتاة والعائلة ، فالفتى نصاب ومحتال وغير متعلم وأفاق ، وأنه ايضا ، رد سجون ولايستطيع أن يعول نفسه فكيف سيعول زوجة ؟ !

وكان محسن سعيدا .

كان سعيدا لأنه - أخيرا وفى زمن قياسى - استطاع ، ان يعرف من

يكون الفتى على وجه التحديد ... لكن سعادته ازدادت عندما توّجت تحرياته بصورة فوتوغرافية لرأفت مع شقيقته شريفة ـ لم نستطع معرفة الطريقة التى حصل بها محسن على هذه الصورة ، وفشلت كل المحاولات التى بذلناها فى هذا السبيل ـ وكان عمر الصورة بضعة أعوام ... و ... ولم يكن هذا مهما ، بل كان المهم عند محسن أنه تأكد لأول مرة ـ وبشكل قاطع ـ ان الفتى الذى كان فى سبيله لاطلاق سراحه ، هو بالفعل « رأفت على سليمان الهجان ! »

ولذلك فلقد ابتسم محسن ممتاز تلك الابتسامة التى أدهشت الفتى عندما ذكرله اسمه الحقيقى بجوار شريط الترام الابيض ... وكان للابتسامة فى الحقيقة سببان .. الاول : أن الفتى لم يكذب ... أما الثانى : وهو الأهم ، فلأن الشرط الأول تحقق ... ان الفتى مصرى لحما ودما وعرقا وأصلا .

•••

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهراً عندما توقفت سيارة محسن أمام محل من محلات الكباب الشهيرة فى ميدان الأزهار الذى يتوسط المسافة فيما بين ميدان قصر النيل ـ الذى اصبح اسمه ميدان التحرير ـ وبين ميدان قصر عابدين ... ضغط محسن على بوق السيارة فالتفت « المعلم » من الداخل ، وماأن رأى محسن حتى رفع يده بالتحية مناديا على أحد رجاله مشيرا الى السيارة ... هرول الرجل حاملا لفافة كانت جاهزة قدمها لمحسن الذى تناولها منه ووضعها فى المقعد الخلفى ، ثم نقده الثمن مع إكرامية وصلت الى خمسة قروش كاملة ـ وهو مبلغ لم يكن يدفعه فى تلك الايام سوى الموسرين ! ـ وعندما عادت السيارة الى السير من جديد ، كان لعاب الفتى يسيل وقد امتلأت برائحة

الشواء ... بعد دقيقتين ، فى أحد الشوارع الخلفية لميدان سليمان باشا فى وسط القاهرة ، هبط محسن من السيارة حاملا اللفافة ، فهبط الفتى معه ... كان نصف ساعة قد انقضى منذ أن غادرا مكانهما ذاك فى ظل تلك الشجرة على الطريق الموصل فيما بين العباسية وضاحية مصر الجديدة ، لم يجرؤ الفتى خلاله على النطق ، فقط ، طلب سيجاره فأومأ له محسن بالموافقة ، أشعل السيجارة واستغرق فى التفكير مدخنا وقد استبد به القلق ... سارا معا حتى وصلا الى ميدان سليمان باشا ، دلف محسن فى باب عمارة من تلك العمارات العريقة المحيطة بالميدان فتبعه رأفت دون كلمة ، دخلا المصعد الذي حملهما إلى الطابق الأخير ، ثم غادراه ليصعدا طابقا آخر أوصلهما الى سطح العمارة ، اخترقا ممرا على جانب منه بضع غرف تشغلها عائلات البوابين ، عند سور منخفض يفصل هذا السطح عن السطح المجاور ، صعدا سلما مكونا من أربع درجات ، ثم هبطا أربع درجات لسلم صغير آخر يوصل الى سطح العمارة المجاورة ، قال محسن شارحا الأمر :

« ابقى تعال من السكة دى علشان العمارة التانية مفيهاش اسانسير ! »

سارا بضع خطوات توقف بعدها محسن أمام باب أولج فيه مفتاحا ففتح الباب على الفور ، خطا الى الداخل وهو يقول :

«اقفل الباب وراك ! »

دخل رأفت وهو يغلق الباب خلفه ليجد نفسه فى مسكن صغير بسيط ومكون من صالة متوسطة الاتساع ، فى صدرها باب يؤدى إلى غرفة النوم ، ولم يكن الفتى فى حاجة إلى أن يعرف أن الممر القائم فى الطرف الايمن يؤدى إلى المطبخ والحمام !

ظل الفتى فى مكانه لايبرحه وهو ينظر الى محسن فى حيرة ، وضع هذا لفافة الطعام فوق مائدة صغيرة تتوسط أربعة مقاعد ، كانت تبدو مستعملة لكنها فى حالة جيدة . . . وقف كل منهما قبالة الآخر لثوان ، هتف الفتى بعدها محتجا :

« رجعنى السجن يابيه ! »

ابتسم محسن وهو يشعل سيجارة ويلقى بجسده فوق أحد المقاعد دون رد ، فعاد رأفت يصيح فى احتجاج صارخ :

« على الأقل أنا فى السجن بابقى عارف أنا فين . . . لكن هنا . . . . »

قاطعه محسن فى رقة :

« ما أنا قلت لك أنك فى بيتك »

« بيتى منين بس ؟ ! »

صمت الفتى فى انتظار رد ، لكن الرد الوحيد الذى جاءه كان الصمت !

« وازاى . . . إزاى ده يبقى بيتى ؟ ! »

وتلقى الصمت جوابا ، فاسترسل :

«من فضلك ياسعادة البيه فهمنى أنا حاتجنن ! »

فى نغمة معينة قال محسن :

« مش هنا أحسن ؟ »

أدرك الفتى مايرمى اليه محسن فصاح مواصلا الاحتجاج :

«أحسن لو كنت اعرف إيه الحكاية بالضبط ! »

«ولع لك سيجارة ! »

اشعل الفتى سيجارة وهو يدمدم مغاضبا ، نفث الدخان فى

عصبية ، ثم عاد الى التساؤل :

« طب على الأقل أعرف ليه كل ده ؟ »

« أنت قلت للانجليز فى ليبيا ان اسمك ايه ؟ ! »

«ليفى كوهين ! »

«خلاص . . . خلى اسمك ليفى كوهين على طول ! ! »

فى فزع صاح الفتى :

« ايه الحكاية دى بقى ؟ ! »

نهض محسن من مكانه بعد ان انتهى من تدخين سيجارته قائلا :

« فى أوضة النوم حاتلاقى بدلة ، هى مش جديدة صحيح انما احسن من اللى انت لابسها ! »

« أنا مش عاوز بدل . . . أنا عاوز اعرف إيه الحكاية دى ؟ ! »

«وحاتلاقى كام قميص وكام شراب وكام غيار وكام منديل وكرافته واحدة ! »

« يابية فهمنى من فضلك ! »

أخرج محسن عشرة جنيهات ألقى بها فوق المائدة بجوار لفافة الطعام :

« ودول عشرة جنيه علشان تشترى سجاير وتحلق وتدخل سينما ! »

« الله أكبر ! »

قالها الفتى بنغمة أضحكت محسن بالرغم منه !

« أنا عاوزك النهاردة تاخد دش وتستريح وتتفسح وتعمل كل اللى نفسك فيه . . . وبكره إن شاء الله ، الساعة عشرة بالضبط ، أنا جاى لك . ! »

لم يجد الفتى مايقوله ، ثم إنه لم يجد بدا من الاستسلام . . . وقف ذاهلا وهو يتبع محسن الذى كان يخطو نحو الباب ، لكن هذا ، وقبل أن يصل الى الباب ، التفت اليه ، وبنغمة شديدة التأثير قال :

« أظن مش صعب عليك انك تقول هنا اللى قلته للانجليز ف ليبيا ! »

تقدم منه الفتى مندفعا :

« طب ليه ؟ ! »

« كل الناس ، من النهاردة ، لازم تعرف ان اسمك ليڤى كوهين ، وانك يهودى ، وكنت هربان من مصر والانجليز هم اللى رجعوك تانى ! ! »

لم يستطع الفتى إلا الصمت أمام هذا المنطق الغريب الذى بدا له وكأنه فوهة بئر بلا قرار ، كان محسن ، وهو يلقى اليه بحديثه ، يبدو صلبا ، يتحدث عما سيكون وكأنه سوف ينفذ دون مناقشة ، فتح محسن الباب وهم بمغادرة المكان عندما صاح فيه الفتى :

« ياسعادة البيه ! »

التفت إليه محسن فاذا هو يحمل لفافة الشواء اليه :

« سعادتك نسيت دى ! ! »

« ده غداك ياخواجه ليڤى . . تلقاك ماكلتش بقى لك كام يوم ! »

قال محسن هذا ، ثم استدار واختفى دون كلمة !

. . . .

. . . .

لايدرى أحد كيف كان الفتى يفكر فى تلك اللحظات فهو لم

يتحدث عنها كثيرا فيما بعد ، غير أنه ظل ساكنا جامدا لثوان طالت بعض الشىء ، حتى إذا حانت منه نظرة نحو لفافة الطعام ، كانت ست وثلاثون ساعة قد انقضت منذ أن ذاق الطعام لآخر مرة . . . أزاح الجنيهات العشرة جانبا ، وفتح اللفافة ، وانهال على الشواء يلتهمه !

قبل غروب الشمس بقليل ، كان « رأفت على سليمان الهجان » يغادر باب العمارة المطلة على شارع سليمان باشا وهو يبدو إنسانا آخر . . . كان حليق الذقن ومصفف الشعر ، نظيف الملابس ، ثابت الخطى . . . فكما وجد الملابس فى غرفة النوم ، وجد الحمام مجهزا بكل مايحتاج اليه شاب أعزب . . . وكان بواب العمارة جالسا على دكته التقليدية لحظة مرور رأفت به فالقى عليه التحية :

«مساء الخير ! »

هب الرجل واقفا وهو يصيح :

« مساء الخير ياخواجه ليڤى ! »

وهكذا أدرك رأفت على سليمان الهجان ، باحساس شديد الغموض ، أن عليه أن يودع اسمه منذ تلك الليلة لا إلى حين ، ولكن ربما إلى الابد ، وانه قد قدر عليه ان يعيش لسنوات قادمة لايعرف عددها إلا الله ، كيهودى اسمه ليڤى كوهين . . . راح يسير فى الميدان المتلألىء بالأضواء والمزدحم بالناس ، وكان عليه أن يتلبس شخصية اليهودى . . . ولقد ابتسم فى استخفاف ، فلم تكن هذه هى المرة الاولى التى يفعل فيها هذا ! ! !

دقت الساعة العاشرة فى صباح اليوم التالى عندما دق باب المسكن الذى يقطنه رأفت الهجان ، أو ليڤى كوهين .. . كان محسن ، وهو الواقف بالباب الآن ، قد أدرك منذ الصباح المبكر أن خطته قد حظيت بنجاح لابأس به ، فلقد تلقى تقريرا فى الثامنة صباحاً عن كل مافعله رأفت طوال ليلة الأمس . . . علم أنه اشترى صندوقين للسجائر من صنف غال وفاخر ، ثم ارتاد إحدى دور السينما التى تعرض فيلما أجنبيا ، وعندما غادر السينما توجه الى مطعم قريب اشتهر بوجباته السريعة ، ثم شرب زجاجة مياه غازية ... وعاد الى البيت فلم يبرحه . . . ولكن هذا لم يكن مهما بالنسبة لمحسن ، كان الأهم لديه ، أن الفتى عندما فتح له الباب ، بدت ملامحه وقد عادت الى استقرارها ، كان قد نام ليلته نوما عميقا فالتمعت نظراته منبئة عن نشاط غير عادى ، اما ابتسامته التى استقبل بها محسن ، فلقد كانت تعلن عن أنه فكر طويلا ، وأن رأيه قد استقر ، وانه موافق على كل مايريده محسن ، حتى ولو كان مجهولا !

« شوف ياليڤى . . . . »

قاطعه الفتى :

« ليڤى ده ايه ؟ ! »

استمر محسن وكأنه لم يسمعه :

« شوف . . . أنا عاوز منك حاجتين ! »

« ايه همَ ؟ ! »

« الحاجة الأولانية انك تطمئن تمام ! »

« يابية اذا كنت عاوز تعرف حاجة عن اليهود أنا مستعد . . . . »

« ليڤى ! »

هكذا زمجر محسن منذرا ، فهتف الفتى :

« ليڤى تانى ! »

« ماهى دى الحاجة التانية اللى أنا عاوزها منك ! »

« إيه هى ؟ ! »

« انك تنسى حكاية رأفت الهجان

«إنك تنسى حكاية رأفت الهجان دى نهائى ! »

« بس أنا اسمى الحقيقى رأفت الهجان يافندم ، احلف لك بـ . . . . . . »

قاطعه محسن :

« طب مانا عارف ! »

فغر الفتى فمه دهشة ، سأله متوجسا :

« عارف ؟ ! »

« أيوه عارف ! »

« يعنى أنت مصدقنى ؟! »

« طبعا ! »

ولا ينسى محسن ممتاز منظر الفتى فى تلك اللحظات ، فلقد اجتاحت ملامحه ابتسامة راضية . . . ألقى بنفسه الى الخلف واشعل سيجارة وظل ساكنا لثوان قال بعدها :

« بالشكل ده حتلقانى تحت أمرك فى أيها حاجة تعوزها ! »

هم محسن بالحديث عندما أردف الفتى :

« بشرط ! »

« ايه هو؟ ! »

« إنك فى يــوم من الايام تقول لى أيه الحكاية دى بالضبط

لم يرد محسن ، فقط ، بادل الفتى الابتسام ، فقال هذا :

« ودلوقت ، إيه اللى سعادتك عاوزه منى ؟ ! »

« عاوز اعرف حكايتك من أولها ! »

نظر إليه الفتى وقد انداحت فوق الملامح سحابة من حزن عميق ودفين ، أدرك أن عليه أن يستسلم لهذا الرجل الذى لايعرف حتى الآن اسمه ، ولامن هو ، بل لقد ادرك انه يريد الاستسلام ويرغب فيه !

« حاتصدقنى ؟ ! »

« حاصدقك ! ! »

« أنا اسمى رأفت على سليمان الهجان ، أبويا الله يرحمه هو الاستاذ على سليمان الهجان ناظر مدرسة النجاح الثانوية للبنين . . . اخواتى أربعة ، ثلاثة اكبر منى هم : عادل وسليم ومحمود ، وشريفة هى الوحيدة التى أصغر منى ، دى آخر العنقود . . . .

هكذا بدا الفتى يحكى قصته !

•••

نحن لانملك أمام بعض الوقائع التى سردها ذلك الفتى على ضابط المخابرات المصرى « محسن ممتاز » ـ وكما نقلت عنه حرفيا إلا لأن نأخذها على علاتها وكما ذكرها رأفت الهجان أو ليفى كوهين ، دون أن ندعى الوصول إلى يقين كامل بصحتها . . . لالشىء ، لا لأن مايزيد على الثلاثين عاما قد انقضت منذ أن وقعت تلك الأحداث وحتى يومنا هذا ، وتفرق ابطالها أو رحلوا ـ فى الغالب ـ عن

عالمنا . . . أما محسن ممتاز ـ الذى يشغل الآن وظيفة عادية من وظائف الحكومة المصرية فلقد رفض الحديث رفضا قاطعاً . . . مرة بحجة أنه من الصعب أن يتذكر التفاصيل بعد كل هذه السنين ، ومرة بحجة أن هذا كلام لالزوم له مادام الفتى قد قام بواجبه تجاه وطنه . . . غير أنه بلغنا من مصدر ثقة أكيدة ، أن الموضوع عندما فتح ذات ليلة ـ وفى جلسة خاصة ـ أمام محسن ممتاز ، قال إن ضابط المخابرات يحمل كما « هائلا » من الأسرار بل والمعارف أيضا ، وعلى ذلك ، فيجب عليه ألا يتحدث ، ففى الحديث نوع من المباهاه بما بذله من أجل وطنه ، وهو بذل يقدمه الرجال دون انتظار لمقابل ، حتى ولو كان المقابل كلمات تتحدث عن جهد بذله . . . ولم تفلح معه كل الحجج التى سيقت إليه ، ولم يقنعه ان « التاريخ المصرى الحديث » فى حاجة إلى أن تحفظ ذاكرته هذه التفاصيل للأجيال القادمة ، خاصة بعد تلك الحملة الضارية والشرسة التى تحاول تزييفه . . . و . . . و . . . ولكنه أصر على موقفه !

وعلى ذلك ، فان التأكد من صدق هذه الأحداث أو كذبها ، بشكل قاطع ويقينى ، يصبح أمرا بالغ الصعوبة ، إن لم يكن مستحيلا ! !

غير أن الذى يجعلنا نركن الى ماقيل ونصدقه ، أن حديث الفتى وإن كان يقبل التأويل ، فانه ـ دون شك ـ يقبل التحليل أيضا . . . ثم ، وحتى بعيدا عن التحليل ، فلقد أثبتت التجربة ـ بطول عشرين عاماً كاملة ـ أن تلك الأحداث التى ذكرها الفتى صادقة بشكل عام ، بل إن بعضاً منها نزعت عنه الأيام رداء الغموض فأصبح واضحاً أشد مايكون الوضوح ، وأثبتت صدقه . . . وعلى ذلك ، فليس منطقيا أن نصدق جزءا ، ونكذب الآخر !

وإذا كنا لانلقى هذاالكلام لمجرد الثرثرة . . . فإن قصة حياة هذا الفتى ـ الذى التقى به واحد من ضباط المخابرات المصرية ذات ليلة وهو بلا اسم ولادين ولاجنسية ـ تبدو مثيرة وغريبة غرابة تدعو بالفعل إلى الشك . . . ولأن قصة حياته ليست من قبيل التزيد الأدبى ، أو حتى الاحاطة بالشخصية الرئيسية التى تلعب دور البطولة فى هذه الملحمة الوطنية ، فان هذه « المعرفة » سوف تكوّن « الاحساس » الذى سيبنى محسن ممتاز حكمه بناء عليه ، فيما اذا كان هذا الفتى الجامح يصلح لأن يحمل تلك الأمانة الثقيلة التى كان عليه ، لو سارت الأمور على مايرام ، أن يحملها لسنوات لايدرى أحد عددها ، ولحقبة قادمة كانت بشائرها تبدو فى الافق مزغرده بالأمل فى وطن عظيم !

. . . .

. . . .

دون شك كان رأفت مدللاً ـ هكذا قال لمحسن وهو يحكى قصة حياته فى ذلك المسكن الصغير فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا ـ لكنه لم يكن فاسداً . . . وربما كان للأب بعض العذر فى تدليله هو وشريفة ، فلقد توفيت أمه وهو لايزال فى الخامسة وكانت شريفة فى الثالثة . . . وهكذا تولى إخوته تربيته بعد وفاة أبيه الذى رحل عن عالمنا عندما حصل رأفت على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ـ وهى شهادة كانت ذات قيمة ووزن فى تلك الأيام ـ وكان هو فى الثانية عشرة من عمره . عندما اجتمع الأخوة وقرروا أنهم لايستطيعون إلحاق الصبى باحدى المدارس الثانوية التى تؤهله لدخول الجامعة ، وأنه لامفر من إلحاقه باحدى المدارس المتوسطة . . . وبالرغم من أن هذا كان يشكل نوعاً من العار فى تلك السنوات ، الا أن الفتى لم يستطع

الاعتراض وان كان قد أحس بالمرارة ، فابوه كان ناظر مدرسة ثانوية ، وأخوته الثلاثة جميعا تعلموا فى المدارس الثانوية والتحقوا بالجامعة ، وأصغرهم فى الطريق اليها . . . وعلى كل حال ، فلقد اختاروا له مدرسة « التجارة المتوسطة » ـ كان هذا اسمها ـ التى كانت تؤهل التلاميذ للعمل فى البنوك والشركات والاعمال الحسابية بفروعها المختلفة . . . وتفوق الفتى فى دراسته خاصة فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، وهما لغتان كانتا اساسيتين فى تلك المدارس نظراً لأن البنوك والشركات وقتها كانت فى الغالب أجنبية وتستعمل فى تعاملاتها احدى هاتين اللغتين . . . وانتقل الفتى من السنة الأولى الى الثانية الى الثالثة الى الرابعة وهى السنة النهائية دون أن يعرف ـ كعادته من قبل ـ معنى الرسوب ، لم يكن أمامه سوى بضعة شهور ويحصل على الدبلوم الذى يؤهله للالتحاق باحدى الوظائف . . . وكان فى السادسة عشرة من عمره عندما تزوج أخوه وجاء بعروسه كى تعيش معهم فى البيت . . . وبدأت الخلافات تدب بين رأفت وشقيقه لأوهى الأسباب ، وهى خلافات أثرت على الصبى تأثيراً شديدا ، لم يكن من السهل عليه أن يهان أمام عروس أخيه التى كانت تقاربه فى السن ، وجاءت اللطمة عندما رسب فى الامتحان النهائى ، كما رسب فى الملحق ، بدأت الخلافات تتفاقم حتى وصلت إلى ذروتها ، عندما رسب فى العام التالى أيضا . . ثم أصبحت حياته فى البيت لاتطاق فقرر ان « يطفش » قبل ان ينهى دراسته ، وأن يلقى بنفسه فى خضم الحياة !

وهكذا . . . لم يكن الفتى قد تخطى الثامنة عشرة من عمره ، عندما وجد نفسه فى الطريق فلم يحاول أحد من أخوته أن يمنعه ، وكان الآن ، بلا مأوى ، بلا عمل ، بلا عائلة ، وبلا ملجأ أو مال !

. . . . . .

راجت صناعة السينما فى مصر أثنا الحرب العالمية الثانية رواجاً شديداً ، جاء هذا مع إيجاد فرص عمل لعشرات الألوف من شباب مصر الذين نزحوا من كل مكان فى القطر المصرى ـ هكذا كان اسم مصر فى ذلك الوقت ! ! ـ كى يلتحقوا بالعمل فى معسكرات الجيش الانجليزى التى كانوا يطلقون عليها اسم « الاورنس » . . . وكان أنور وجدى وحسين صدقى ويحيى شاهين وبدر لاما ومحسن سرحان وفؤاد جعفر وصلاح نظمى وابراهيم حمودة والوجه الجديد محمد فوزى ، نماذج يتلهف المراهقون على تقليدها . . . ولم يكن أمام الفتى من طريق يسلكه سوى السينما ، خاصة انه لم يكن عاملا يتقن صنعة فيستطيع الالتحاق بالأورنس . . . ولم يكن صعبا أن يجد لنفسه عملا وسط السوف الكومبارس أو مساعدى الاخراج أو الريجستيرات أو المشهلاتية . . . وعلى كل ، فلقد راح يتلطم هنا وهناك ولم يكن يضنيه سوى شىء واحد . . . ليس هو الجوع الذى أصبح يعانى منه أغلب الأيام ، وليس هو الحرمان من المأوى وقد أصبح يلجأ إلى أحط الفنادق والغرف ، وإنما هو حرمانه من شقيقته التى كان يزورها بين الحين والحين ، وكلما ازداد تبرم زوجها من زياراته ازداد تعلقا بها وازدادت تعلقا به . . . ثم تعرف رأفت على فتاة من فتيات السينما كانت تكبره سنا وتكسب مبالغ لابأس بها من عملها فى الأفلام التى كانت تظهر فيها وسط الفتيات أو الراقصات . . . ووقعت الفتاة فى حبه وعرضت عليه الزواج . . . وكان قبوله لعرضها كفيلا بأن يحميه من العوز أو اللجوء إلى إخوته بين الحين والحين ، وعندما يعضه الجوع وتذله الحاجة طلبا للمساعدة ، فلا يلقى منهم سوى الازدراء والاحتقار والتقريع والصد ، ثم الابواب المغلقة فى وجهه . . . ولم ينكر رأفت على سليمان

الهجان أنه ساير فتاة السينما لأسابيع ، ثم تحولت مسايرته الى محاولة للارتباط بها دون جدوى ، ثمة نداء خفى فى أعماقه كان يؤكد له انه لاينتمى الى هذا الحضيض . . . ثم لم يستطع الاستمرار ، فهجر فتاة السينما كما هجر السينما نفسها يوم قرأ إعلانا فى احدى الصحف عن وظيفة خالية ، نشرته احدى شركات البترول الأجنبية ـ وكانت كل شركات البترول فى مصر ، وبلا استثناء ، أجنبيه فى ذلك الوقت ـ التى تعمل فى البحر الأحمر ، وكانت شروط الالتحاق بها صعبة ، بل كانت أمنية يتلهف الشباب على تحقيقها ، ذلك أن اغلب موظفى هذه الشركات كانوا من الاجانب أو اليهود الذى يتقن الواحد منهم عدة لغات فى طلاقة درب عليها منذ الصغر كما دربوا على احتلال مثل هذه الوظائف وطرد المصريين منها . . . وتقدم الفتى وسط عشرات من اقرانه ، وجاءت المفاجأة يوم أن اعلنت الشركة عن نجاحه فسافر الى البحر الاحمر ، وتسلم عمله هناك !

من الأسباب التى دعت رأفت الهجان الى السعى وراء هذه الوظيفة ، انه أصبح فى الأيام الاخيرة غير قادر على الا يرى شريفة بعد ان أصبحت معارضة زوجها لزيارته البيت صارخة ، لم يكن يستطيع أن يسبب لها أزمات عنيفة كلما زارها ، ولم يكن يستطيع فى نفس الوقت الا يزورها وهو قريب منها . . . وجاء عمله الجديد فى البحر الاحمر مخرجا له ، انغمس فى عمله انغماسا كاملا ، كانت تجربته فى حقل السينما قد أمدته بالكثير من الخبرة فى كيفية التعامل مع الأخرين . . . واذ اكتشف فائدة اللغتين الانجليزية والفرنسية فى عمله ، فهو لم يكتف بحصيلته منهما ، بل استجلب من القاهرة ، كما استعار من بعض موظفى الشركة ومهندسيها من الاجانب ، عددا لابأس به من الكتب

راح يلتهمها التهاما ، فلقد فتحت له هذه الكتب آفاقا عظيمة . . . وما ان مضت شهور قليلة حتى كان رأفت يشكل خطرا على الموظفين اليهود والاجانب والقلة القليلة من المصريين هناك . . . كان قد أصبح محل أعجاب رؤسائه . . . فما كان من زملائه إلا أن راحوا يدسون له ـ على مهل ـ يوما بعد يوم ، حتى فوجىء ذات صباح أنه منقول الى القاهرة !

وعاد رأفت الى القاهرة رغما عنه ، لم يكن يريد أن يعانى من جديد ، وكانت شريفة فى تلك الأثناء قد أنجبت طفلا اسمته « طارق » وقع رأفت فى حبه منذ النظرة الأولى ، وكلما رأى حاجة شقيقته الى رؤيته ازداد عذابه ، ولم يكن امامه سوى الهرب من جديد ، حاول العودة الى البحر الاحمر دون جدوى ، فما كان منه إلا أن قدم استقالته ، والتحق بعمل فى شركة بترول أخرى ـ وكان قد اكتسب خبرة لابأس بها ـ وسافر إلى البحر الأحمر دون أن تقبل استقالته من الشركة الأولى !

ومن جديد تلاحقه كفاءته وتفوقه وحب رؤسائه ، وراح يعانى من حرب ضروس شنها عليه أقرانه ، كان مجرد نجاح المصرى وسط جو كله أجنبى ، أمر بالغ الصعوبة . . . وعندما وشى به احدهم ذات يوم الى المدير ، عرف هذا أن استقالة رأفت لم تقبل فى الشركة الأخرى ، وحسب قانون عقد العمل فى ذلك الوقت ، وحسب الاتفاق المقام بين الشركات المتنافسة ، فلقد فصل من هذه الشركة وفقد كل حقوقه قبل الشركة الأولى . . . و . . . وعاد الى الضياع من جديد !

. . . .

. . . .

عادل مرقص سيدهم

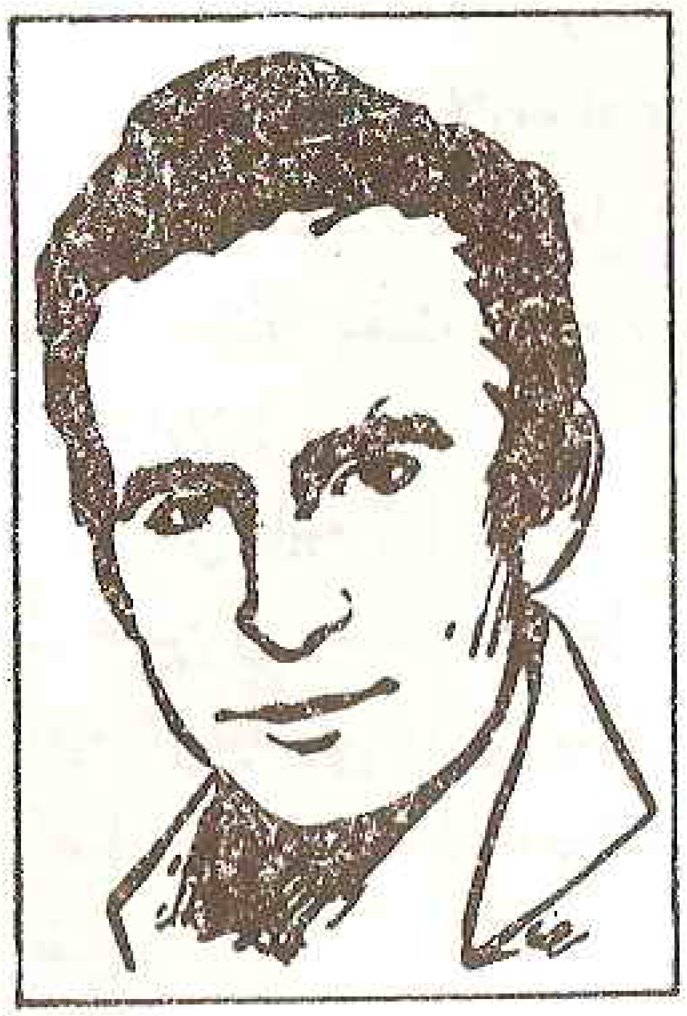

ليفى كوهين

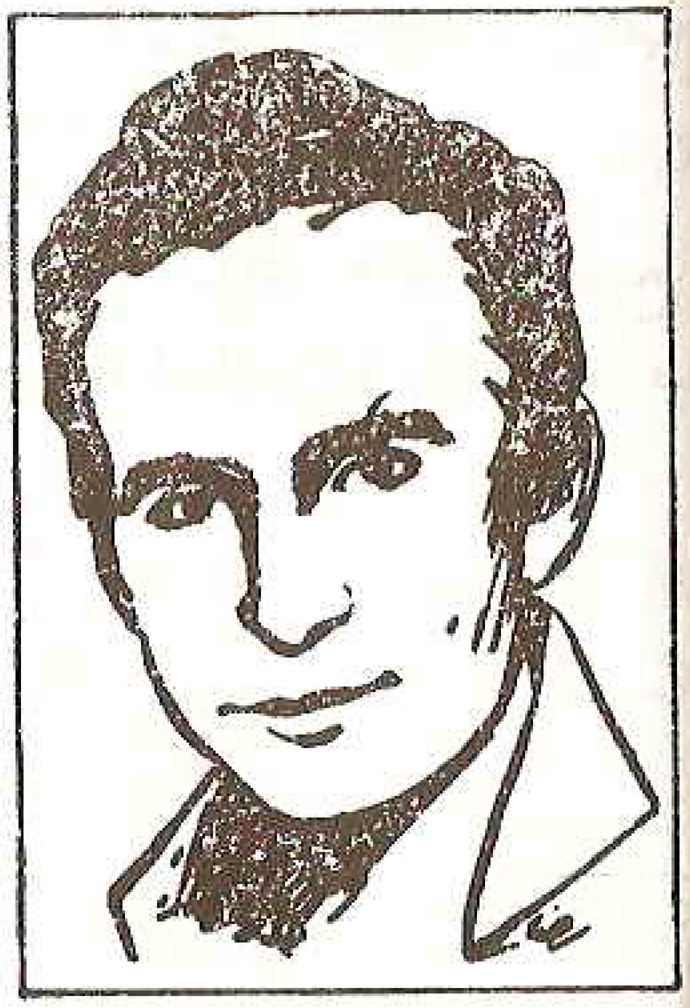

رافت الهجان

دانيل مارتان

توقف رأفت عن الحديث وراح ينظر الى محسن الذى كان ينصت اليه فى صمت وكأنه كله قد تحول الى آذان تصغى لقصة حياة هذا الفتى الذى لازمه سوء الحظ ملازمة تدعو الى الدهشة والشك معا . . . ولقد ظل محسن على صمته ، فأشعل الفتى سيجارة نفث دخانها فى صوت مسموع ، فكأنه ينفث من صدره حمما ، ومالبث أن رفع رأسه نحو محسن متسائلا :

« مصدقنى يابيه ؟ ! »

قال محسن فى حنان أنكره على نفسه :

« وايه اللى يخلينى ماصدقكش ؟ ! »

« أصل انا نفسى مش مصدق . . . كل ماأروح فى حته يطلع لى فيها عفريت ! »

عاد الفتى الى الصمت لثوان ثم انفجر :

« ليه . . واشمعنى أنا ؟ ! »

أحس محسن أنه يقاوم فى داخله انفجارا يوشك أن يبدده ، ذلك أنه مالبث أن هب واقفا وقد جحظت عيناه ، كان صوته مختنقا وهو يهتف :

« طب اروح فين . . . اروح فين ؟ ! »

لقد كان هذا هو السؤال الذى وجهه رأفت لنفسه عندما أصبح فى الشارع من جديد يستقبل الضياع ، ويستقبله الضياع ، كصديق طال الشوق اليه . . . فإلى أين ؟ !

الفصل السابع

تراجيديا النكبات

قالت السيدة سمحون فى اهتمام واضح ، إن مايحكيه عزيز الجبالى يبدو وكأنه إحدى التراجيديات الكلاسيكية وإنه يذكرها بتلك الروايات التى تجرى أحداثها فى القرن التاسع عشر . . . . فابتسم عزيز قائلا : إنه عندما سمع هذه القصة لأول مرة من محسن ممتاز ، بدت له وكأنها كوميديا مسرحية للفنان المصرى الراحل « نجيب الريحانى » !

« كوميديا ؟ ! »

هكذا هتفت فراو سمحون متسائلة ، فأجاب عزيز :

« نعم ياسيدتى . . . فيبدو أن الشعب المصرى ، لكثرة ماعانى على مدى قرون متصلة من المآسى ، لم يجد وسيلة لمواجهة مآسيه سوى السخرية منها ! ! »

ويبدو أنها لم تفهم ما الذى يعنيه ، فلقد رفعت حاجبيها دهشة ، فراح يحكى لها بعض المواقف التى جاءت فى مسرحيات الريحانى

وأفلامه ، وكيف أنها كانت تسخر من سوء الحظ إلى الحد الذى كان يجعل الناس تدمع من كثره الضحك ! . . . قال عزيز هذا ثم أردف وهو يزفر :

« وعلى كل فلم تكن هذه سوى البداية ! »

برقت عيناها الزرقاوان بتساؤل صارخ ، فعاد يقول :

« نعم فراو سمحون ، لم يكن هذا الذى تسمينه تراجيديا كلاسيكية سوى البداية ، فلقد راح سوء الحظ يطارد الفتى الى بريطانيا وأمريكا وكندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ثم المانيا . . . حتى دفعه مرة أخرى الى مصر ، كى تبدأ مرحلة جديدة فى حياة هذا الشاب الذى قدر له أن يلعب دورا حاسما فى حياة وطنه ! »

● ● ●

فصل رأفت الهجان من شركتى البترول بعد اكتشاف أمره ، ووجد نفسه يعود الى الضياع من جديد . . . فراح يتساءل : الى أين ؟ !

فى البداية بدت له الطرق مسدودة ، لم يكن أمامه سوى طريق واحد ، لكنه رفض العودة الى قاع السينما المصرية حيث كان ألوف المتعطلين يقفون فى انتظار إشارة لأى عمل وأية حياة وأى شىء فى سبيل لقمة العيش . . . غير أنه فى غمرة يأسه ، تذكر « ذكرى بك »

كان ذكرى بك مختار مديرا لشركة مصرية شهيرة ـ ومازالت حتى اليوم ـ للكيماويات ، وكان الرجل فى زيارة عمل للبحر الأحمر ذات يوم عندما التقى برأفت الهجان هناك ، ولاحظ تفوقه واجادته للغات الأجنبيه واستمع الى رأى رؤسائه فيه ، فطلب إليه ـ فى مجاملة سريعة ـ أن يزوره فى الاسكندرية ـ حيث مقر الشركة الرئيسى ـ إذا ما احتاج

إلى شىء .

وسافر الفتى إلى الاسكندرية ، والتقى بذكرى بك فرحب به الرجل ، واستمع الى ماحدث وسرعان ما أوجد له عملا فى الشركة الكبرى التى يريدها .

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت منذ عامين تقريبا عندما أحس رأفت على سليمان الهجان لأول مرة ـ منذ وفاة أبيه ـ انه استقر أخيرا بعد طول ضياع ، ومع الرعاية التى أسبغها عليه ذكرى بك مختار ، راح يبذل قصارى جهده فى العمل الذى أسند اليه ، وأصبح بعد شهور قليلة مصدر فخر للرجل الذى عينه فى الشركة والذى أصبح يعامله كما يعامل ولده تماما . . . ومع الأيام عرف ذكرى بك قصة رأفت بالكامل،فتح له الفتى قلبه وبادله حبا بحب . . . واكتشف الرجل أنه يمت بصلة نسب بعيدة لأسرة الهجان ، ولأنه كان يفكر فى هدف معين فلقد أدرك ـ خاصة بعد زيارة عائلية قامت بها إحدى قريباته لشريفة أخت رأفت ، دون أن تذكر لها شيئا عن أخيها ـ أن الفتى حرم من حنان الأبوين واحدا وراء الأخر ، وأنه غانى ـ حقيقة ـ من معاملة اخوته . . . فراح يسبغ على رأفت حنانا جعل الفتى يتفانى فى عمله أكثر . . . ووصل الأمر الى الحد الذى ألمح فيه ذكرى بك ذات مرة أنه يفضل لابنته الوحيدة عريسا فى مثل كفاءة رأفت ومواهبه ومستقبله الذى أصبح الآن يبشر بنجاح أكيد . . . ثم دعاه إلى العشاء فى بيته وقدمه لأسرته الصغيرة التى رحبت بالفتى ترحيبا أعاد اليه ثقته بنفسه ، ففكر فى اكمال دراسته ، بل إنه بالفعل ـ وكان هذا فى عام ١٩٤٩ ـ بدأ الاستعداد لدخول الجامعة بدراسة مقررات أربع سنوات مرة واحدة فى التعليم الثانوى ـ وكان هذا نظاما معمولا به فى تلك الأيام ـ لنيل شهادة

الثقافة ، ثم بعدها التوجيهية ـ ثانوية عامة ـ تمهيدا لدخوله الجامعة التى كانت حلم احلامه جميعا !

كان رأفت قد أصبح واحدا من شباب الشركة المرموقين عندما أرسله ذكرى بك فى مأمورية سرية الى فرع الشركة فى القاهرة ، والذى كان يديره موظف قديم يدعى « باسيلى جبران » . . . وكان باسيلى جبران هذا ذا ناب أزرق كما يقولون ، كان يتلاعب فى حسابات الشركة دون أن يستطيع أحد أن يمسك عليه شيئا ، وكانت مهمة رأفت السرية هى الكشف عن هذا التلاعب !

فى تلك الأيام عاد رأفت لزيارة أسرته وقد أصبح الآن موظفا محترما فى شركة محترمة لها سمعتها المدوية . . . وكانت شقيقته شريفة سعيدة به سعادة تفوق الوصف وهو يحمل الهدايا إلى صغيرها طارق الذى تعلق بخاله كما تعلق خاله به . . . ولقدأثار رأفت الكثير من الجدل داخل الأسرة التى انقسمت على نفسها . . . قسم تزعمته شريفة التى استبشرت خيرا خاصة بعد أن زاره فى الشركة واحد من اخوته ولاحظ المكانة المرموقة التى وصل اليها أخوه ، والتى كان باسيلى جبران يبالغ فيها لغرض فى نفسه . . . وقسم آخر كان يسخر من كل مايحدث ، مؤكدا أن « ذيل الكلب لايستقيم » وهو مثل شعبى مصرى يوحى بأن رأفت سوف يعود سيرته الأولى ان آجلا أو عاجلا . . . ولابد أن تلك الأيام من عام ١٩٤٩ ، كانت أسعد أيام هذا الفتى على الاطلاق .
كان سعيدا الى الحد الذى لم ينتبه فيه إلى الاعيب « باسيلى جبران » الذى كان سهلا عليه أن يكتشف حقيقة مهمته منذ الأيام الأولى ، فدبر له فخا سقط فيه الفتى بسهولة ، واذا به ذات صباح متهم

باختلاس مبلغ من المال كان فى خزانة الشركة !

كانت الصدمة عنيفة على الفتى لدرجة أنه سقط صريع المرض ولزم فراشه فى البنسيون الذى كان يقيم فيه . . . ووصل الخبر الى ذكرى بك الذى رفض أن يصدقه ، وإن كانت الأدلة دامغه ، ولابد أن حال الفتى وصلت الى درجة من السوء جعلت قلب « باسيلى جبران » يرق له ، فتظاهر بأنه وجد المبلغ بالكامل فى غرفة الفتى بالبنسيون . . . وهكذا أعيد المبلغ الى خزينة الشركة واكتفت الشركة بفصله دون إبلاغ النيابة !

. . . .

. . . .

سأل رأفت الهجان محسن ممتاز بصوت مغموس فى دمع خفى :
« مصدقنى يابيه ؟ ! »
هتف محسن فى حرارة :
« مصدقك ياليثى ! »
« تصور سعادتك ان اخواتى لما حصل اللى حصل ، كذبونى وصدقوا باسيلى ؟ ! ! »
اختنق صوت رأفت بالدمع الذى كان يفيض تحت جفنيه ، فأشعل سيجارة فى محاولة للسيطرة على انفعالاته ، ولزم محسن الصمت تماما ، حتى اذا انقضى بعض الوقت عاد يقول :
« محدش صدقنى غير شريفة وذكرى بك ! »
اعتدل محسن فى جلسته منتبها ، فاستطرد الفتى :
« ذكرى بك قال لى بالحرف الواحد : أنا مصدقك يارأفت وعارف إنك برىء وإن الغلطة مش غلطتك ، دى غلطتى أنا لانك مش قد

باسيلى جبران . . . لكن ما باليد حيلة ، ماأقدرش أرجعك الشركة تانى بعد كل اللى حصل !! »

ران الصمت طويلا وكان رأفت مطرقا فسأله محسن :

« وبعدين ؟ ! »

« ولاقبلين ، حلفت مانا قاعد فى مصر ! »

« سافرت ؟ !»

« ذكرى بك هو اللى اتوسط لى بنفسه فى شركة الملاحة بتاعة عبود باشا ، وعينونى مساعد ادارى على مركب اسمها « لوتس » سافرت عليها بعد اتناشر يوم ! »

شعر محسن أن ثمة إضافة فريدة ستضاف الى تجربة هذا الفتى . . هم بسؤاله عن البلاد التى زارها لكنه توقف ، كانت ملامح الفتى تتقلص الآن تقلصا رهيبا ، بدا وكأنه يعانى من انفعلات لاقبل له بها ، مال نحوه مناديا فى رقة :

« ليڤى ! »

فاذا الفتى ينفجرفيه :

« ماهو أنا لو حكيت لك الى حصل لى بره مش حاتصدق ! »

●●●

كانت آخر الموانىء التى توقفت فيها السفينة المصرية « لوتس » هى ميناء ليڤربول فى غرب انجلترا . . . وكان رأفت طوال أيام السفر يبدو منطويا على نفسه ، لم يفلح معه الحاح زملائه لمشاركتهم لهوهم على ظهر السفينة أو فى الموانىء التى توقفت فيها اثناء الطريق . . . كانت الصدمة التى سببها له باسلى جبران من العنف بحيث جعلته زاهدا فى الحياة راغبا عن العودة الى مصر . . . ولطالما جلس الفتى - فى أوقات

فراغه - على ظهر السفينة يرقب سطح المياه ويتأمل الكون اللانهائى المحيط به ! ويتساءل عن الأسباب التى من أجلها حدث له كل هذا الذى حدث . . . بدت له الدنيا سخيفة ، والحياة أكثر منها سخفا .. حاول أن يجد لنفسه برا يرسو عليه ، لكن الطريق الوحيد الذى ارتأه أمامه ، كان مواصلة الهرب !

ولقد قال لمحسن فى جلسته تلك بذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى عمارت وسط القاهرة العريقة . . . إنه عندما قرر عدم العودة الى مصر ، كان مؤمنا أنه لايريد العودة الى الماضى لا إلى مصر نفسها ، كان يريد العودة الى شريفة وطارق وذكرى بك وأسرته ولكنه لم يكن بريد العودة الى إخوته الذين ظلموه دونما ذنب جناه ، وباسيلى جبران الذى كاد يلقى به فى السجن وإلى زملائه الذين تسببوا فى فصله مرتين !!

فى نفس اليوم الذى رست فيه السفينة « لوتس » فى ليڤربول تعرّف على « كاى وولف » فى أحد محلات الرقص التى كانت منتشرة أثناء الحرب العالمية الثانية للترفيه عن الجنود ، ثم أصبحت فى السنوات التالية سمة من سمات المجتمع البريطانى ... ضغط عليه زملاؤه وجروه جرا الى هذا المحل المزدحَم لكنهم ما إن دخلوه حتى غاصوا وسط الراقصين والراقصات وظل هو - رغم اتقانه لكل الرقصات المعروفة - بعيدا . . . والتقت عيناه بعينيها ذات لحظة وكان وحيدا ، كما كانت هى الأخرى وحيدة . . . وعلى غير العادة وجدها تتقدم منه سائلة إياه إن كان ينتظر أحدا فلما أجابها بالنفى سألته إن كان يمانع فى مراقصتها !!

وهكذا التقيا ، ولم يفترقا الا عند مغادرته لانجلترا !!!!

. . . .

. . . .

كانت « كاى وولف » فتاة انجليزية تخطت العشرين ببضعة أشهر ، أبوها رجل من رجال الميناء من ذوى السمعة الطيبة ، والمكانة المرموقة التى أضفاها عليه تدينه الشديد ، وبعده عن الدنايا . . . ولايدرى رأفت ما الذى اكتشفته كاى فى شخصه ، كل مايدريه أنها تعلقت به فى أيام معدودة الى حد كان يصعب عليها بعده أن تفارقه . . . مكثت السفينة لوتس فى ليڤربول بضعة أسابيع لاجراء إصلاحات ضرورية تمهيدا لرحلة طويلة الى بومباى بالهند . . . فى تلك الأسابيع وجد رأفت فى صديقته فرصته المواتية . . . هو لم يحبها رغم جمالها ورقتها وأدبها الشديد وتفانيها فى تلبية كل مايطلب ومايريد ، ولقد حاول أن يبادلها تلك العواطف التى أغرقته بها دون جدوى ، طلبت إليه « كاى » أن يبقى فى انجليزا ، وبالرغم من أن المجتمع البريطانى كان يعانى فى تلك الحقبة من تاريخه من أزمات اقتصادية طاحنة بعد خروجه من الحرب التى دامت ست سنوات ، وبالرغم من أن منحة تأشيرة تسمح له بالاقامة كان يبدو مستحيلا ، فإنه ـ مع الحاح « كاى وولف » ـ راح يفكر فى الموضوع جديا ، كما راح يخطط له ... حتى اذا تقرر موعد إبحار السفينة أصيب الفتى ذات ليلة بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية استلزم نقله فورا الى المستشفى وإجراء جراحة عاجلة له ، هكذا أبحرت السفينة بدونه وبقى هو فى المستشفى لعشرة أيام ثم غادرها الى بيت المستر « ادوارد وولف » والد كاى ! !

قال مستر « وولف » للفتى فى ذلك المساء الأول وقد اجتمعت العائلة أمام المدفأة انه مسيحى ، وهو سعيد لأن ابنته اخيرا وقعت فى الحب واختارت فتاها لكنه سيكون أكثر سعادة لو ان الفتى اعتنق المسيحية !!!!

قال رأفت لمحسن ممتاز وهو يصف تلك اللحظات إنه كان يشعر بأن الأرض تميد من تحت قدميه ، فلقد وضع فى اعتباره كل الاحتمالات الممكنة وكل الظنون المحتملة ، واستعد لكل شىء وأى شىء الامفاجأة كتلك التى جاءته كضربة فوق الرأس . . . وهو ليلتها لم يجد مايقوله فلزم الصمت ، وعندما طال صمته أشعل الرجل غليونه مخاطباً الفتى :

«ليس مطلوبا منك أن تتخذ قرارك الآن فأنا أعرف أن شىء صعب ولكن . . . وقبل أن تفكر فى الأمر ، عليك أن تلتقى بالأب جوشام راعى كنيستنا وأن تجلس اليه ! »

ووافق رأفت حتى يعطى نفسه فرصة للتفكير فى المأزق الذى وجد نفسه فيه على غير انتظار . كان الآن بلا مأوى ولا مال ولاعمل وفى بلاد غريبة . . . وكان المال الذى يحصل عليه من مكتب وكيل الشرطة لايكاد يكفيه ثمن الطعام . . . لكنه عندما انفرد بكاى قال لها فى وضوح : ان الأمر ليس بالسهولة التى يتخيلونها ، فهو ـ كمسلم ـ إن لم يعترف بأن السيد المسيح رسول من عند الله ، فلسوف يصبح إسلامه ناقصا . . . شرط الاسلام بعد الشهادة ، أن يعترف المسلم بالانبياء والرسل الذين سبقوا محمدا عليه السلام . . . ولكن أن يترك دينا اقتنع به الى دين آخر ، فهذا هو المستحيل نفسه ، وعليها أن تفهم ذلك !

قالت كاى وولف إن الأمر لايعنيها ولايهمها ، بل إنها تفضل أن يظل رأفت على دينه ! . . . فلقد أحبته كما هو ، وهى على استعداد للزواج منه وكل منهما على دينه . . . لكن المشكلة تكمن فى أن «الأب جوشام » هذا ، هو الشخص الوحيد فى ليڤربول الذى

يستطيع أن يجد له عملا وأن ينهى مشكلة إقامته فى انجلترا ، بل وأن يحصل له على الجنسية إن أراد !!

وقالت كاى وولف أيضا : إن أباها ـ قبل أن يتحدث اليه ـ ناقش معها المسألة من هذا المنطلق وليس من منطلق آخر ، وأن على رأفت أن يفهم هذا حتى لايظلم أباها !

وازدادت حيرة الفتى وازداد حرجه فلقد كان يقيم فى غرفة نائية من بيت مستر وولف ، وكان يعامل كواحد من أفراد الأسرة . . . هاهى عقبة صعبة تقف فى طريق انطلاقه وحريته . . . ولقد طال بقاؤه فى ليفربول لشهور ، والتقى بالأب جوشام مرات ومرات وتحول الأمر بينهما الى مناظرة . . . واكتشف الفتى أنه يعرف عن دينه الكثير دون أن ينتبه إلى ذلك ، وأنه مقتنع به اقتناعا يفوق قدرته على استمرار المناقشة . . . كان وكأنه يختزن فى قلبه كل هذا الايمان العميق ، الذى دفعه بمجرد عودة السفينة لوتس من الهند الى الصعود اليها بعد أن ودع مستر وولف وزوجته وشكرهما على كل ماقدماه من رعاية وحنان طوال الشهور الماضية ، كما ودع الأب جوشام وداعبه قائلا : ان عليه أن يفكر جديا فى اعتناق الإسلام . . . وعندما حانت لحظة الرحيل بكت « كاى » ، بكت وهى تقول انها سوف تظل فى انتظاره ، وانها مؤمنة من انه سيعود يوما !

. . . .

. . . .

ياللحنين عندما يتفجر من القلب طوفانا بلا نهاية ، هاهى دى أرض مصر تلوح فى الأفق بعد طول غياب ، يرقب البحارة الذين تجمعوا فوق السطح عندما غدت الأرض ظاهرة وهم يطبلون ويزمرون ويغنون للشوق واللهفة والحب والحنين والحبيب العائد ، يفتحون

الراديو على أغنيات مصر التى طال الشوق اليها ، فلم تكن اذاعة مصر تصل إلى أبعد من الشاطىء ببضعة كيلو مترات ، كما يفتحون القلوب على مصاريعها لاستقبال نسائم الأرض الحبيبة . . . وعلى السطح وحيدا بعيدا كان رأفت يبكى بدموع غزيرة ، هاهو ذا يعود الى مصر مسلما كما كان مؤمنا وموحدا بالله ، وعندما وطئت قدماه أرض الوطن ، كان كل ماقاله :

« اشهد أن لا إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ! »

كان عليه قبل أن يستقل القطار الى القاهرة ، أن يذهب الى مكاتب الشركة . . . وهناك وجد له بقية من حساب ، بضع عشرات من الجنيهات ومعها أمر بفصله من الشركة دون إبداء الأسباب !!

. . . .

. . . .

كان رأفت وهو يغادر مقر الشركة يحمل فى يمناه حقيبة امتلأت بالهدايا ، هدية لذكرى بك ، وأخرى لزوجته ، وثالثة لابنته . . . كما كانت الحقيبة مكدسة بالهدايا لطارق ابن شريفة . . . كم أشتاق اليه ، وكم يهفو لأن يرى شريفة . . . وهاهو يضرب فى الاسكندرية على غير هدى ، لمن يذهب فى القاهرة وقد عاد عاطلا من جديد ؟ . . . ساقته قدماه إلى طريق الكورنيش ظل يسير ويسير بلا هدف ، ثم التمع فى ذهنه خاطر تشبث به ، إن الحياة تحاربه فلم لايحارب هذه الحياة !

وهكذا طوح رأفت على سليمان الهجان حقيبته المليئة بالهدايا إلى البحر . . . تخلص حتى من أحبابه وعاد أدراجه الى الميناء وكان الآن يعرف طريقه جيدا !!

●●●

بعد سبعة أيام بالضبط قضاها رأفت الهجان فى واحد من أحط فنادق الثغر دون أن يفكر فى الاتصال بأى ممن يعرفهم ، كان يقف على ظهر سفينة فرنسية مبحرة الى مرسيليا . . . على ظهر السفينة التقى بمجموعة من الشباب المصريين الذين كانوا فى طريقهم للدراسة فى الخارج . . . ولم يعدم حيلة ـ وهو فوق السفينة راكبا من ركابها فى الدرجة الثالثة ـ لأن يكسب عددا لابأس به من الفرنكات الفرنسية القليلة القيمة فى ذلك الوقت . . . فى مرسيليا لم يبق سوى بضعة أيام أدرك بعدها أنه لابد من السفر الى العاصمة . . . فى باريس ذرع العاصمة الفرنسية طولا وعرضا واكتشف بعد أيام استحالة البقاء ، كان العرب هناك من الكثرة بحيث يستحيل إضافة واحد جديد ، فوق أن البطالة كانت تنخر فى المجتمع الباريسى كالسوس ، ولم تكن فرنسا وحدها بل كل دول أوربا ، وهكذا لم يكن أمامه سوى طريق واحد ، هو العودة الى كاى ، الى ليڤربول والى الأب جوشام !!

. . . .

. . . .

أكثر ماحز فى نفسه بعد وصوله الى ليڤربول أن « كاى » ظنته قد عاد من أجلها ، كانت سعيدة بعودته سعادة تفوق التصور ، وكانت على استعداد لأى شىء من أجله . . . وما ان هدأت حرارة اللقاء حتى قال لها بوضوح ودون لف أو دوران ، انه ـ أبدا ـ لن يتخلى عن دينه !

قالت كاى وهى تتلاعب بازرار سترته :

« الا تستطيع التظاهر أمام الأب جوشام ؟ ! »

« حتى هذا لا استطيعه ! »

رفعت اليه عينين متوسلتين فغمغم مبتسما :

« ولكن . . . . »

قالها ولزم الصمت مفكرا فاستحثته الفتاة المدلهة :

« ولكن ؟ ! »

« الاتعنى عودتى شيئا دون الحديث فى الأمر ؟ ! »

برقت فكرته الخبيثة فى ذهنها فابتسمت مستجيبة والتقط هو ابتسامتها متوسلا :

« كاى . . . انى فى حاجة الى فرصة واحدة اثبت لهم فيها كفاءتى ولسوف ينسون بعدها مسألة الدين تماما ! »

نظرت اليه كاى فى شك فأردف :

« لقد تناقشت طويلا مع الأب جوشام ،وأعرف يقينا أنه متحمس للدين المسيحى لكنى أعرف يقينا ياعزيزتى أن أصحاب الشركات لايتحمسون الا للمال ! »

كان الفتى مقنعا وكانت هى عند حسن ظنه ، فلعبت دورها بعيدا عنه ، وهكذا ما إن مضت أيام حتى وجد له الأب جوشام ـ بتشجيع من كاى ووعد منها بالذهاب الى الكنيسة صباح كل أحد ـ عملا فى إحدى شركات السياحة !

. . . .

. . . .

« من مرسيليا لباريس للندن لليڤربول ضحكت على ناس كثير قوى كان لازم القط رزقى والاقى ثمن اللوكاندة واكل واشرب . . . فى باريس حسيت أنى ممكن ابقى مليونير بشوية فهلوة، ورغم اللى انا عملته حسيت ان مش ده اللى نفسى فيه برضه ، كان نفسى اشتغل زى بقية الناس وابقى محترم وأثبت لاخواتى انهم ظلمونى . . . ويوم ماستلمت شغلى فى شركة السياحة فى ليڤربول كنت عارف ومتأكد إن الأب جوشام حاينسى حكاية الدين ، واذا افتكرها هو أصحاب الشركة

حاينسوها . . . لانى كنت عارف انى حانجح !! »

هكذا قال رأفت الهجان لمحسن ممتاز وهما يستعدان لتناول طعام الغـداء فى ذلـك المسكن فوق سطح إحـدى عمارات ميدان سليمان باشـا . . . كان البـاب قد دق اثناء الحديث وقد انتصف النهار منذ ساعتين ، وعندما فتح رأفت الباب وجد البواب أمامه يحمل لفافه تفوح منها رائحة الشواء :

« الكباب ياخواجه ليڤى ! »

ارتـد رأفت ببصره نحـو محسن الذى أوما اليه أن يأخذ اللفافة ، تناولها من البواب قائلا :

« حسابك كام ؟ ! »

« ما أنت بعت الفلوس مع الأفندى اللى قاعد عندك ده ! »

وابتلع رأفت ارتباكه ، شكر البواب ونفحه خمسة قروش وعاد باللفافة مغمغما :

« هو انت مابتنساش حاجة أبدا ؟ ! »

وسرعـان مافتحت اللفـافـة فيما بينهما وكانا جائعين ، فراحا يلتهمان الطعام فى تلذذ !!

كانت عاصفة الحزن قد خفت وحل محل الشاب المظلوم فتى آخر راح محسن يرقبه فى انتباه بالغ !

كان أول مافعله الفتى مع مدير شركة السياحة اقتراحا بأن يحول الى شركته كل المسافرين المصريين ثم يتلوهم بالعرب . . . كانت شركة «تـومـاس كوك» العالمية ذات النفوذ ، تحتكر ـ حتى ذلك الوقت ـ تسفير المبعوثين المصريين واعادتهم الى بلادهم ، ولقد سخر منه مدير الشركة قال : ان « توماس كوك » لها نفوذ وان الأولى به أن يجد طريقا آخر كى

يكسب عيشه فسأله الفتى :

« أعلم كل هذا! . . ولكن لم لانحاول ؟ ! »

هز الرجل كتفيه فى لامبالاة ، وبدأ رأفت مشواره الأول الى لندن !

فى السفارة المصرية بلندن استطاع رأفت الهجان بشخصيته الجذابة أن يجتـذب عواطفهم ثم عقولهم اليه ، كان يعرف كيف يتعامل مع الناس ومع المصريين بالذات . . . إن تحويل البعثات من توماس كوك الى شركته سوف يوفر لهم الوف الجنيهات ، كانت وسائل النقل هى هى،والامكانات هى هى ، وفوق هذا فلسوف يدفعون أقل مما يدفعونه لتوماس كوك !

مع جاذبية الفتى ولبـاقتـه واسلوبه الفريد فى الاقناع ،كانت هناك الـوطنية المصرية التى دفعت المسئـولـين فى السفارة الى مساعدة فتى مصرى يبنى مستقبله فى بلاد الانجليز . . . وعلى كل فلم يلبث الفتى فى لندن سوى بضعة أيام عاد بعدها الى ليڤربول وقد عقد صفقة كان نصيبه فيها ـ وحده ـ العين من الجنيهات الاسترلينية !

ولقد كانت « كاى وولف » هى أكثر الناس سعادة ، ليس فقط لأن فتاها عقد صفقة هامة واثبت كفاءته ، بل ايضا لأن الأب جوشام نسى مسألة الدين تماما . . . واذا كان النجاح يجلب نجاحا أكبر ، فلقد راح الفتى يضرب فى كل اتجـاه ، وازدهـرت أعمال الشركة ازدهارا جعل طموح الفتى يمتد الى بعيد ، الى الشاطىء الأخر من المحيط ، الى الولايات المتحدة الأمريكية ! . . . إنه هناك يستطيع أن يعقد للشركة صفقات سياحية تدر عليها أرباحا لاشك فيها ، وعندما عرض رأفت فكـرتـه الطموح على مدير الشركة كان ينتظر أى شىء الا أن يوافق

الرجل فورا ودون مناقشة ، ولقد كان الأمر مفاجأة بالنسبة اليه ، لكنه كان سعيداً .. ان له فى الشركة حسابا وصل الى خمسة الآف جنيه استرلينى لم يأخذ منها سوى ألف فقط ، اعطاه الرجل تذكرة على احدى طائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية طار بها رأفت الى نيويورك فخورا بنفسه ، فها هو يعبر المحيط الى الدنيا الجديدة ، وودعته « كاى » فى المطار على وعد باللقاء بعد أسابيع لن تطول ، لكنه لم يكن يعرف وهو يودعها أن هذه هى أخر مرة تقع فيها عيناه عليها !

ذلك أنه ما ان دخل مكتب الشركة فى نيويورك وقدم نفسه للمدير الأمريكى حتى كانت مفاجأه فى انتظاره ، كان فى انتظاره أمر بالفصل من الشركة بحجة أنه سرق تذكرة الطائرة !!!

ولم يصدم الفتى هذه المرة ، أدرك على الفور سر ترحيب المدير الشديد بفكرته الطموح ، غادر مكتب الشركة الى شوارع نيويورك وقد أدرك أنهم استولوا على الاربعة الاف جنيه استرلينى وانهم ارادوا أن يوفروا عمولته من الصفقات التى عقدها بالفعل كما أدرك أنه لايستطيع شيئا والمحيط يفصل بينه وبينهم !

كالفأر المذعور راح يخوض فى شوارع نيويورك وحواريها وأزقتها ودروبها وأحيائها الدنيا ، هو الآن مهدد بجريمة لم يرتكبها ، راح يتحرك بحذر وكانت أمواله تنفد يوما بعد يوم ... ثم عاد الى المحاولة من جديد حتى استطاع أن يجد لنفسه عملا فى احدى شركات السياحة التى أصبح خبيرا بأعمالها ، واستطاع بما له موهبة ودراية أن يحقق نجاحا جعلهم يثقون فيه حتى اذا طلب إليهم اعطاءه شيكات سياحية بمبالغ من المال تسهل له عمله على أن يرد المبالغ مرة أخرى ، اعطوه ماطلب

ورد لهم المال بعد بضعة أيام ، ثم طلب شيكات أخرى بمبالغ أكبر ، ثم رد المبالغ ثم طلب شيكات بمبلغ خمسة الآف دولار صرفها كلها دفعة واحدة وطار الى كندا !!

لكنه لم يمكث فى كندا طويلا ، كان يعرف الآن أن التهمة أصبحت تهمتين ، وأنه فى مونتريال ليس بعيدا عن ايدى الشرطة الامريكية ، وسرعان ماتفتق ذهنه عن حيلة ... أودع الخمسة آلاف دولار فى أحد البنوك الشهيرة ثم طلب دفتر شيكات ... وكان النظام المعمول به فى تلك الأيام هو طبع المبلغ المودع على دفتر الشيكات وهكذا لم تمر أيام قليلة حتى سحب المبلغ كله بشيك واحد وبقى معه دفتر الشيكات الذى يؤكد أن رصيده فى هذا البنك الشهير هو خمسة آلاف دولار ... ثم طار الى أوربا !!

كانت أوربا فى تلك السنوات لاتزال تتغذى على مشروع مارشال الشهير ، وكان للدولار الامريكى فى كل دول أوربا قيمة بالنسبة للعملات المحلية ... هبطت به الطائرة فى باريس وكانت هذه المرة الثانية التى يزور فيها العاصمة الفرنسية ... ولم يكن صعبا عليه أن يتحرك فى حذر فهو مطلوب من شرطة بريطانيا وشرطة الولايات المتحدة ، وهكذا راح يعرض على البعض أن يعطيهم شيكا بمبلغ ما من الدولارات وان يقبض ثلث قيمة الشيك بالفرنك الفرنسى على أن يحصل على الثلثين بعد صرف الشيك ، وما ان يأخذ المال حتى يذوب ، ينتقل من بلد الى بلد ومن دولة الى أخرى ، ومن فرنسا الى هولندا الى بلجيكا الى المانيا ... وكان ـ اذا ماأعيته الحيلة ـ دخل ناديا للقمار كى يتحين فرصة يدرسها جيدا ، حتى اذا حانت ألقى على المائدة

بمبلغ من الدولارات كى يخسره فى لامبالاة ويمضى ، وهو يعلم أن هناك من يسيل لعابهم للدولارات الأمريكية وانهم لابد سوف يتبعونه ، فلا يفعل أكثر من أن يعرض عليهم شيكا بمبلغ ما على أن يأخذ ثلثه بالعملة المحلية ثم يتسلم الباقى عندما يصرف الشيك وهكذا ، يكتب الشيك ويستولى على المال . . . و . . . ويذوب ! !

ولقد كان لابد من نهاية لهذا الطواف !

وجاءت النهاية فى مدينة فرانكفورت الألمانية عندما اعترضت طريقه فتاة راحت تنصب شباكها من حوله . . . من النظرة الأولى عرف ماتريد ومن هى ، كان قد أصبح الآن أفاقا مجربا مؤمنا أن الفتاة انما تحوم من حوله طمعا فى ماله المزعوم ، جاراها ساخرا لكنه فى صباح اليوم التالى وجدها قد تبخرت ومعها جواز سفره ودفتر الشيكات معا ! !

لم تكن الكارثة فى دفتر الشيكات بل فى جواز السفر الذى كان قد استخرجه قبل اسبوع بعد أن انتهت مدة جواز سفره القديم ، وكانت تجارة جوازات السفر فى تلك الأيام منتشرة فى المانيا بالذات ، حيث كان النازيون القدامى يحاولون الحصول على جوازات سفر أجنبية تخفى شخصياتهم . . . وعندما ذهب الى القنصلية مطالبا بجواز سفر جديد رفض القنصل واتهمه بأنه باع جوازه الجديد !

وجد رأفت الهجان نفسه فى مأزق كان يضيق من حوله يوما بعد يوم ، ولم يكن أمامه سوى العودة الى مصر من جديد ولكن . . . من أين له بثمن التذكرة ؟ ! . . . ولقد ظل يبذل المحاولات حتى وافقت شركة الطيران الهولندية على أن تصرف له تذكرة اذا مادفع ثمنها فى القاهرة ، وهكذا أبرق الى أخية كى يدفع عنه ثمن تذكرة العودة ثم

جلس ينتظر .

فى كل يوم يذهب رأفت الهجان الى مكتب شركة الطيران سائلا عن رد من القاهرة دون جدوى ، ومرت الأيام وكانت حالته تسوء ، حتى اذا ذهب ذات صباح يسأل ان كان هناك رد من القاهرة طلبوا إليه الانتظار قليلا فاستبشر خيرا ، مضت دقائق جاءت بعدها الشرطة كى تقبض عليه بتهمة سرقة تذكرة طائرة من مكتب السياحة الذى كان يعمل فيه فى ليڤربول !

فى فرانكفورت دخل السجن لأول مرة ، مكث فيه ثلاثة أشهر ثم حوكم وحكم عليه بالبراءة لعدم كفاية الأدلة . . . ولم يكن هذا مهما ، كان المهم أن المحكمة أمرت بترحيله الى بلاده ! ! !

. . . .

. . . .

فى مصر كانت كل الأبواب موصدة فى وجهه حتى باب شريفة ، فلقد صارحه زوجها اليوزباشى ـ نقيب ـ محمد رفيق ـ لم يكن قد أصبح صاغا بعد ـ ان حضوره الى البيت أمر غير مرغوب فيه ، هكذا بوضوح ودون لف أو دوران أو اعتبار لدموع شريفة أو توسلات طارق الصغير . . . كانت ثورة ٢٣ يوليو قد قامت فى ذلك الوقت وعرف رافت أن الشرطة تبحث عنه لسبب لايدريه ، وهكذا . . . وجه نفسه يدخل مع الدنيا فى صراع جديد !

ذات يوم التقى بشاب فرنسى اسمه « دانييل مارتان » جاء الى مصر فى زيارة علمية للاثار ، واستطاع أن يصحبه فى أحدى جولاته ثم سرق

جواز سفره ، ولم يكن صعبا عليه أن يغير الصورة ويزور الختم ، وهكذا وضع صورته بدلا من صورة الشاب ، ونزل فى أحد الفنادق الكبرى لبضعة أيام استولى فيها على جواز سفر جديد ثم اختفى ليظهر فى فندق آخر بجواز سفر آخر وباسم آخر . . . ولايذكر الفتى كم مرة لعب فيها هذه اللعبة ، لكنه اعترف بوضوح انه لعبها كثيرا وأنه برع فى تغيير الصورة وتزوير الاختام . . . حتى اذا وقع فى يده ذات يوم جواز سفر باسم « أحمد العلايلى » غيرّ الصورة وزور الختم وسافر الى بورسعيد !

كان حنينه إلى الحياة المستقيمة يعاوده ، وفى بورسعيد التحق بعمل فى احدى الشركات تحت اسم أحمد العلايلى ، وما ان مضى شهران حتى طلب إليه صاحب الشركة ان يستعد لاستقبال عميل هام من عملائه وهو اسماعيل بك شوكت . . . ماإن سمع رأفت هذا الاسم حتى هرول الى بيته ، جمع أشياءه كلها وركب القطار عائدا الى القاهرة . . . فلم يكن شوكت بك هذا سوى زوج خالته !

باسم أحمد العلايلى نزل فى أحد فنادق القاهرة والتقى فى الفندق بفتاة أمريكية تدعى « جوان برات » ، ما ان مضى يومان حتى هامت به الفتاة ، لكنه لم يكن يريد هيامها بل جواز سفرها الذى استولى عليه وغير صورتها بصورته وبدل اسمها من جوان الى جونى وغادر مصر عن طريق ليبيا .

لم يكن يعرف الى أين هو ذاهب ، فى الطريق الى بنى غازى كان يتنقل من سيارة الى أخرى بطريقة الاتوستوب ، وكثيرا ماكان يقطع الأميال فى الصحراء وتحت لهيب الشمس سيرا على الأقدام حتى حملته سيارة الى بنى غازى ، وهناك توقفت أمام نقطة تفتيش انجليزية ، وما

ان طلب إليه الجندى جواز سفره حتى قدمه له فى لامبالاة وثقة دون أن ينتبه الى أن العرق كان قد أفسد الجواز وكشف التزوير وخلع الصورة من مكانها ، وكان طبيعيا أن يلقوا القبض عليه فادعى أن اسمه « ليفى كوهين » وانه يهودى هارب من الثورة المصرية . . . ولأنه كان يتقن الانجليزية كاحد أبنائها ، فلقد شكت السلطات البريطانية فى أمره ، ظنوه واحداً من جنود الامبراطورية الذين فروا أثناء الحرب وكان هذا شائعا فى تلك الأيام ، وعندما اخذوا بصماته وارسلوها الى الشرطة الدولية « الانتربول » ، وحتى وعادت الأوراق لتقول إنه مصرى وإن إسمه « رأفت الهجان » !

وهكذا أعيد الفتى الى مصر من جديد !!!!

لكنه لم يستسلم . . . فما ان وصل الى الاسكندريه حتى راح يصيح ويهدد ويؤكد أنه أمريكى وأنه يريد القنصل فورا . . . كانت الأوراق التى عاد بها من ليبيا تقول إنه مصرى اسمه رأفت ، وان له اسما أخر يهوديا هو « ليفى كوهين » ، وشاع فى القسم اسمه اليهودى كما شاع انه يحمل جواز سفر أمريكى باسم جونى برات . . . فى السجن التقى بيهودى آخر اسمه «افرايم سلومون» راح يرقبه من بعيد حتى تحين الفرصة ، وما ان حانت الفرصة حتى اقترب منه سائلا إياه عمن يكون . . . فاذا برأفت ينهره همسا ويحدثه فى فرنسية ذات لكنه من تلك التى كان يتحدث بها يهود مصر فى تلك الأيام ، قال :

« لاتتحدث كثيرا ... الحيطان لها ودان ! »

كان الجزء الأول من الجملة بالفرنسية والجزء الثانى بالعربية ، هكذا كان يهود مصر يتحدثون فى الغالب الأعم ، التصق به « افرايم سلومون » سائلا اياه عن المشكلة فنهره بالفرنسية :

« لبست هناك مشكلة ! »

ثم أردف بالعربية :

« دول مغفلين ! ! »

وسقط أفرايم سلومون فى حبائل رأفت ، صدق أنه يهودى وأدرك انه يلعب دورا عظيما وسريا لمصلحة الجالية اليهودية ولمصلحة اسرائيل !

غير أن شكوك رجال الشرطة فى الاسكندرية تزايدت عندما لم يصلوا الى حقيقته فقرروا ترحيله الى القاهرة !!!

●●●

ساد الصمت وراح محسن يرقب رأفت وقد تهدجت أنفاسه ، كان يلهث وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئا هائلا. . بدأ الفتى شاحباً ذلك الشحوب الناتج عن الانفعال الشديد ، كان يبدو غاضبا وكأنه يعيش هذا الذى يحكيه وهو يحكيه ، القى برأسه الى الخلف وراح يحملق فى السقف طويلا ، احترم محسن صمته فلم ينطق حتى قفز الفتى فجأة وهو يصيح فى غضب :

« مايهمنيش ! »

كان الفتى يتحدث إلى نفسه فابتسم محسن متسائلا :

« هو ايه اللى مايهمكش ؟ ! »

« مايهمنيش انك تصدقنى ! »

رفع محسن حاجبيه دهشة فاردف الفتى :

« اشمعنى انت اللى حاتصدقنى ؟ ! »

سأله محسن مغيرا مجرى الحديث :

« انت فاكر الراجل اليهودى اللى اسمه افرايم سلومون ده ؟ ! »

« طبعا فاكر شكله ! »

« كان مقبوض عليه ليه ؟ ! »

« ما اعرفش ! »

حاول رأفت أن يتذكر ، لكنه فشل :

« أنا فى الحقيقة قلت اللى قلته علشان أخوفه منى وابعده عنى ! »

« يعنى هو يعرف ان اسمك الحقيقى مش ليفى كوهين ؟ ! »

« ده اللى انا قلته له ! »

عاد الصمت يخيم عليهما من جديد كان قلب محسن ممتاز يرقص الآن طربا ... فها هو القدر يؤازره ويضع ـ بمصادفة غير مقصودة ـ رة للهدف الأسمى الذى يريده لهذا الفتى الذى مالبث أن قال :

« أدينى قلت لك كل حاجة، مش حاتقول لى بقى أنت مين ؟! »

نهض اليه محسن استعدادا للانصراف :

« عاوز تعرف ايه ؟ ! »

« على الاقل اعرف انت اسمك ايه ؟ ! »

« محسن »

صاح الفتى :

« البلد فيها خمسة مليون محسن وحسن وحسين وحسان يابيه ! »

ضحك محسن قائلا :

« اسمى محسن ممتاز ! »

« كسبنا صلاة النبى ! »

« عاوز تعرف ايه تانى ؟ ! »

«يابيه فهمنى ايه الحكاية ،كفاية علىّ اللى حصل أنا مش ناقص ! »

ربت محسن على كتفه فى ود متسائلا :

« مانفسكش تاخد اجازة ؟ ! »

« من الاجازة اللى أنا فيها ؟ !»

« مانفسكش تتفسح ؟ ! »

« نفسى اشوف شريفة وطارق ! »

« بلاش دلوقت ! ! »

«هيه ؟ ! »

« مش لازم تروح لاخواتك الا وانت ملو هدومك ياليفى ! »

« حاتشغلنى يابيه ؟ ! »

أخرج محسن من جيبه ورقة من فئة العشرة جنيهات قدمها اليه قائلا :

« خذ العشرة جنيه دى وقدامك تلات أيام تتفسح فيهم زى ما أنت عاوز ! »

« ليه ده كله ؟ ! »

«اوعى تنسى إن اسمك ليفى كوهين ! »

« ولايهمك »

« واذا صادف وقابلت افرايم سلومون ده ، خليه يعرف إن ده مش اسمك الحقيقى برضه ! »

« واذا سألنى عن اسمى الحقيقى ؟ ! »

« ماتقولوش حاجة الا لما أقول لك أنا ! »

قال محسن هذا وهو يخطو نحو الباب مستطردا :

« واشوفك يوم الخميس الساعة عشرة الصبح ان شاء الله ! »

هتف رأفت :

« واذا احتجت لك ؟ ! »

« حاتلقانى جنبك !! »

قال محسن هذا وانصرف !!!

بدت السيدة هيلين سمحون متعبة ، كانت الساعة تشرف على الرابعة عندما توقف عزيز الجبالى عن الحديث وكان هو الآخر يبدو منهكا ، لم يطل الصمت بينهما فلقد قالت هيلين :

« لقد تجشمت من أجلى عناء عظيما ! »

«إن هذا دين فى اعناقنا لديڤيد ! »

« تقصد رأفت ؟ ! »

التفت عزيز نحوها وقد اجتاحت ملامحه سعادة جارفة ، وعادت هيلين تقول :

« أشعر وكأنى تسلقت جبلا شاهقا ! »

« أمازلت تريدين معرفة الحقيقة ؟ ! »

«أكثر من ذى قبل ! »

قالت هذا وهى تنهض فنهض عزيز قائلا :

« اذن فالى اللقاء غدا »

وودعها عزيز الجبالى حتى باب السيارة التى كانت تقف أمام المدخل الخاص لكبار الزوار فى مبنى جهاز المخابرات العامة المصرية ، وعندما كانت السيارة السوداء الألمانية الصنع تجتاز البوابة الخارجية لمبنى الجهاز ، كان عزيز الجبالى يعود مهرولا الى مكتبه وهو ينظر فى ساعة يده ، فلقد كان وراءه الكثير مما كان عليه أن ينجزه ! !

الفصل الثامن

ياكوف بنيامين حنانيا

عاود هيلين سمحون ذلك الإحساس الملح بأنها تعيش حلماً غريباً لن تلبث أن تستيقظ منه وتستعيده فى دهشة . . . أو أنها تعلب دورا فى فيلم مثير لاصلة له بالواقع الذى عاشته وتعيشه . . . كانت ـ عندما غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث فى مبنى جهاز المخابرات العامة المصرية ـ قد التقت بالضابط حسين شكرى الذى لازمها فى الطائرة من براغ حتى القاهرة ، ثم قدم لها نفسه فى السيارة الميكروباس التابعة لشركة مصر للطيران ، والتى حملتها إلى تلك السيارةالسوداء اللون الألمانية الصنع ، ثم جاء بها من تلك الڤيلا الهادئة بضاحية هليوبوليس الى هذا الجهاز الذى احتوتها جدرانه منذ الصباح ، فاذا هى فى دوامة عنيفة تتصارع فيها الأفكار والانفعالات ، حتى قبيل غروب الشمس من ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٧٩ .

لم تكن الجولة التى قامت بها مع عزيز الجبالى ، عبر التاريخ القريب لشعب من شعوب الأرض هو الشعب المصرى ، هينة عليها . . . وبرغم كثرة المعلومات ، وكثافة الشحنات العاطفية ، بقدر ماكان لهذه الكثرة والكثافة من ضغط عنيف على أعصابها!!!

فى داخلها عشرات من الأسئلة ، وعشرات من الأحاسيس المتضاربة والمتشاحنة . . . فلقد كانت تعرف هذا الفتى الذى كان يتحدث عنه عزيز الجبالى . . . فى بعض الأحيان كانت تستمع اليه فتستغرق معه فيما يرويه من أحداث وتنسى تماماً من هو هذا الفتى ، فكأنها تقرأ قصة أنستها أحداثها الغريبة كل شىء ، وفى لحظة أخرى تتذكر أن هذا الفتى هو « ديڤيد » . . حبيبها وزوجها فتصاب بما يشبه الصاعقة !!!

الاستماع إلى الاحداث أو قراءتها فى كتاب أو مشاهدتها فى فيلم شىء ، ومعرفة البطل شىء أخر . . . أنت تشاهد فيلما تثيرك أحداثه ، تنفعل معها ، وتضطرب ، ويداخلك الخوف وأنت فى مقعدك وربما الرعب أيضا ، لكنك فى النهاية تستشعر نوعاً خفياً من اللذة ، هى لذة إحساسك بأن هذا كله غير حقيقى . . . ثم أنت تقرأ قصة فتهزك سطورها هزاً ، وقد تضحك مع الكلمات ، وقد تبكيك الأحداث ، لكنك عندما تغلق الكتاب تشعر بفيض من الراحة يداخلك ، ولابد لك ـ مهما كانت المأساة الكامنة فى السطور وفيما بينها ـ من أن تبتسم وتثنى على الكاتب وتشيد بالعمل . . . ولكن ، أن تستمع الى كل هذه الاحداث ، أوتقرأها ، أو تشاهدها وأنت موقن أنها حقيقية ، بل إن بطلها كان صديقك أو أخاك أو زوجك . . . فهنا تكمن المأساة ، وهذا ماكان عليها أن تستوعبه كما ينبغى أن يكون الاستيعاب . . . جاءت

عليها لحظات أحست فيها بذلك الاحساس الغيبى بأن ديڤيد أو رأفت أو دانييل أوجونى أو أيا ماكان الاسم الذى تسمى به ذلك الرجل الذى احبته وتزوجته وأنجبت منه ثم مات . . . موجود معها !!

فى لحظات بعينها كانت تكاد تشعر بأنفاسه تملأ الغرفة من حولها وحول عزيز ، ولكم تمنت . . . كم تمنت من أعماق القلب ألا يكون هذا مجرد إحساس ، وأن يعود ديڤيد إلى الحياة مرة أخرى . . . فقط ، كى تأخذ برأسه فوق صدرها ، وأن تربت على شعره الناعم ، وأن ترضعه حنانا افتقده وحرم منه بقسوة . . . ولكن هيهات !!

لقد مات ديڤيد ، مات رأفت بين ذراعيها منذ ما يقرب من شهرين ، وهى تشعر الآن برغبة عارمة فى أن تنفرد بنفسها ، أن تغوص حتى أعمق أعماق ذكرياتها عنه ومعه ، أن تعود الى السباحة فى بحره مرة أخرى . . . فهى الآن ، تعلم يقيناً أن كل هذا الذى سمعته لم يكن سوى مقدمة لحياة محفوفة بالأسى والحرمان والمخاطر جميعاً!!

ألقت ببصرها عبر نافذة السيارة الى طرقات القاهرة وقد هبط عليها الظلام وأضيئت الأنوار ، كانت السيارة تزحف فى بطء وسط زحام الطريق ، على يسارها كان يجلس حسين شكرى صامتاً فى احترام عميق لصمتها . . . كان قد حاول ـ عندما غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث مع عزيز الجبالى ـ أن يشيع المرح من حولها ، فصاح مازحاً فور رؤيته لها وكأنه ينبهها الى أن أفكارها تنعكس على صفحة وجهها :

« فراو سمحون . . . . ما الذى فعله بك هذا الرجل ؟ »

«لقد تجشم من أجلى عناء كثيراً »

قالت هذا فلزم حسين شكرى الصمت ، كان ردها صلبا

كصخرة ، وكانت تعلم الآن أن طبيعتها الألمانية الجافة قد عاودتها بعنف . . . فى الطريق إلى تلك الڤيلا التى اختارها المصريون مقراً لها ، سألها حسين شكرى فى رقة غير مصطنعة :

« كيف تريدين أن تقضى المساء ؟ »

« وحدى »

كانت الكلمة كالطلقة ، لكنه لم يستسلم :

« فى القاهرة أماكن متميزة لتناول العشاء »

« ليس الليلة هر شكرى . . . ليس الليلة »

وهكذا انتهى الحوار ، وهكذا استقبلت فتيات الڤيللا بوجه مجهد فاحطنها برعاية فاقت قدرتها على الاحتمال . . . فطلبت إليهن فى رجاء أن يتركنها وحدها . . . بدلت ملابسها وتناولت عشاء خفيفاً وتبادلت مع عزيزة ـ فتاة الڤيللا الخمرية المليحة التقاطيع المجيدة للغة الالمانية ـ حديثاً قصيراً ، تركتها الفتاة بعده لأفكارها . . . وهكذا جلست فى الشرفة المطلة على تلك الحديقة الصغيرة ـ ورغم برودة الجو الشديدة ـ وفى ذهنها يدور سؤال بدا لها محيراً :

لقد عانى ديڤيد ـ أو رأفت ـ كل هذا الذى عاناه من وطنه . . . عانى الجحود من أهله ، والخبث من قوم آذوه دون ذنب جناه ، دفعوه الى التشرد فتشرد ، دفعوه إلى اليأس فاحتال ، غاضبوه فغضب منهم وهجرهم ، هجر الوطن كله . . . ولكن ، ما ان نادته مصر ، حتى حمل رأسه فوق كفه من أجلها ، وحتى نهاية عمره ، وعاش حياة محفوفة بالموت فى كل لحظة من لحظاتها ، وكان ـ عندما التقت به ـ راضيا ، سعيدا ، يحمل الحنين كله إلى هذا الوطن . . . الآن ، الآن فقط تستطيع هيلين سمحون أن تفهم ذلك الحنين الدافق الى القاهرة ، الى

مصر . . .

مصر ؟ ! !

ماهى مصر تلك التى يحبها أبناؤها الى حد الموت ، رغم قسوتها البالغة على بعضهم ؟

وحتى صباح اليوم التالى ، لم تكن هيلين سمحون قد نامت سوى ساعات جد قليلة ، ولم تكن بعد قد توصلت إلى جواب

. . . .

. . . .

أما عزيز الجبالى فلقد كان فى صباح اليوم التالى بادى الاجهاد . . . قضى جزءاً كبيراً من الليل فى عمل متواصل الزمه مكتبه . . . وعندما أوى إلى فراشة ، شعر وكأن عظامه قد تحطمت تحت وطأة ثقل لاقبل له به . . . اكثر ماكان يضنيه ، هو ذلك الانفصال المفروض عليه وهو يحكى لهيلين سمحون ـ أو حرم المرحوم رأفت الهجان ـ قصة زوجها الراحل . . . كان يحكى لها « مايجب » عليه أن يحكيه ، لكن الحقائق كانت تفرض نفسها عليه فرضاً . . . كان لسانه يقول بحساب ، وعقله يجمح بلا حساب ، هذا تاريخ عاشه وعايشه ، هذا جزء من وطنه ، جزء قدر له برغم كل شىء الا يرى النور أبداً ـ هكذا كان القدر ـ وجزء آخر كان يخرج من بين شفتيه من ثقوب مصفاة شديدة الضيق ... لكنه ، وعندما سمع آذان الفجر يسرى فى سماء القاهرة ، تقلب فى فراشة وهو يغمغم :

هذا دين فى عنق مصر لرأفت الهجان ، ولن يؤديه غيرى !!

. . . .

. . . .

عندما التقى عزيز بهيلين فى صباح اليوم التالى ، حاول كل منهما الابتسام فى وجه الآخر ، لكن ملامحهما كانت تصرخ بأن أيا منهما لم يعرف للنوم طعماً فى الليلة التى مضت الا لحظات خاطفة ، فهى : كانت تتلهفْ لسماع القصة . . . وهو كان يضع على لسانة ألف قيد وقيد !!

•••

قال الفتى فيما بعد ، إنه لم يترك نفسه للحيرة بعد أن غادره محسن ممتاز فى ذلك اليوم طالباً إليه أن يأخذ إجازة ثلاثة أيام . . . ذلك أنه كان موقنا بأن محسن لن يكون إلا ضابطاً من ضباط المباحث الذين تخصصوا فى التعامل مع يهود مصر ، بعد أن تزايد نشاطهم فى تهريب أموالهم من البلاد ، بالرغم من أن أحداً من المصريين ـ حتى بعد حرب ١٩٤٨ ـ لم يربط بينهم وبين إسرائيل ، ولم يتعامل معهم معاملة تختلف عن أى مواطن مسلم أو مسيحى .

حقاً كان محسن يبدو مختلفا عن كل ضباط الشرطة الذين عرفهم وخبرهم وخبر أساليبهم ، لكنه اختلاف أرجعه الى طبيعة محسن نفسه لا إلى طبيعـة عمله . . . ولقد علمته الأيام أن اصابع اليد الواحدة لاتتشابه ، فهو لم يكن فى حاجة الى أن يفكر أو يقدح ذهنه لأن الأمور بدت له شديدة الوضوح . . . ولقد كان السؤال الذى طرحه على نفسه فى البـداية هو : ماالذى يريده منه ضابط مثل محسن ممتاز ؟ ! . . . وكانت الاجابة النهائية ـ بعد أن قلب الفتى الأمر على كل وجوهه ـ ان محسن لايمكن أن يطلب أكثر من نقل أخبار هؤلاء المهربين إليه . . . أما السؤال الذى طرحه على نفسه ولم يجد له إجابة فكان : هل يحتاج الأمر ـ أمر نقل أخبار اليهود ـ إلى كل هذه الاحتياطات ، وكل هذا

التكتم ، وكل هذا التنبيه على عدم الافصاح عن اسمه الحقيقى المزعوم ؟ ! . . .

لم يجد الفتى إجابة عن السؤال فنحاه جانبا ، لا إهمالاً منه ، ولكن لأنه وجد أنه لن يخسر كثيراً . . . فهو - بداية - قد تحول من مطارد - بفتح الراء - الى مطارد - بكسر الراء - وهو أخيراً قد أمن شر التشرد ، ثم انه عندما سأل محسن إن كان سيجد له عملا ، كانت إجابة الرجل صامتة حقاً ، لكنه صمت كان يعد بالكثير !

كل هذه العناصر كانت عناصر ربح من وجهة نظره ، فى الوقت الذى وجد فيه أن الأمر لن يكلفه كثيرا من المشقة ، فلقد تعود على انتحال الشخصيات ، واتقان هذا الانتحال الى حد أنه كان يعيش أحياناً بالشهور على أنه مسيحى فلا يخطىء مرة ، وعلى أنه يهودى فلا يكشف أمره ابداً . . . فالأمر كان بالنسبة إليه سهلاً ، وهكذا . . . ما إن غادره محسن فى ذلك اليوم حتى استعد ومعه مايقرب من العشرين جنيها ، كى يقضى ثلاثة أيام فى نزهة حقيقية وراحة بال طال الشوق إليها . . . و . . . و . . . ودون خوف من مطاردة ، وكان هذا هو أهم مافى الأمر !!

ولقد كان رأفت الهجان على حق فى تفكيره تماماً ، ذلك أن أحداً فى مصر فى تلك السنوات لم يكن يعرف شيئاً أو جهازاً اسمه « المخابرات » ، ولم يكن فى مصر جهاز بهذا الاسم . . . وبالرغم من أن القاهرة كانت مسرحاً لعمليات تجسس لا يستهان بها إبان الحرب العالمية الثانية وفى السنوات التى تلتها . . . ففى اثناء الحرب العالمية الثانية - على سبيل المثال - ذاعت قصة هانز إبلر وحكمت فهمى ، كما كانت الشائعات حول الدور الذى لعبته المطربة العربية البللورية

الصوت « اسمهان » مع الحلفاء ، تملأ سماء القاهرة ومنتدياتها ، بل وفى الاحاديث العابرة والعادية بين المواطنين . . . وما أن انتهت الحرب حتى ظهر دور الجماعات الصهيونية ، وكان اغتيال اللورد « موين » وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الاوسط قبل انتهاء الحرب بما يقرب من عام - وبالتحديد فى عام ١٩٤٤ - نذيراً بأن لليهود تنظيمات سرية وشبكات تجسس لايستهان بها فى مصر . . . وبالرغم من هذا ، فإن أحداً من حكام مصر فى تلك الفترة العصيبة التى كانت تغلى بالأحداث ، لم يفكر ، بل ربما كان الأصح انه لم يفهم ، أهمية وجود جهاز للمخابرات يحمى الدولة . . . أما نشاط التجسس هذا ، فلقد كان يتولاه فى وزارة الداخلية قسم كان يطلق عليه اسم « القلم السياسى » أو « القسم المخصوص » !

. . . .

. . . .

وبينما كان رأفت الهجان يجوب القاهرة طولا وعرضاً فى استمتاع طال البعد عنه ، يرتاد دور السينما والمسرح ، ويقضى يوماً تحت سفح الهرم الأكبر ، ويوماً فى حديقة الحيوان ، وقد استعاد ذلك الاحساس الغامر بالأمن الذى جعله يتحرك بلا خوف ولاحذر . . . كان محسن ممتاز غارقاً لأذنيه فى مهمة بدت له شديدة الصعوبة والتعقيد !

كانت المهمة هى إيجاد تاريخ للفتى ، وخلق ماض له !

وصعوبة هذه المهمة وتعقيدها كانا يكمنان فى أن اليهود فى كل الدنيا - لافى مصر وحدها - كانوا مجتمعات مغلقة يطلق عليها فى العالم كله اسم « جيتو » ، وفى مصر اسم « حارة اليهود » ، وفى بعض البلدان العربية اسم « حى الملاح » . . . وكانوا بالتالى - أو فى

الغالب - يعرفون بعضهم البعض . . . وكانت الجالية اليهودية فى مصر بالذات ، تمتد شرائحها الاجتماعية من الذروة حتى القاع . . . لكنهم كانوا يعرفون بعضهم البعض خاصة تلك العائلات الكبيرة والغنية الشهيرة ، تلك العائلات التى كان على محسن أن يتجنب البحث فيها عن « أصل » للفتى . . . كان عليه - مرغماً - أن يحصر بحثه فى العائلات المتوسطة او الدنيا ! !

ذلك أنه إذا ما أراد أن يزرع الفتى فى قلب اسرائيل ، وأن يرسل به إلى هناك كى يعيش كاسرائيلي لحماً ودماً ، فلسوف يصبح عليه بداية أن يجد له « أصلاً » اسرائيلياً يصعب اكتشافه ، إن لم يكن من المستحيل اكتشافه . . . كانت الكتب التى وصلت إلى يديه ، وقصص « الطابور الخامس » الألمانى بالذات ، قد أمدته بالكثير مما يحتاج إليه فى مهمة كهذه . . . وهكذا وجد محسن ممتاز نفسه أمام مأزق آخر . . .

لأنه لو أراد رد الفتى الى « أصل » من الأصول اليهودية التى تعيش فى مصر ، أو كانت تعيش فى مصر حتى وقت قريب ، فلسوف يجد الفتى بالقطع من يعرف هذا « الأصل » فينكشف أمره ، وكان لابد أن ينحصر بحثه فى تلك « الأصول » التى غادرت مصر منذ زمن طويل ، والتى اندثرت أو كادت ذكراها أن تندثر !

كان المجتمع اليهودى مازال - حتى ذلك العام وفيما تلاه من أعوام وحتى عدوان ١٩٥٦ - يعيش أفراده حياتهم الاجتماعية والاقتصادية بحرية كاملة . . . كانت هناك تجمعات لليهود فى المقاهى والبارات والنوادى ، بل كان هناك ناد رياضى اسمه «نادى المكابى» خاص بأبناء الجالية اليهودية الذين كانوا يملكون واحدة من أقوى فرق كرة السلة فى مصر . . . وكان من أعضاء هذا النادى ملاكم يهودى مشهور

هو « رورو هرارى » ، كما كان هناك مقهى « ماتاتيا » الذى كان يضم تجمعات من شرائح شتى فى المجتمع المصرى ، من الصحافة إلى الأدب ، الى الفكر الى الاقتصاد والتجارة ، الى السياسة . . . الى . . الى اليهود الذى كان لهم ركن - كبقية الشرائح - شهير فى هذا المقهى . . . ثم المعابد اليهودية فى القاهرة والاسكندرية . . . ثم . . . ثم اذا كانت المصادفة قد لعبت دورها لصالح محسن عندما ادعى الفتى وهو فى الاسكندرية ، أمام يهودى آخر هو « افرايم سلومون » ان اسم « ليفى كوهين » ليس اسمه الحقيقى ، فلابد أن يلتقى به السيد سلومون هذا ذات يوم ، ثم لابد أن يسأله احدهم - سراً بالطبع - عن اسمه الحقيقى ، وهو اسم لابد أن يكون مرتبطا بماض وتاريخ واسرة وعنوان وجيران واصدقاء ومعارف !

عادت الحلقة تضيق أمام محسن ، فلقد كان «افرايم سلومون» هذا يعرف أن الفتى جاء من ليبيا مقبوضاً عليه . . اذن فلابد من البحث عن « أصل » هذا الفتى فى المغرب العربى !

نعم ، كانت المهمة صعبة ومعقدة ، وكانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . . . ولم تكن هذه الأيام الثلاثة التى أعطاها محسن للفتى كإجازة ، سوى - فى واقع الأمر - فرصة أعطاها لنفسه لاستكمال بحثه الذى كان قد بدأه منذ أن اتخذ القرار بخصوص الفتى . . . ولقد كان ملاذه - فى هذه المشكلة أيضا - هو سجلات مصلحة الجوازات والجنسية .

وهناك ، لم تكن المهمة سهلة !

لم يكن هناك أرشيف بالمعنى العلمى لهذه الكلمة ، ولم يكن سهلاً البحث وسط الوف الدوسيهات والملفات والأضابير عن عائلة يهودية ذات مواصفات معينة ، هاجرت من مصر الى المغرب العربى

بالتحديد ، وكانت كلمة المغرب هذه تشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب معاً ، فوق أن هذه البلدان كلها كانت لاتزال واقعة تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى أو البريطانى ، ثم ان المدن ـ غالباً ـ فى بلدان هذا المغرب فى ذلك الوقت كانت مُقسمة إلى ثلاثة أحياء :

أولها الحى الأوربى . . . وهى حى بنى وصمم على أنه قطعة من أوربا ! . . . وكان مخصصاً للجاليات الأوربية سواء المنتمية الى الدولة المستعمرة أم الى سواها !

وثانيها هو الحى العربى . . . حى أبناء البلاد وأصحابها الأصليين ، وكان محاطا بسور ـ ولاتزال بعض هذه الأسوار قائمة حتى اليوم ـ له بوابة ، ولايستطيع المواطن العربى اجتياز هذه البوابة خروجاً أو عودة إلا بتصريح !!!!

أما الحى الثالث فكان يطلق عليه اسم حى « الملاح » ، وهى تسمية لها أصول تاريخية بالقطع ، لكن حى « الملاح » هذا ، كان حى اليهود ، وكان له أيضا ـ مثل الحى العربى ـ سور له بوابة ، الفرق الوحيد بينهما أن اجتياز البوابة خروجاً أو عودة ، لم يكن يحتاج الى تصريح !!

كان معنى هذا أن يهود المغرب معروفون ، فى أى بلد كانوا ، فلابد أن يعرفهم أهل حى « الملاح » مهما صغر شأنهم أو كبر هذا الشأن !

وكان معنى هذا أيضا ، أن الحلقة كانت تضيق أمام محسن ممتاز أكثر وأكثر !

لكن هذا الشاب الريفى الأصل كان عنيداً لا يعرف اليأس ، لذلك . . . فلقد داوم بحثه فى سجلات مصلحة الجوازات والجنسية وأرشيفها وأضابيرها وملفاتها حتى عثر ذات مساء على كنز !!!

. . .   .

. . .   .

فى سجلات المصلحة عثر محسن على عائلة صغيرة مكونة من أب وأم وولد وبنت . . . المثير فى الأمر ، أن الولد أو الصبى ، وكان اسمه « ياكوف » كان فى مثل عمر رأفت ، فهو مولود فى نفس العام . . . وكان اسم الأب « بنيامين حنانيا » ، واسم الأم التى غادرت مصر فى سن الثلاثين هو « راشيل » ، أما اسم الصبية التى كانت تصغر أخاها بعامين فكان « جان » !

كان «بنيامين حنانيا » تاجراً متجولاً للاقمشة والخردوات ... واذا كانت أسرته تقيم فى أحد أحياء القاهرة الشعبية ، فلقد كان هو ، يجوب ببضاعته التى يحملها على ظهره فى « بقجة » هائلة ، قرى الوجه البحرى ونجوعه . . . كان بنيامين معروفاً فى هذه القرى جيداً ، وكان له زبائن كثيرون ، وكان أهلها ينتظرونه بطربوشه الذى صنع العرق مع الأتربة حول حافته سياجا من السواد ، وبذلته البنية الكالحة ، ثم تلك « البقجة » التى تحوى العجائب مما يعجب النساء والفتيات . . .

ولكن ولسبب ما ـ قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بعام وبعض عام ـ قرر بنيامين حنانيا أن يهاجر من مصر الى المغرب ، وكانت سجلات المصلحة ، التى انهال محسن عليها بحثا وتقليبا ، تؤكد أن السيد حنانيا ، وابنه ياكوف وابنته جان وزوجته راشيل ، لم يعودوا الى مصر مرة اخرى !

كان معنى هذا أن تعس الحظ بنيامين حنانيا وأسرته ـ وبكل الحسابات الممكنة ـ كان يقيم فى المغرب عندما اجتاحته جيوش المحور أثناء الحرب العالمية الثانية ... وكان معنى هذا أيضاً ، أن العائلية بكاملها ، إما أنها ابيدت ، أو تفرقت !

من أوراق المصلحة ، عرف محسن العنوان ، الذى كانت عائلة حنانيا تقيم فيه منذ مايقرب من سبعة عشر عاماً ، وعلى الفور ، انتشر رجاله يبحثون ويتقصون ويستفسرون ، وجاءت كل النتائج بما اثلج صدر محسن تماماً ، فالعائلة التى هاجرت لم يسمع أحد عنها شيئاً منذ ذلك الوقت . . . وان كان بعض كبار السن ، قد أدلوا بمعلومات وافية عن هذه العائلة ، وتحدث الجيران الذين يذكرون « الست راشيل » والدة « ياكوف » الذى كانوا جميعا ينادونه باسم « ياكو » والبنت « هند » ـ ولقد أصر الجميع بلا استثناء ، على أن اسم الفتاة كان « هند » ولم يكن « جان » كما كان مدوناً فى سجلات المصلحة ، وانهم لم يسمعوا باسم « جان » هذا منذ مولد الفتاة فى أحد الأدوار الأرضية فى بيت كان لايزال قائما من بيوت الحارة ! ـ وفى جلسات سمر مع بعض شباب الحى ورجاله ، تذكر بعضهم ـ بوضوح شديد ـ « ياكو » الصغير الذى كانت له نوادر وطباع يختص بها هو دون سواه !

أما الكبار الذين دهشوا من السؤال عن « الخواجة بنيامين » وتساءلوا عن سبب السؤال عنه ، فلقد ذكروا أنه كان عزوفاً عن مخالطة الناس بعكس زوجته الودود ، وانه كان يختفى لأيام وأحيانا لأسابيع ، ليعود مجهداً متعباً ، فلا يمكث مع العائلة إلا لأيام يشترى فيها بضاعته من بعض تجار حى الموسكى الذين ذكروا أسماءهم .

وكان بعض هؤلاء التجار لايزال على قيد الحياة !... وكانوا يذكرون بنيامين تماماً ، بل إن بعضهم ذكر بضعة أسماء للقرى التى كانت أسواقا لهذا البائع اليهودى المتجول . . . وفى تلك القرى ، أدلت بعض العجائز من ذوات الذاكرة الحديدية ، بالعديد من الحكايات عن الخواجة بنيامين ـ وإن كن جميعا لايعرفن عنه سوى اسم

بنيامين فقط ـ وعن اقمشته ذات الألوان الزاهية ، وعن الحلى الشعبية الجميلة التى كان يحملها إليهن كلما زارهن فى جولة بعد أخرى !

انقضت الأيام الثلاثة ، وكان محسن قد ألم إلماماً وافيا بأسرة حنانيا . . . كما أنه استطاع أن « يؤلف » قصة محكمة كان على الفتى أن يرويها اذا ماسئل عن أصله وفصله . . . وهكذا أصبح جاهزاً للخطوة الأولى فى مهمته الصعبة ! !

•••

لم يكن من المعقول أن يصارح محسن رأفت بطبيعة مهمته فى البداية ، بل كان هذا مستحيلا بكل المعانى . . . كانت المشكلة التى تشغل باله وهو مقدم على الخطوة الأولى ، هى « ترويض » هذا الثعلب الجامح . . . وفى حقيقة الأمر ، فان محسن لم يأخذ كلام الفتى وهو يقص عليه قصة حياته وماحدث له مأخذ صدق مطلق . . . حتى اذا كانت تحرياته قد تطابقت بشكل يدعو إلى الدهشة مع ماذكره الفتى عن نفسه . . . الا أنه ـ احتياطا ـ وضع فى اعتباره نسبة للمبالغة أو التحريف أو إخفاء مايشين أو يخجل . . . لكن الواقع الذى واجهه محسن بعد تلك الأيام الثلاثة التى قضاها الفتى وحده ، أكد له أن الفتى يصدقه القول الى حد يفوق التوقعات وكل تفاؤل ممكن !

ذلك لان شيئا غريبا قد حدث . . . فبالرغم من أن الفتى فى اليوم الأول واليوم الثانى ، قد فعل كل مايريد وكل ما يشتهى وكل ما يتمنى ، فإنه فى اليوم الثالث لم يغادر البيت اطلاقا !

ظن محسن فى البداية أن وعكة قد أصابته ، أو نوبة برد كانت تجتاح

القاهرة أيامها قد وصلت اليه ، غير أنه عندما ذهب فى الموعد ودق الباب فى ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى عمارات ميدان سليمان باشا . . . فتح له الفتى وكان فى كامل ملابسه ، حليق الذقن ، بادى الصحة . . . بل تبدو فى ملامحه راحة أضفت عليها نوعا من البهاء والسحر !

« عملت ايه فى الايام التلاتة اللى فاتوا ياليثى ؟ ! »

هكذا سأله محسن بعد أن وضع الفتى بينهما كوبين من الشاى المعد على الطريقة المصرية ، ولقد كان محسن يعرف بالطبع ما الذى فعله الفتى دقيقة بدقيقة ، بل كانت له ملاحظات بدت له شديدة الأهمية . . . منها أن الفتى كان يتصرف تصرف الأثرياء وأولاد الذوات . اكتشف محسن أن رأفت الهجان يهوى « الفخفخة » وأنه كان يتصرف فى كل مكان ذهب اليه وكانه ولد وفى فمه ملعقة من ذهب . . . وبدا لمحسن أن هذا الداء ، أو تلك العادة أو الهواية تمثل خطرا حقيقيا على خطته التى وضعها . ولذلك . . . فما إن حكى له رأفت مافعله فى الأيام الثلاثة التى انقضت ، حتى سأله :

« يعنى انت امبارح ماخرجتش من البيت ! »

« لا ! »

« ليه ؟! »

« بصراحة يامحسن بيه خفت ! »

« من ايه ياليثى »

« أول امبارح وأنا خارج من « البيروكية » الساعة واحدة بالليل ، لقيت الرجل اللى اسمه افرايم سلومون خارج من قهوة استانبيلوس ! »

كان البيروكية هذا - ولايزال - ملهى ليليافى وسط القاهرة ، كما كان مقهى وبار « استانبيلوس » يقع فى المبنى المجاور مباشرة عند التقاء شارع سليمان باشا وعبد الخالق ثروت . . . وكان محسن يعلم من هو ذلك الذى يدعى « افرايم سلومون » ، فهو ذلك الفتى اليهودى الذى التقى برأفت الهجان فى سجن الاسكندرية عندما كان هذا محتجزا بعد وصوله من ليبيا . . . بدا له الفتى على حق فى تحفظه ، كما بدا له ذكاء الفتى غريبا وحرصه أشد غرابة . . . وعلى كل ، فلقد سأله متحسسا الطريق اليه :

«وايه اللى يخوف فى انك شفت افرايم سلومون ! »

« مش عارف ! »

قالها الفتى مفكرا ، ثم عاد يقول :

« حسيت انه ممكن يشبط فيّه ؛ وممكن يسألنى اسمك الحقيقى ايه ؟ ! »

«افرض انه سألك ؟ ! »

« ما انت ماقلتليش على الاسم ده ! »

« وهو انت كان لازم تقوله ؟ ! »

« لا ماكانش لازم بس . . . . »

توقف الفتى عن الحديث ، ثم دق نظراته فى عينى محسن شارحا :

«أنا لما ما اقولش وأنا أعرف الاسم . . . غير لما ما أقولش وأنا ما اعرفوش » !!!

كان رد الفتى مفحما ، فعاد محسن يسأل ضاغطا :

« وده اللى خلاك ماتخرجش امبارح ؟ ! »

« أيوه . . . لانى بأحب اشتغل وأنا فاهم راسى من رجليه !! »

لم يستطع محسن أن يخفى دهشته ، رفع حاجبيه متسائلا :

« تشتغل ؟ ! »

« أكيد سعادتك عاوزنى فى شغل ! »

قال محسن فيما بعد - رغم كل وقاره وتجهمه الطبيعى - إنه لفرط إعجابه بما نطق به الفتى، كاد ينهض اليه ويقبله . . . ذلك أن « وعيه » بالأشياء بدا غريبا ولافتا للنظر وباعثا على الشك فى نفس الوقت . . .

طال الصمت بينهما حتى سأله الفتى واجفا :

« أنا غلطت فى حاجة يامحسن بيه ؟ »

«أيوه ! »

« شفت بقى . . . أنا قعدت امبارح فى البيت علشان ما أغلطش »

زغردت الفرحة فى قلب محسن ، فسأله :

« يعنى أنت عارف انت غلطت فى ايه ؟ ! »

« لوكنت اعرف ماكنتش سألتك ! »

« اسمع ياليڤى . . . انت المفروض جاى منين ؟ ! »

« من ليبيا ! »

« يعنى يهودى هربان ، وعلى الحديدة لأنك جيت بطولك وماكنتش لاقى تاكل إلا الأكل اللى كانوا بيقدموه لك فى القسم ! »

راح الفتى يحملق فى وجه محسن محاولا أن يستشف مايدور فى ذهنه ! »

« هو اليهودى المفلس يسهر فى البيروكية برضة ؟ ! »

لم يرد رأفت الهجان . كان يفكر فيما قاله محسن ، وكان يبدو عليه عدم الاقتناع بهذا المنطق !

« ساكت ليه ؟ ! »

«مستنى لما سعادتك تخلص ! »

«أنا خلصت ! »

«وأنا مش غلطان فى دى ! »

« ازاى ؟ ! »

« لأن سعادتك اللى اديتنى الفلوس ، ده أول هام . . . وتانى هام لأنى ما اعرفش حاجة عن اللى انت عاوزنى اعمله غير إنى يهودى وكان الله يحب المحسنين ! »

ابتسم محسن لمنطق الفتى الذى لم يتوقف ، بل تدفق فى الحديث :

« واليهود فيهم جاتينيو وصيدناوى ، وفيهم ليڤى كوهين اللى مش لاقى ياكل . . . وفيهم اللى ممكن يسهر فى البيروكيه ! »

قال محسن منهيا الأمر :

«على كل حال لازم تحط ده فى اعتبارك ، لازم تعيش على قدك ! »

مال الفتى نحو محسن هاتفاً :

« ياسعادة البيه قول لى انت عاوزنى اعمل ايه وانا اعمله ! »

« عاوزك تعرف إن دى آخر مرة أجى لك فيها الشقة ! »

بان الذعر على وجه الفتى فصاح :

« هو حضرتك كلفتنى بحاجة وانا قلت لأ لا سمح الله ؟ ! »

ابتسم محسن مطمئنا إياه :

«مش ده ياليڤى . . مش ده ! »

كان رأفت قلقا :

«أمال مش عاوز تشوفنى تانى ليه ؟ ! »

« أنا ماقلتش أنى مش حاشوفك ، أنا قلت إنى مش جاى الشقة دى تانى ! »

«مش فاهم ! »

«احنا حانتقابل فى مواعيد منتظمة . . . بس بعيد عن الناس ، مش لازم حد يعرف على الاطلاق اننا بنتقابل ! »

« آاااااه »

قالها الفتى بارتياح صارخ ، وعاد محسن الى الحديث :

« ده نمرة واحد . . . نمرة اثنين انت لازم تعرف ان لك عندى مرتب شهرى ! »

قال محسن هذا وانتظر أن يسأل الفتى عن هذا المرتب لكنه لم يفعل !

« انا حاديلك الفلوس اللى تقضيك وبس . . . ولازم تعيش بيها حتى ولو جعت ! »

«اللى تشوفه حضرتك . . . بس أنا عاوز أعرف حاجة ! »

« ايه هى ؟ ! »

« أنا مطلوب منى أعمل إيه بالضبط ؟ ! »

« ولا حاجة . . تعيش على انك يهودى ، تروح الحتت اللى بيروحها اليهود . . . وتفضل فى وسطهم تتكلم معاهم وتحاول تفهمهم كويس ، وتعرف هم عايشين ازاى ، وتعيش زيهم ! »

« بس كده ؟ ! »

« بس كده ! ! »

« بسيطة ! »

«بيتهيأ لك ! »

«مش فاهم ! »

اعتدل محسن فى جلسته وراح يتحدث بكلمات بطيئة واضحة حتى

تصل الى أعماق الفتى !

كان المفروض أن يعيش رأفت الهجان ، لا باسم يهودى فقط ، بل كيهودى أصيل . . . عليه أن يتردد على كل الاماكن التى يتردد عليها اليهود . . . ابتداء من المعبد وحتى قهوة « متاتيا » ، ونادى المكابى ، وقهوة وبار « استانبيلوس » الى تجمعاتهم الخفية والعلنية . . . عليه أن يحكى قصة عائلته وتشردها فى المغرب وما فعلته بها جيوش المحور . . . عليه أن يعرف أين كانت تسكن عائلة « حنانيا » المكونة منه ومن الأب بنيامين والأم راشيل والأخت جان التى تصغره بعامين والتى عرفت فى الحارة باسم « هند » . . . وان يعرف بدقة شديدة عمل أبيه والقرى التى كان يزورها ببضاعته ، والتجار الذين كان يتعامل معهم فى سوق الموسكى . . . لأن السيد « حنانيا » ـ كما قال بعض الجيران ـ كان يصحب ولده طوال إقامته القصيرة فى القاهرة ولايفارقه أبداً . . . وكان عليه أن يعرف أنه بالرغم من هجرته من مصر وعمره لايتجاوز السبعة أعوام فهو يذكر كل شىء بوضوح كاف ، فلقد كانت للفتى ذاكرة من حديد وذكاء من نوع غريب . . . ذاق الأمرين فى المغرب هو وعائلته جميعاً عندما اجتاحتها جيوش المحور ، مات أبوه ثم ماتت أمه وافترق هو عن شقيقته التى لايعرف إن كانت قد لحقت بأبيه وأمه أم أنها لاتزال على قيد الحياة . . . ثم لابد له من زيارة مراتع الطفولة بل والتعرف ـ ولكن فى حذر شديد حتى لايقع فى خطأ قاتل ـ على بعض أقرانه . . . وعليه أيضا أن يبحث عن عمل ، أى عمل مهما كان تافهاً لأن قروشه التى استطاع إخفاءها جد قليلة ، لاتمكنه الا من العيش على الكفاف . . . حلم عمره أن ينتقم من العالم كله ، خلاص اليهود الوحيد فى دولة اسرائيل والصهيونية هى اعظم فكر عرفته البشرية ،

الشرطة تطارده فى المغرب لأسباب خفية لايدلى بها لأحد مهما كانت مكانته ، كما تطارده الشرطة فى مصر مثلما طارده الانجليز فى ليبيا بلا رحمة !

عليه أن يترك نفسه تماما لقدره وسط اليهود . . . فى نادى المكابى يستطيع التعرف على انماط من مستويات اجتماعية مختلفة ، وفى المقاهى والبارات سيلتقى بنوعات عليه أن يعقد معها صداقات حذرة لأن سره الكبير يجب ألا يعرف . . . فى المعبد عليه أن يتعلم صلواتهم ، وأن يعرف ، وبدقة شديدة ، مذاهبهم الدينية ، والخلاف بين هذه المذاهب . . . عليه أن يكون متديناً ، وأن يواظب على زيارة المعبد ، وأن يحترم فى صرامة يوم السبت ، ثم يختار لنفسه « مقراً » فى النادى أو أحد المقاهى أو أحد البارات . . .

ثم هو سوف يلتقى بمحسن مرتين كل أسبوع . . . لن يكون اللقاء عادياً ، بل لقاء له خطة وأسلوب سرى وغريب ومعقد ، عليه أن يتبعه بدقة مهما كانت الظروف ، سيعلمه محسن كيف يعرف إن كان مراقبا أم لا . . . سيدربه على كيفية الافلات من أيه مراقبة . . . ولكن ، حذار حذار ، أن يلتقى به أو يتحدث اليه وهو مراقب حتى ولو كان ملتصقاً به . . . اذا لم يستطع الافلات من المراقبه فله أن ينصرف كى يلتقى بمحسن فى موعد آخر له جدول خاص سوف يلقنه اياه .

« ومين اللى حايراقبنى يابيه ؟ »

« البوليس طبعا »

« يا نهار اسود »

ابتسم محسن متسائلا :

« ايه مالك ؟ »

« إذا كان البوليس هو اللى حايراقبنى ، امال سيادتك تبقى ايه ؟ »

لم يرد محسن لكنه استطرد :

« ده مش حايراقبـك بس ياليفى . . . ده ممكن يقبض عليك كمان »

كان هذا فوق طاقة الفتى ، فوق قدرته على الفهم بهذه السرعة وهذا الهجوم الذى تعمده محسن حتى يختبر قدرته الفتى على مواجهة الاحتمالات والصمود أمام المفاجآت .

ولقد استلزم الأمر ثمانى ساعات كاملة . . . ثمانى ساعات بقيها محسن مع الفتى وهو يقص عليه قصة عائلة حنانيا ، وكيف يتصرف ، ومع من ، وماذا يفعل . . . كان يلقنه كل مايريد أن يلقنه إياه ، ويدربه على أسلوب اللقاء ويسأله ، ويعيد السؤال . . . ثم ان عليه ، فى النهاية ، أن يحفظ رقمى تليفونه فى البيت وفى المكتب . . . لا لا . . . ليس كتابة فهذا ممنوع منعا باتا ، عليه أن يحفظهما عن ظهر قلب ، لا للاستعمال ، بل للضرورة القصوى وعندما يصبح أمنه كله فى خطر . . . هل هذا مفهوم ؟ »

« مفهوم يابيه ! »

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء عندما أحس محسن أن الفتى قد تشبع تماما بكل ماأراد له أن يتشبع به ، نهض مستعدا للانصراف وهو يطلب إلى رأفت الهجان أن يتحرك على مهل وفى حذر والا يتعجل الأمور مهما بدت له سهلة وميسرة . . . وأن يكتب ، وكلما كانا على موعد ، كل كبيرة وصغيرة عما حدث له أو فعله أو رآه أو سمعه فى الأيام السابقة . . . ورغم الإجهاد الشديد الذى كان يصبغ

ماحول عينى رأفت الهجان بلون داكن ، فلقد كان يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، وعندما سأله محسن عن سر ابتسامته ، قال :

« لأنك قلت لى اسم أبويا وأمى وأختى ، ومقلتليش أنا اسمى الحقيقى ايه ؟ »

« ياكوف »

ساد الصمت لبرهة ، قال بعدها الفتى :

« ياكوف بنيامين حنانيا ! »

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتعرف فيها الفتى على الاسم الجديد الذى كان عليه أن يحمله لشهور قادمة . . . أما محسن ، فلقد كان موقنا الآن ، أن رأفت - أبدا - لن ينسى اسمه الحقيقى المزعوم بعد أن حجبه عنه طوال تلك الساعات وأشعل شوقه لمعرفته . . . حتى إذا ماذكره له ، غاص الاسم إلى اعماق الفتى ، واستقر هناك !

الفصل التاسع

استانيلوس

انقطع الحديث عندما دخل الشاب الريفى ليضع كأسين من عصير الليمون وفنجانين من القهوة المصرية أمام فراو سمحون وعزيز الجبالى الذى كف عن الحديث فور دخوله . . . ران الصمت وشمل الغرفة إلا من الأصوات الهامسة التى كان يصدرها ذلك الريفى فى حركته الرشيقة ، قبل انقضاء دقيقة انتهى من مهمته وغادر الغرفة ، ولكن الصمت ظل معلقا فوق رأسيهما !

بدا عزيز الجبالى مستغرقا فى التفكير وقد ركز عينيه فوق هدف غامض بدا وكأنه معلق فى الفضاء ، احترمت هيلين هذا الاستغراق وظلت ساكنة تكاد تكتم أنفاسها ، حتى مد يده نحو فنجان قهوته ، فمدت يدها إلى كأس العصير !

كان مايحدث لها الآن شيئا غريبا تماما ، شيئا وعته ورفضته لكنها لم تستطع إلا أن تستسلم له . . . شعرت فى تلك اللحظات وكأنها تحيا

حياة أخرى ، لم تكن مندمجة فيها كان يحكيه عزيز فقط ، بل كانت تحياه . . . فالحرارة التى راح هذا الرجل يحكى بها ، وتدفق الكلمات من بين شفتيه فى انجليزية سليمة ، واشاراته ، وإيماءاته ، وحركات يديه القليلة والشديدة التعبير ، جعلتها تشعر وكأنها تتنفس الأحداث ، فداخلتها نشوه غامضة صاحبها احساس شديد العمق بالراحة ، فاستسلمت . . . ولم تنبس ببنت شفة ، حتى عاد عزيز - بعد أن أشعل سيجارة واسترد أنفاسه - إلى الحديث من جديد !

•••

فى أواخر عام ١٩٥٤ ، كان حى مصر الجديدة شبه ارستقراطى ، تسكنه العائلات المتوسطة الكبيرة ، وعدد لابأس به من الأثرياء . . . وكانت بيوته ذات طراز خالص ، فالعمارات القديمة الواسعة الردهات والشرفات والسقوف العالية ، تلك التى بنتها الشركة البلجيكية التى كانت تملك هذا الحى بأراضيه ومرافقه وخط المترو الشهير الذى كان يربط الحى بوسط المدينة التجارية عند ملتقى شارع فؤاد بشارع عماد الدين ، كل هذا كان يجعل للحى مذاقا غريبا غير مصرى ، حتى تلك الفيللات التى بناها الأثرياء هناك ، كانت تتناثر فى تباعد يحيطها بوقار ذى طعم خاص . . . غير أن بعض العمارات الحديثة كانت قد بدأت فى الظهور مع قيام ثورة يوليو منذ مايقرب من عامين ، فلقد أحس المصريون - ربما لأول مرة - أن هذه الأرض أرضهم . . . وكانت الأرض صحراوية ورخيصة ، فزحف إليها بعض من يملكون مالا يسيرا ، وبدأت تلك العمارات فى الظهور وفى تكوين شوارع بكاملها فى تلك الضاحية !

ولذلك فإن شوارع مصر الجديدة فى تلك الأيام - بعد الغروب - كانت تبدو شبه خالية ، فأصحاب السيارات كانوا يضعون سياراتهم فى جراجات خاصة ، وكان المار فى أحد هذه الشوارع ، لايرى سوى سيارة أو سيارتين تقفان فى الطريق ، وغالبا مايكون اصحابها فى زيارة عائلية أوودية ، ولم يكن المار يلمح سوى شخص أو شخصين ، أو - فى الغالب - حبيبين يسيران فى خطوات متلكئة وهما يتهامسان !

كان أمرا طبيعيا أن تدخل الشارع - أى شارع - سيارة كبيرة أو صغيرة ، ثم تقف أمام إحدى العمارات ، وأن يتوقف دوران الموتور ، ثم لايغادر السيارة أحد . . . فان الاحتمالات هنا لم تكن تخرج عن حبيب فى انتظار حبيبته ، أو زوج فى انتظار زوجته التى تزور صديقة لها . . . وإذا ما كانت السيارة تقف فى آخر الشارع فان القادم من أوله كان يستطيع - بسهولة بالغة - أن يكتشف - قبل أن يبلغ السيارة - إن كان هناك من يتبعه أم لا .

كان الموعد فى التاسعة مساء !

وفى التاسعة إلا خمس دقائق كانت سيارة سوداء اللون أمريكية الصنع ، ذات ماركة شهيرة من تلك التى يركبها ذوو اليسار والأراضى من أهل مصر ، تدخل إلى واحد من هذه الشوارع فى سرعة عادية للغاية ، ولقد ظلت هذه السرعة تتناقص حتى توقفت السيارة امام عمارة جديدة بدت عالية جدا ، فلقد بلغ ارتفاعها خمسة طوابق !

وكان الجالس خلف عجلة القيادة ، هو محسن ممتاز .

مرت ثلاثة أشهر منذ امتنع محسن عن زيارة الفتى فى ذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا ،

وكانت لقاءاته بالفتى قد تعددت وتعقدت واتخذت اشكالا عديدة . . . فى كل لقاء من هذه اللقاءات ، كان محسن ممتاز يذهب اليه بسيارة ذات ماركة مختلفة ولون مختلف وحجم مختلف ، لكن الرقم الموضوع على السيارة أيا ماكانت ، لم يكن يتغير أبدا !

كان محسن ، طوال هذين الشهرين ، يدرب الفتى على اكتشاف المراقبة والإفلات منها ، فى بعض الأحيان كان يرسل وراءه من يراقبه عمدا ، ويبدأ الفتى فى المراوغة ، ويبدأ المراقب فى استعمال مهاراته لكن الفتى غالبا ماكان ينتصر ، فلقد أظهر قدرة فائقة بل وعبقرية ، على الاستيعاب ، كما أظهر قدرة فذة ، على تطوير الأساليب وادخال التعديلات عليها بما يتلاءم مع طبيعته . . . كان يمارس دور اليهودى فى اندماج واستغراق جعلاه فى بعض الأحيان « يساوم » محسن على أى شىء ، لم يكن يساوم لهدف ، بل كان يساوم للمساومة ، ثم يبتسم قائلا : إنه أصبح يهوديا أكثر من اليهود !

كان الفتى يتقدم بسرعة مذهلة وغير متوقعة . . . وكان تقدمه هذا مثار مناقشات مضنية بين محسن ممتاز وحسن صقر . . . ذلك الذى ترك أمر العملية كله لزميله وصديقه ومرءوسه منذ أن شاهدا معا ذلك الفيلم الأمريكى الذى كان يعرض فى القاهرة ، والذى كان قلقا أشد مايكون القلق لتطور الفتى السريع ، مطالبا محسن ، مع كل خطوة الى الأمام ، بأن « فى التانى السلامة » !

يقول عزيز الجبالى عن تلك المرحلة فى الأوراق التى كتبها :

« وهكذا كانت العملية تتطور وتتقدم نحو الهدف بكل أثقالها الخطيرة على كواهل كل الأطراف . . . حسن صقر ، قائد العملية

السرى ، والمسئول الأول عن مسارها ونتائجها وسلامة جميع القائمين عليها ، وهو لذلك يهيمن عليها ويقف على تفاصيلها ويساهم بالفكر فى كل شئونها ، ولاتتخذ خطوة من الخطوات إلا بموافقته وتصديقه . . . ومحسن ممتاز المدبر ، المنفذ ، قائد العملية وروحها ، دارس الظروف ، واضع المخططات ، الممسك بزمام الأمور ، والمحافظ على سلامة الاتجاه نحو الهدف . . . ثم مجموعة قليلة من ضباط العمل السرى الذين ساهموا بأقصى مايمكن من السرية والكتمان فى إحكام جوانب هذه العملية وبناء سواترها وتدعيم قصصها الوهمية الزائفة بما يجعلها تنطلى على الجميع فى داخل مصر وخارجها على السواء !!!

وأخيرا . . . سلاح العملية المتقدم واداتها الرئيسية . . . ذلك الذى كان رأفت ثم أصبح ليفى ، وهو الآن ياكوف !! »

كان محسن ممتاز فى تلك الليلة يحمل للفتى نبأ مهولا ، كان يستعد لمصارحته بالهدف من الأمر كله ، وهو ، قد شحذ كل ملكاته ، واستعد بكل أدواته لتلك اللحظة التى كان يعرف كم هى رهيبة ، وشاقة وصعبة !

أطفأ الأنوار وأبطل حركة موتور السيارة وراحت عيناه تعسان فى المكان بحذر . . . كان باقيا خمس دقائق ، وكان السكون شاملا ، والشارع خاليا ، وكل شىء يبدو على مايرام !

فى ذلك الوقت هبط الفتى من أحد قطارات المترو فى إحدى محطات مصر الجديدة النائية . . . كان قد اتخذ طريقه من وسط المدينة حتى تلك البقعة الصحراوية عبر عدة مواصلات ومسارات مركبة . . . وهو

فى حقيقة الأمر كان دهشا لهذا الافراط فى السرية كلما كان على موعد مع محسن الذى قال له ذات مرة عندما سأله عن السبب فى كل هذا ، بأنه من الأفضل لسلامته ألا يراه أحد من اليهود ، أو حتى من رجال الشرطة معه ... ولم يقتنع الفتى ، وانما ابتلعها ـ كما قال فيما بعد ـ « بمزاجه » ، وظلت دهشته متقدة ، وراح يتساءل :

سرية على من ؟ !

إن السرية هنا لايمكن إلا أن تكون على رجال الشرطة ، فكيف يحتاط رجل شرطة من رجل شرطة آخر ، ولماذا ؟ ! ... كان رأفت الهجان مقتنعا أشد مايكون الاقتناع بأن محسن رجل من رجال الشرطة له وظيفة خاصة باليهود ، وان كل ماسيطلبه اليه فى النهاية هو أن يأتيه بأخبارهم ، فلقد كان نشاطهم فى تلك الأيام يتزايد ، وكان قد امتد ـ فى مصر بالذات ـ من تهريب الأموال وتهجير الشباب ، إلى تدمير المنشآت !! ... أقنع الفتى نفسه بأن محسن انما يفرض كل هذا الذى يفرضه من كتمان ، وإعداد وتدريب وما الى ذلك ، لأن البلد فى عهد جديد بعد ان باد عهد آخر ، « والغربال الجديد له شدة » كما يقولون فى المثل العامى المصرى ... اقنع الفتى نفسه بهذا لأن محسن كان قد أصبح فى تلك الشهور القليلة يمثل بعثا جديدا لحياته ... ولطالما قارن بينه وبين أخيه الأكبر ، ذلك الذى ظل يضيق علية الخناق حتى لم يجد أمامه سوى الفرار من البيت ... وما ان ينتهى من المقارنة ـ رغم شدة محسن فى بعض الأحيان ونظراته المخيفة فى أحيان أخرى ـ حتى يسلم قياده له أكثر ، مقتنعا بأن كل ما يطلبه إليه هو الصواب بعينه !

كان الجو فى تلك الليلة باردا ، وقد حمل شتاء هذا العام الى

القاهرة ، مع الأعاصير السياسية التى كانت تجتاحها ، أعاصير طبيعية من رياح وأمطار ورعد وبرق وبرودة ... غادر الفتى المترو لكنه لم يغادر المحطة ، ضم طرفى سترته وانكمش منتظرا مغادرة كل الركاب ... ولم يكونوا سوى راكب واحد ، عبر الطريق هرولة واختفى فى الظلام وهو ينحنى الى الأمام متقيا دفع الريح ... مضى المترو مبتعدا ، واختنق صوت عجلاته فى صمت الليل الكثيف ، القى الفتى ببصره فى حرص من تدرب بقدر يكفى لممارسة هذه النظرات بحنكة .

كان يبدو عليه البؤس !!

هكذا كان يجب أن يكون ... كان حليق الذقن مصفف الشعر حقا ، لكنه كان شاحب الوجه رث الملابس رغم كيها بعناية ... دس يديه فى جيبى سرواله وألقى نظرة أخيرة على المكان ومضى يعبر الطريق ، فبدا جسده الذى ازداد نحولا وكأنه يتمايل مع هبوب الرياح ... بعد عشرين ثانية كان يدلف الى الشارع الذى توقفت فيه السيارة التى يقودها محسن ، فى خطوت منتظمة سار ... لكنه ، وعندما حاذى بيتا من البيوت ، توقف ومال محملقا فى رقم البيت المعلق وكأنه يقرؤه بصعوبة فى ضوء الطريق الخافت ... لكن عينيه كانتا هناك من حيث جاء ، حتى إذا اطمأن تماما إلى أنه غير متبوع ، اعتدل ، وسار نحو السيارة فى ثقة ... القى نظرة على الرقم ، ثم مال نحو الباب ففتحه ودلف الى الداخل !

. . . .

. . . .

منذ البداية وقع اختيار رأفت ومحسن على أن تكون قهوة وبار

« استانبيلوس » هى مقره الدائم . . .   ذلك أن المقهى ـ مثله مثل قهوة متاتيا ـ يتميز بطابع خاص . . .   كان مقهى استانبيلوس يحمل سمات المقهى المصرى الصميم ، فهناك لاعبو الطاولة والدومينو وأحيانا الشطرنج ، وكان هؤلاء لهم ركن خاص بهم لايرتاده الا اللعيبة . . . ثم هناك ركن لأصحاب المزاج الخاص ، يتجمعون فيه من العصر وحتى أذان العشاء يتسامرون ويتهامسون ويتناقلون النكات والأخبار والاسعار ، ثم ينصرفون فى جماعات صغيرة أو فرادى ، كل الى بغيته بعيدا عن الأعين . . . وكان هناك ركن ثالث للسياسيين ، هؤلاء الأصدقاء الألداء المختلفو المذاهب والمشارب من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، والذين لايكفون عن المناقشة لحظة ، ويتبارون بالاحداث والأحزاب التى الغيت ويعيرّ بعضهم البعض بالوقائع فى صيحات متشنجة ، لكنهم ، ومهما اشتد بينهم الخلاف ، كانوا دائما مايلتقون ، ودائما مايختلفون ، لكنهم يشربون الشاى والقهوة معا ، فى لقاء حميم من أجل مصر !

أما ركن الصحفيين والأدباء فقد كان مجاورا لركن السياسيين ، كان منهم من يحترف الصحافة أو الأدب لكنه يمارس السياسة ، ومنهم من كان يحترف السياسة ويتخذ من الصحافة وسيلة . . . وهؤلاء كانوا أكثر الأركان هدوءا ، وأشدها صخبا لو احتدمت المناقشة حول نظرية أو موقف أو قصيدة أو قصة نشرت فى الصفحة الأولى لاحدى الجرائد اليومية . . .

ثم يبقى بعد ذلك ركن اليهود !

كان ركن اليهود مجاورا لذلك الساتر الخشبى الأخضر اللون ،

والذى يفصل المقهى عن البار . . . وكان يتميز بشىء خاص تماما ، وهو أن كل فرد من رواده ، كان لابد أن تكون له علاقة بأحد الأركان الأخرى . . . كان منهم صحفيون ، ومنهم أصحاب مزاج ، ولعيبة طاولة ودومينو ، كما كان منهم التجار . . . لكن الواحد منهم ـ بالرغم من هذا ـ كان يعود دائما إلى ركن اليهود لممارسة حياته الحقيقية بين بنى جلدته . . . كان من المستحيل أن تجد واحدا منهم يعمل عملا واحدا ، أويشغل وظيفة واحدة ، وكانوا ـ جميعا ـ مهتمين أشد مايكون الاهتمام بكسب المال ! . . . كان هذا الركن يتميز بسحن أصحابه رغم أن منهم من ولد وعاش وتربى فى مصر ، لكنهم غالبا ماكانوا يتهامسون ويعقدون الصفقات ويختلفون ويتشاحنون وقد تعلو أصواتهم ويتبادلون الاتهامات ، ثم يعودون مرة أخرى متلاصقين ، حتى أطلق عليهم أحد أدباء المقهى اسم : « المتلاصقون المتنافرون » !

فى الساتر الخشبى الذى يقوم بين المقهى والبار باب صغير أسدلت عليه ستارة ذات لون داكن كى لاتظهر فيه البقع . . . جرسونات المقهى من ذلك النوع الذى يرتدى البنطلون الأسود والجاكيت الأبيض و « البابيون » يزين واجهة العنق ، فى الناحية الأخرى خلف الساتر الخشبى ، كان اسم البارمان هو « مانولى خرالامبو »،لكنهم جميعا كانوا ينادونه باسم « مانو » فقط ، أما نجم مقهى وبار « استانبيلوس » ، فلقد كان هو نفسه الخواجة « استانبيلوس » صاحب المقهى ، اليونانى الأصل ، ذا اللكنة التى كانت من علامات المجتمع المصرى فى ذلك الحين . . . فى البداية كان هناك استانبيلوس الأب ، ثم جاء من بعده « استانبيلوس » الابن الوسيم المتفجر بالحيوية والسخرية معا . . . ابن البلد الدون جوان العاشق للنميمة ، الخائض فى سير

كل رواده ، العارف بكل تفاصيل حيواتهم ومشاكلهم واحتياجاتهم ونقاط ضعفهم ونقاط القوة فى كل واحد فيهم ، صاحب النوادر الشهيرة ، والحسان اللواتى كن يقفن أمام المقهى بسياراتهن للحديث معه أو للتشاحن حول موعد أخلفه !!!

فى مقهى وبار استانبيلوس بدأ رأفت الهجان خطوته الأولى نحو عالمه الجديد والخطر . . . فى بداية الأمر لم يكن الأمر صعبا عليه ، فلم تمض أيام قليلة ، حتى عرف جميع رواد المقهى وزبائنه الدائمين ، خاصة اليهود منهم ، أن هذا الفتى النحيل ذا الملابس المتواضعة والعينين النفاذتين القلقتين ، اسمه « ليڤى كوهين » . . . هو يأتى وحده يشرب فنجانا واحدا من القهوة لايزيد ، يجلس ساهما ساعة أو ساعتين ، يحدث من يتحدث إليه فى أدب ورقة بالغين ، ولايتطفل على ركن أو شخص مهما طالت جلسته ، ثم ينصرف من حيث جاء !!!

غير أنه ما إن مر أسبوع وبعض أسبوع ، حتى عرف الجميع قصة هذا الفتى الغامض ! . . . عرفوها من « استانبيلوس » الأبن نفسه . . . ذلك أن هذا الشاب كان يعشق النميمة ويعتبرها إحدى الفضائل الانسانية ، كان يتلذذ بسماع الأخبار وروايتها فى نفس الوقت . . . وعندما أعيته الحيلة مع هذا الفتى اليهودى دعاه إلى كأس فى الناحية الأخرى من الساتر الخشبى . . . وفى بساطة ورقة قبل الفتى الدعوة ، ودلف مع « استانبيلوس » إلى حيث كان « مانو » خبيرا فى فك الألسنة المعقودة . . . والشىء الغريب الذى حدث ، أن صاحب المقهى انجذب بشكل غامض نحو هذا الفتى الذى ـ بعكس ماكان يبدو عليه ـ كان جذابا فى جلسته التى امتدت معه حتى حان موعد

اغلاق المقهى والبار أيضا . . . كان الفتى حاضر البديهة ، ابن نكته ، تقطر السخرية من بين شفتيه مرة كالعلقم ، ثمينة كالذهب . . . هو بلا أهل ، قتل الألمان أباه وأمه فى المغرب وافترق عن أخته التى لا يعرف عنها شيئا . . . ماله قليل ، ولهذا فهو يبحث عن عمل . . . ولقد تطوع « استانبيلوس » فى اليوم التالى وهو يقص قصة الفتى ، بسؤال بعض « البكوات » الذين كانوا يستطيعون النظر فى الأمر ، وايجاد عمل لهذا الفتى البائس ! . . . غير أن مصادفة غريبة حدثت فى اليوم التالى .

جاء ليفى كوهين ـ أو رأفت الهجان ـ فى موعده ، واحتل نفس المقعد الذى تعود أن يجلس عليه بجوار الباب المطل على شرطى المرور فى ركن الشارع . . . ولقد أحس الفتى ، منذ خطوته الأولى داخل المقهى بأن كل الأنظار قد اتجهت اليه فأيقن أن « استانبيلوس » الابن قد قام بمهمته خير قيام ، وان كل رواد المقهى قد عرفوا الآن قصة حياته المزعومة . . . طلب فنجانا من القهوة ، ماإن وضعه الجرسون أمامه حتى اندفع من الباب شخص اتجه نحو ركن اليهود ، حيث كانت هناك مجموعة من بضعة أشخاص انضم اليهم . . . اختار الوافد مقعدا واستدار كى يجلس عليه لكنه لم يفعل ، حملق فيما أمامه صائحا :

« مين ؟ ! . . ليفى كوهين ؟ ! »

ابتسم الفتى فى ترحيب خجول ، وتقدم منه « افرايم سلومون » ـ ذلك اليهودى الذى التقى به فى سجن الاسكندرية ـ مرحبا ، فنهض الفتى كى يصافحه فى حرارة ، هم افرايم بالحديث لكن الفتى ضغط

على يده ضغطة خفيفة ، فانتبه افرايم وتوقفت الكلمات خلف شفتيه ، دعاه الفتى إلى فنجان قهوة فرحب . . . دار الحديث بينهما عاديا ، السؤال عن الأحوال وكيف تسير ، ثم همسات وغمغمات عن المصريين والحكومة وماتفعله وماتنتويه ثم ـ وكأن افرام تذكر شيئا ـ سأل الفتى بغتة :

« هم كانوا ماسكينك ليه ؟ »

لم يرد الفتى بل تلفت يمنة ويسرة فى تأفف ، ثم أمسك بدفة الحديث وراح يشكو الحال قائلا : إنه يبحث عن عمل منذ أُفرج عنه دون جدوى . . . لكن افرايم عاد إلى الإلحاح :

« هم الانجليز مسكوك فى ليبيا ليه ؟ ! »

كانت قصص الصراع بين اليهود فى فلسطين وبين جنود الامبراطورية البريطانية لاتزال تملأ الأذهان ، فاسرائيل ـ فى ذلك الوقت ـ لم يكن عمرها يتعدى ست سنوات ، التفت الفتى نحو افرايم متسائلا فى سخرية :

« هم الانجليز بيمسكوا اليهود ليه ؟ ! »

أراد افرايم الاستطراد فى الحديث لكن الفتى نهض وقد بدا عليه الضيق ، وضع قرشين على المائدة مستأذنا بأنه على موعد مع رجل وعده بعمل . . . ثم رحل عن المقهى مهرولا وكأنه يفر من شىء غامض !

لم ينتبه رواد المقهى لما حدث ، فلقد تلهت كل مجموعة بما كانت تتلهى فيه كل ليلة . . . حتى ركن اليهود ، كان يبدو على رواده وكأن شيئا مما حدث لايعنيهم . . . أما افرايم سلومون ، فكان عندما عاد إلى المجموعة ، شارد الذهن ، ينظر إلى حيث انصرف الفتى وقد استغرق فى التفكير ، وعندما سأله أحدهم :

« ايه الحكاية يا افرايم ؟ ! »

راح يقص عليهم قصة لقائه بالفتى فى سجن الاسكندرية ، وكيف حير رجال الشرطة هناك ... لقد جاء مرحلاً من ليبيا لكن التهم التى كانت موجهة إليه لم تكن من الانجليز فى ليبيا فقط ، بل من امريكا وانجلترا وألمانيا وكان البوليس الدولى يبحث عنه ... جاء من ليبيا يحمل اسم « ليفى كوهين » لكنه كان يصرخ ويهدد طالبا القنصل الامريكى فى الاسكندرية ، ولم ينطق كلمة بالعربية إلا معه وعندما انفردا وأطمأن أنه يهودى مثله ... حاول أن يعرف التهمة الموجهة اليه ففشل ، وعندما سأله عنها نصحه الفتى بالابتعاد عنه حتى لا يصيبه الضرر ... استمع الرفاق الى افرايم جيدا ، ثم قصوا عليه ما استطاع استانبيلوس أن يستخلصه من الفتى على يد مانولى وكئوسه المجانية فتطابقت الأقوال مع الأقوال ، وعندما انفضت الجلسة فى آخر الليل ، كان الحديث مازال يدور همسا بين اليهود حول الفتى ومن يكون ... لكن افرايم سأل فجاة :

« هو بييجى هنا من أمتى ؟! »

« من أسبوعين ثلاثة ! »

« وبييجى كل يوم ؟ ! »

« وبيقعد لوحده ! »

وهكذا انصرفوا جميعا ، وقد ترك الفتى فى نفس كل منهم تأثيرا واضحا وغامضا فى نفس الوقت !

. . . .

. . . .

فى اليوم التالى ، وقبل الموعد الذى تعود الفتى أن يرتاد فيه المقهى ، كان افرايم سلومون هناك ... كان يبدو عليه الترقب والقلق ، حتى إذا هلّ الفتى عند الباب نهض إليه هذا مرحباً ، سائلا إياه فى اهتمام ولهفة لم يحاول إخفاءهما ، إن كان قد وجد عملاً بالأمس ، فجلس الفتى مكتئب الوجه بادى الارهاق وهو يقول :

« لو كنت لقيت شغل ، ايه اللى كان حايجيبنى هنا دلوقت » !

« انت عاوز تشتغل ايه ؟ ! »

وتبسم الفتى فى سخرية وهو يقول :

« أى حاجة ! »

« تشتغل قومسيونجى ؟ ! »

فى لهفة استدار الفتى نحوه متسائلا :

« مع مين ؟ ! »

« مع أخويا ! »

وهكذا ، تحققت خطوة هامة فى الخطة الموضوعة ، تحققت قبل أن تكتمل ثلاثة أسابيع !

. . . .

. . . .

كان تاجر الساعات « موريس ليفى » مشهورا فى ميدان العتبة الخضراء باسم « سوسو » ، فلقد ناداه أبوه وأمه بهذا الاسم فى الصغر فظل ملازما له حتى آخر أيام حياته ... كانت تجارة موريس رائجة ، فرغم أن كل من تعامل معه كان يشكو من حرصه ... ويهوديته ، فقد كان أمينا لا يغش أبدا ، مما جعل زبائنه والمتعاملين معه

يتمسكون بعلاقتهم به . . . وكان موريس ليڤى هو شقيق افرايم سلومون ـ فشلت كل المحاولات التى بذلت للبحث عن السبب فى اختلاف اسمى الشقيقين ، وليس هناك تفسير سوى ولع اليهود فى تلك السنوات بتغيير اسمائهم لأسباب لم تعد خفية !! ـ وكان افرايم ، اثناء المشوار الذى قطعه مع الفتى من شارع سليمان باشا ، حيث مقهى وبار استانبيلوس ، الى ميدان العتبة الخضراء حيث محل سوسو الساعاتى ، سيرا على الأقدام ، يلح على الفتى كى يعرف منه حكايته ، وفى اقتضاب وتذمر قص عليه الفتى نفس القصة التى حكاها للخواجة استانبيلوس ، ولم يكف افرايم عن الالحاح ، فراح يسأله عن السبب الذى من أجله رحله الانجليز من ليبيا . . . هنا توقف الفتى عن السير مستديرا نحو افرايم الذى هتف :

« انت خايف منى ياليڤى ؟ ! »

« أنا اسمى مش ليڤى !! »

« ماأنت قلت لى فى اسكندرية ! »

« أيوه . . . بس مش حاقول لك الانجليز رحلونى ليه ؟ »

هم افرايم بالحديث فلاحقه الفتى :

« لأن المصريين لو عرفوا حايدخلونى السجن تانى . . . وانا تعبت بقى من التلطيم فى السجون ! »

عادا الى السير من جديد ولقد لفهما الصمت ، بعد بضع خطوات كان يغمغم كمن يتحدث إلى نفسه :

« أنا تعبت وعاوز أعيش لحد مانشوف آخرتها ايه !!! »

وهكذا وبهذا المنطق ، فلقد وافق فورا ودون مناقشة ، عندما عرض عليه الخواجه سوسو ـ أو موريس ليڤى تاجر الساعات ـ ان يقدمه لتجار

الجملة لتسويق بضائعهم ، وان يضمنه عندهم ، على أن تكون له نسبة من ارباحه !

وتحققت الخطوة الثانية فى الخطة الموضوعة !

. . . .

. . . .

الذى لاشك فيه أن الفتى كان ذا موهبة خارقة فى التعامل مع الناس من ناحية ، وفى تقمص الشخصيات من ناحية أخرى . . . فبعد أسابيع قليلة لاتتعدى أصابع اليد الواحدة ، كان قد حقق نجاحاً تجارياً لافتا للنظر . . . كان هناك ـ أولاً وقبل كل شىء ـ تلك المساندة التى ساندها له يهود مصر من التجار الكبار والصغار على السواء ، انتشرت قصته بينهم بسرعة غريبة أكدها الفتى باصراره على عدم الحديث عن هذا الموضوع أو ذكر أى شىء عن اسمه الحقيقى . . . وكانت هناك ثانيا براعة الفتى فى التأثير على من يلتقى بهم ، واتقانه الشديد لدور المطارد المتخفى ، ولقد تحقق هذا فى صورة مكتملة ، عندما قبض عليه ذات مساء وهو جالس فى مقهى وبار « استانبيلوس » !

كان الفتى قد عرف أن هذا سوف يحدث قبل أيام عندما طلب إليه محسن أن يتحصن فى الأيام القليلة القادمة بمزيد من الملابس الثقيلة ، فلما سأله الفتى ان كان هناك تنبؤ بموجة باردة فى الطريق ، ضحك محسن قائلا ان هناك تنبؤا بموجة من الاعتقالات لبعض اليهود المشتبه فى نشاطهم !

لم يكن القبض على اليهود يتم فى مصر لمجرد الاضطهاد . . . واذا

كانت البلاد قد مرت إبان عام ١٩٥٤ بصراع سياسى عنيف ، حتى استقر الأمر أخيراً بازاحة اللواء محمد نجيب عن القيادة ، وتولى الضباط الشبان لأمور الثورة ، فلقد كان هناك ـ على الجانب الأخر من الحدود ـ صراع سياسى من نوع آخر منذ استقالة «ديفيدبن جوريون» من رئاسة الوزارة الاسرائيلية .ووزارة الدفاع فى عام ١٩٥٣ ، وتولى موشى شاريت رئاسة الحكومة ، وبنحاس لافون وزارة الدفاع . . . كان بنحاس لافون تواقا لأن يصنع شيئا ويثبت وجوده فى مواجهة خصومة السياسيين ، وكانت اسرائيل فى ذلك الوقت تبذل قصارى جهدها كى تدمر أى علاقة بين الضباط الشبان ، وخاصة ذلك البكباشى الشديد الوطنية والاعتزاز بوطنه جمال عبد الناصر ، وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة بعد أن أصدر عبد الناصر أوامره بمنع السفن الاسرائيلية من المرور فى خليج العقبة . . . كان واضحا أن مجموعة الضباط الشبان ليسوا من هذا النوع من الحكام الذين عرفتهم مصر قبل الثورة ، وعلى هذا ، فلقد قرر لافون الاستعانة بـ « مجموعة للعمليات الخاصة » من الجيش الاسرئيلى كى تدمر بعض المنشآت الامريكية فى القاهرة . . . ولقد وصلت المجموعة إلى القاهرة فعلا ، ونفذت العملية التى اشتهرت فيما بعد تاريخيا باسم « فضيحة لافون » ,لكن الشرطة المصرية استطاعت ان تقبض على افرادها ، وان تكشف اللعبة بكاملها . . . وهكذا توتر الجو بين الحكومة المصرية وبين اليهود المقيمين فى مصر ، وخاصة هؤلاء الذين لم يكونوا يحملون الجنسية المصرية . . . ولهذا فلقد تعددت حملات الاعتقال لليهود فى أواخر هذا العام ، وكان يتم ترحيل غير المصريين منهم ، بينما اليهود المصريون كانوا ـ اذا ماقبض عليهم وأفرج عنهم ـ يتقدمون فورا

بطلبات للهجرة ، منها ماكان يقبل ، ومنها ماكان يرفض لأسباب أمنية !!

كان الفتى قد أصبح يكسب مايكفية من المال ، وعن طريقه كان « سوسو » تاجر الساعات يجنى أرباحا هو الآخر دون جهد يبذله ، وتوطدت علاقة الفتى بعدد كبير من يهود مصر ، أصبح يعرفهم ويعرفونه ، وعقد بضع صداقات مع بعض التجار . . . ولقد دعاه أحدهم ذات مرة إلى العشاء مساء يوم الجمعة فرفض فى غضب ، قال إن « السبت » يبدأ فى مغرب الجمعة وينتهى فى مغرب السبت ، وعرف الجميع أنه متدين حقا ، وأنه لايذهب الى المعبد لمجرد التظاهر فقط كما يفعل الكثيرون . . . كان الفتى ـ فى البداية ـ يتردد على المعبد بغير انتظام وعندما بدا أن أحواله المالية قد استقرت ، راح يتردد عليه بانتظام ، ويتحسس الطريق الى أصول العبادة عند اليهود ، ويقرأ فى التوارة ويتعرف على المذاهب . . . وهكذا ذاع صيته بينهم واشتهر أمره حتى كان ذلك المساء .

كان رأفت يجلس فى مقهى استانبيلوس كعادته ، وبجواره يجلس افرايم سلومون يجاذبه أطراف الحديث ، كانت حادثة تفجير بعض المنشآت الأمريكية بواسطة ثلاثة من مجموعة العمليات الخاصة الاسرائيلية لاتزال تزكم الأنوف ، كان الفتيان الثلاثة ـ افراد المجموعة ـ قد حوكموا وحكم عليهم بالاعدام . . . وكان طبيعيا أن يتحول أمثال هؤلاء إلى ابطال اسطوريين بالنسبة لليهود ، كما كانت الايماءات التى القاها رأفت على مسامع افرايم قد الهبت خياله ، فراح يطارد الفتى ـ كلما التقى به ـ بسؤاله عن حقيقة اسمه وعما فعله

بالانجليز فى المغرب ، عندما توقفت سيارة « البوكس » ـ وهو الاسم الـذى كان يطلق على نوع معـين من سيارات الشرطـة يجمـع فيه المعتقلون ـ أمام المقهى ، وهبط من « البوكس » ضابط وبضعة جنود القوا القبض على رأفت وافريم معاً .

بدا الفتى رابط الجأش فى مواجهة المعاملة القاسية والسيئة التى كان يلقاها من الجنود والضابط بشكل خاص . . . بينما كان افرايم ـ الذى لم توجـه إليه تهمـة أو إهـانـة أو سؤال ـ يرتعـد فرقاً . . . لم يحملهما « البوكس » الى القسم كما هى العادة ، بل حملهما الى وزارة الداخلية حيث أودعا غرفة منعزلة جلسا فيها قرابة ساعتين دون أن يفتح الباب أو يوجه إليهما سؤال . . . بجوار نافذة مطلة على الطريق وقف الفتى محملقاً فى الشارع بادى السهوم ، اقترب منه افرايم مرتجفا وهو يسأله لم جاءوا بهما الى الوزارة وليس القسم كما هى العادة ؟ . . . استشعر افرايم المسكين خطراً داهما فى مصاحبة هذا الفتى الصامت ، راح يلح عليه متسائلا عما سيفعلونه بهما ، ظل رأفت صامتا لفترة ثم استدار نحو افرايم قائلا فى صوت خافت :

« اسمعنى كويس ، لوحصل لى أى حاجة ، لازم تعرفوا أنا مين ! »

وصل افرايم إلى ذروة الاستثارة .

« أنا اسمى ياكوف حنانيا ! »

ساد الصمت بينهما لثوان ، عاد رأفت بعدها يغمغم :

« اسمى ياكوف بنيامين حنانيا ! »

لفهما الصمت مرة أخرى ثم جاء صوت الفتى :

« أنا مولود هنا أنا وأختى ، أبويا قبل الحرب هاجر بينا على المغرب

لكن الألمان اصطادونا هناك ! »

التمعت عيناه الآن ببريق مخيف وهو يقول من بين أسنانه :

« لكن ياإحنا ياهم . . . ياإحنا ياهم ! »

ثم لم يقل الفتى شيئا بعد هذا ، عاد الى صمته ، كما كان افرايم هو الآخر قد غرق فى الصمت لكن صدره كان يغلى بالتساؤلات عمن يكون « ياكوف بنيامين حنانيا » هذا ، وما الذى يفعله أو سيفعله ، صفق قلبه طربـا وزايله الخـوف فهو الآن فى صحبة بطل لايستهان به . . . انتصف الليل فطلب الإثنان للمثول بين يدى ضابط شرطة كان فى انتظارهما يقلب أمامه فى الأوراق ، ألقى على كل منهما أسئلة تبدو تقليدية ، لكنه توقف عن السؤال وهو يرفع عينيه نحو الفتى ساخرا :

« قلت لى بقى اسمك إيه ؟ ! »

«ليفى كوهين ياسعادة البيه ! »

نهض إليه الضابط مستفزا وهو يصيح :

« ليفى كوهين والا جون دارلنج ؟ ! »

نطق الضابط باسم « جون دارلنج » فكاد افرايم سلومون يسقط مغشيا عليه ، كان فى هذا الاسم الإجابة على تساؤلات افرايم وغيره من اليهود ممن كانوا يتساءلون بينهم وبين انفسهم عمن يكون ليفى كوهين ؟ !

. . . .

. . . .

فى تلك السنوات كان« جون دارلنج » هذا قد تحول وسط يهود مصر إلى اسطورة من الأساطير . . . كان اسمه الحقيقى ـ الذى لم يعرفه

أحد إلا بعد سنوات ـ هو « ابراهام دار » ، وهو واحد من عملاء اسرائيل الشديدى الخطر ، تخصص وبرع فى أعمال التجنيد والتخريب والتجسس وتهريب الأموال وتهجير اليهود الى اسرائيل .

جاء ابراهام دار ـ أو جون دارلنج ـ الى مصر لأول مرة فى عام ١٩٥٢ ، وكان كل هم اسرائيل هو استجلاب أكبر عدد من يهود العالم ، وتجنيد الشبان منهم فى البلاد التى يرتعون فى خيرها وينتمون اليها لأعمال التخريب أو التجسس . . . فى مصر إلتقى ابراهام دار بفتاة يهودية هى « مارسيل نينيو »، ووقع كل منهما فى حب الأخر ، واستطاعا معا القيام بعدد لابأس به من العمليات السرية ، وتهريب جزء كبير من ثروات اليهود المصريين إلى الخارج ، بل . . . وتجنيد بعض شباب اليهود الذين يتمتعون بالجنسية المصرية ، وإرسالهم سرا إلى إسرائيل كى يتدربوا فيها على أعمال التخريب بالذات ، ثم إعادتهم الى مصر مرة أخرى . . . وكان من ضمن الشبان الذين جندهم إبراهام دار الجاسوس الاسرائيلى الشهير « ايلى كوهين » الذى ولد فى مصر ، وزرع فى أمريكا الجنوبية واعدم فى ميدان عام فى دمشق ، بعد ذلك بعشر سنوات بالضبط !

وبلا لف أو دوران دوخ « جون دارلنج » الشرطة المصرية وشرطة بعض بلدان أوربا دون أن يتمكنوا من القبض عليه . . . لم يكن أحد يعرف وقتها من هو ، ماشكله ، ومااسمه الحقيقى ، وكيف يبدو ؟ . . . لكن قصصه كانت تملأ آذان اليهود ورؤوسهم !

. . . .

. . . .

فى تلك الليلة أفرج عن « افرايم سلومون » واستبقى رأفت الهجان ـ اوليفى كوهين ـ فى الحبس !

غادر افرايم مبنى وزارة الداخلية ، ليصبح لبفى كوهين قبل أن يطلع النهار ، أسطورة الجالية اليهودية كلها ، وشهد مبنى وزارة الداخلية أسرابا من الفتيات اليهوديات وهن يحملن الطعام والملابس والحلوى لرأفت الهجان ، أوليفى كوهين ، أو ياكوف بنيامين حنانيا . . . الذى ربما يكون هونفسه « جون دارلنج » !!

ونحن لانستطيع الجزم بأن ضابط الشرطة عندما نطق باسم « جون دارلنج » أمام افرايم سلومون قد نطقه عفوا ـ كما يؤكد عزيز الجبالى فى اوراقه نقلا عن محسن ممتاز ـ أو أنه قد لُقن ـ بشكل ما وربما بأسلوب غير مباشر ! ـ أن يذكر الاسم منسوبا إلى الفتى . . . وعلى كل الأحوال ، وإذا كان الأمر مصادفة أم أنه كان مدبرا ، فلقد انفجر هذا الذى حدث فى أوساط اليهود فى مصر انفجارا مدويا ، وأصبح الفتى بين يوم وليلة ، بطلا يهوديا قوميا !

وتحققت الخطوة الثالثة فى خطة محسن ممتاز !

. . . .

. . . .

عندما خرج رأفت من الحجز بعد بضعة أيام ، كان يبدو منهكا مجهدا ، لكنه استقبل من الجالية اليهودية بالقاهرة استقبالا فاق كل التوقعات ، وفتحت له كل الأبواب ، ووجد ترحيبا من الجميع ، وعروضا سخية ، لكنه بصرامة المناضل ، رفض الارتكان إلى الآخرين ، وعاد يمارس عمله ككمسيونجى رغم أنه قدم ـ مثله مثل كل

اليهود المصريين الذين يقبض عليهم ـ طلبا للهجرة ، ولكن الطلب رفض ، وأحدث رفض الطلب دويا آخر وسط الجالية ، وارتفعت أسهم رأفت أكثر !

فى تلك الأيام كم ضحك محسن ممتاز مع حسن صقر وهما يتحدثان عن الحسان اللواتى التففن حول الفتى فى تهافت وتهالك جعلاه يشعر بالامتلاء ، فلقد كانت نقطة ضعف الفتى هى النساء !

فى أواخر عام ١٩٥٤ انتحر واحد من افراد مجموعة العمل الخاصة الذين قبض عليهم فى عملية لافون ، وفى مستهل عام ١٩٥٥ نفذ حكم الاعدام فى الاثنين الآخرين . . . فارتفعت أسهم الفتى وذاع اسمه فى كل مكان وتخطى هذا الاسم ـ بالتأكيد ـ الحدود الى الخارج ، وتكرر إلقاء القبض عليه ، وتكرر تقديمه لطلبات الهجرة وتكرر الرفض !

حتى كان يوم دخل فيه رأفت إلى إحدى الوكالات الكبيرة فى شارع الأزهر ، كان صاحب الوكالة واحدا من أثرياء اليهود الذين يشار اليهم بالبنان ، وكان رأفت ذاهبا لعمله عندما قيل له إن « الخواجة » يريد أن يراه !

كان الفتى قد تعود ألا يطلب أحد من كبار اليهود مهما كان الأمر ، هو يذهب الى الوكالة أو المحل فيحاسب ويحاسب وينهى عمله مع الموظفين ويعقد معهم الصداقات ثم يغادرهم حاملا حقيبته المكدسة بالعينات والبضائع . . . ولم يكن قد التقى بهذا الخواجة من قبل سوى مرة واحدة وكانت مصادفة ، ورغم صيته المدوى فلقد تجاهله الخواجة فتجاهل هو الخواجة بدوره . . . فى ذلك اليوم تظاهر أمام الموظفين

بالدهشة وإن كان قلبه يزغرد بالفرحة ، كان محسن يقول له إن « واحد من الكبار » لابد أن يطلب مقابلته ذات يوم ، وها هو ذا الواحد يطلبه فيتبع الموظف وسط بالات الاقمشة وصناديق البضائع المكدسة فى الممرات والحوش الخلفى للوكالة ، حتى نفذ من باب الى ممر شبه مظلم فى نهايته باب نقر عليه الموظف فى رفق ،ثم دلف الى الداخل وانتظر الفتى فى الخارج ، سمع همهمة جاء بعدها صوت رفيع حاد ثاقب يقول :

« خليه يدخل ! »

ظهر الموظف عند الباب مفسحا الطريق لرأفت الذى خطا إلى غرفة واسعة قد امتلأت ـ رغم قدم الجدران البادى ـ بكل ماهو ثمين . . . سمع صوت الباب يغلق من خلفه فى رفق ، وقعت عيناه على رجل صغير الحجم حتى لكأنه يتلاشى غارقا فى المقعد الهائل خلف مكتب كبير المساحة ، ثقب صوت الرجل الحاد أذنه :

« تعالى ياياكوف اقعد قدامى هنا علشان اشوفك كويس ! »

اضطرب قلب الفتى فها هو اسمه الحقيقى المزعوم يكرس عند قمة المجتمع اليهودى فى مصر ، وهاهى كل توقعات محسن ممتاز تتحقق . . . فى تؤدة من يعرف قدر نفسه خطا الفتى نحو مقعد مواجه للمكتب وهم بالجلوس عليه ، لكن الصوت الحاد عاد يثقب أذنه :

« لأمش هنا . . . تعال على الكرسى ده علشان أشوفك كويس ! »

على المقعد الذى أشار اليه الرجل جلس رأفت فى مواجهة مصباح كهربائى كبير فرق المكتب ، غمر الضوء وجهه والتفت نحو الرجل

الذى كان وجهه يقع عند أطراف دائرة الضوء فإذا به عجوز تجاوز الستين ، وإذا عيناه زرقاوان باردتان كالثلج ، راح الفتى يتملاه كما كان الرجل يحملق فى وجهه فى صمت . . . إذن فهذا هو الخواجة صروف » ثعلب التجارة فى الأزهر والموسكى المشهود له بالكفاءة من الجميع ... عاد الصوت يثقب سكون الغرفة :

«أنت مين ؟ ! »

ركض قلب الفتى بين ضلوعه ، فها هو يواجه امتحانا عسيراً ، ابتسم ساخراً وهو يقول :

« ماانت ناديتنى باسمى ياخواجة ! »

انغرست نظرات الرجل الثلجية فى لحمه ولم ينطق ، فعاد الفتى يقول :

« ياكوف بنيامين حنانيا ! »

إزداد بريق العينين الثلجيتين ولزم الرجل صمتا ثقيلا جثم على صدر الفتى فاخرج سيجارة واشعلها وراح يتلهى بما فى الغرفة من اثاث وتحف ، طال الصمت لدقيقة وبعض دقيقة حتى داخل الفتى قلق غامض ، أحس ـ لسبب ما ـ وكأن الأرض تنفتح تحت قدميه إلى هوة بلا قرار ، لمعت فى ذهنه حقيقة غابت عنه ، فهل غابت عن محسن أيضا ؟ ! . . . إذا كان أبوه المزعوم الخواجه « بنيامين حنانيا » تاجرا متجولا فى ريف مصر ، فانه بالقطع كان يشترى بضائعه من أمثال هذه الوكالة وهذا الخواجه صروف المحملق فيه المتمعن فى ملامحه ، الدارس لوجهه . . . فهل كان الخواجة يعرف أباه المزعوم ؟ !

« أنا قلت لأبوك يقعد هنا أحسن له ، مارضيش يسمع الكلام ! »

دق قلب الفتى فى عنف أوجع ضلوعه ، اجتاحته سعادة بالغة

عقدت لسانه تماما ، كان يعلم علم اليقين أن جملة الخواجة صروف هى جواز سفره إلى عالم اليهود المجهول والغامض . . . وعندما كان يغادر الوكالة إلى شارع الأزهر بكل ضجيجه وأصواته ، كان يشعر بالزهو يملؤه . . . كان يعرف الآن ، أنه اجتاز الامتحان الصعب ، بتفوق لاشك فيه !

•••

وهكذا . . . عندما التقى الفتى بمحسن فى ذلك المساء من أمسيات الأيام الأخيرة من يناير عام ١٩٥٥ ، فى تلك السيارة السوداء ـ الامريكية الصنع ذات الماركة التى اشتهرت فى مصر فى تلك الأيام ـ كان يحمل معه هذا النبأ وهو يكاد يرقص طربا وفرحاً وفخراً . . . وكان أيضا يحمل طلباً محدداً !

ولقد فشلت كل المحاولات لمعرفة الأماكن التى كان محسن يلتقى بالفتى فيها غير السيارة . . . لكن الأمر المؤكد أن محسن ـ فى نفس تلك الليلة ـ كان يحمل هو الآخر إلى الفتى خبراً هاما . . . وكان الخبر فى حاجة الى حوار قد يطول ، ومواجهة قد تلزم ، لذلك . . . فلقد قاد محسن السيارة فى دورة مركبة ، حتى إذا أصبح فى ميدان «سانت فاتيما» الشهير بمصر الجديدة ، انحرف يمينا واتخذت السيارة فى الشارع المرصوف ـ الخالى إلا من بضع عمارات متناثرة تفصل بينها مساحات خالية من الأرض الصحراوية ـ مسارها فى سرعة راحت تتباطأ تدريجيا حتى وصلت إلى بيت فى آخر الشارع مكون من طابقين فقط . . .

فى الطابق العلوى من هذا البيت استقبلهما «عم عبدة» بحرارة ناعسة ، فلقد كان الرجل نائما عندما وصلا ، صنع لهما كوبين من

الشاى ثم استأذن لمشوار يشترى فيه بعض اللوازم ، وانصرف .

كان رأفت قد تعود أن يحمل معه ، كلما كان على موعد مع محسن ، تقريراً عما فعله وعما حدث طوال الأيام التى انقضت منذ لقائه الأخير به . . . وكان محسن فى كل مرة ، يضع التقرير فى جيبه ثم يطلب إلى رأفت أن يقص عليه ماحدث بالتفصيل . . . كانا طوال الطريق صامتين ، وبينما كان الفتى يبدو قلقا متعجلا يريد أن يفضى بما لديه من أنباء عن لقائه بالخواجه صروف ، كان محسن يبدو صامتا جامدا كتمثال . . . وعندما انصرف « عم عبده » أخرج رأفت التقرير وقدمه الى محسن قائلا :

« دلوقت اقدر أقول لك أنى جاهز !! »

دس محسن التقرير استعدادا لجولة طويلة من حوار كان يعلم مدى مشقته :

« جاهز لاية ؟ ! »

فى زهو صاح الفتى :

« جاهز انى أجيب لك أخبار اليهود اللى فى مصر واحد واحد ! »

انتظر الفتى أن يدهش محسن ، أن يسأله عما حدث وماذا يقصد . . . وكان محسن الآن يجد نفسه مدفوعا نحو الهدف دون تمهيد ، بل لقد رأى الفرصة تسنح وكان لابد من انتهازها فقال :

« مش ده اللى أنا عاوزه منك ! »

لم يخف الفتى دهشته :

« مش فاهم ! »

« أنا مش عاوز منك أخبار اليهود اللى فى مصر ! »

هبط السكون ثقيلا على الغرفة ، كانت عينا محسن مسددتين الى عينى الفتى ، وكان هذا يقدح ذهنه بعنف فى محاولة يائسة للفهم ، عاوده ذلك الاحساس بأن ثمة هوة تفغر فاها تحت قدميه :

« برضه مش فاهم ! »

«انا عاوز منك أخبار اليهود اللى فى اسرائيل يارأفت ! »

. . . .

. . . .

قال الفتى فيما بعد إنه أحس فى تلك اللحظة أن يدا تعتصر قلبه اعتصارا . فلقد كانت هذه هى المرة الأولى ـ منذ أن التقى بمحسن ممتاز فى قسم الزيتون ـ التى يسمع فيها اسمه الحقيقى من فم محسن ، كان قلبه يركض الآن بعنف ، وكان لسانه معقودا ، ورأسه خاليا من كل شىء وأى شىء . . . فقط ، وجه محسن المنحوت فى صخر من مسئولية جسيمة والذى أشعل سيجارة فى هدوء وهو ينهض سائرا فى الغرفة جيئة وذهابا ، لم تكن هذه عادة محسن مع الفتى لكنه الآن كان يفكر فى عمق ويتحسس الطريق فى حذر :

«أنا مش عاوزك ترد على طول ، انا عاوزك تفكر كويس ! »

لم يرد الفتى ، تعلقت عيناه بمحسن وهو يشعر بوزنه يخف ويخف وكأنه يسبح فى فضاء :

« اذا لقيت نفسك ـ بعد التفكير ـ مش حاتقدر ، مايهمكش ، انت ممكن تخدم مصر وانت فيها برضه ! »

فى لوعة من لايصدق هتف الفتى باسمها :

« مصر ؟ ! »

« ايوه يارأفت . . . بس اللى أحب أقول لك عليه ، ان مصر

محتاجه لك ! »

« وانا رقبتى سدادة ! »

قالها الفتى فى بساطة تجرح القلب . . . هتف محسن متقدما اليه :

« لأ . . . أنا عاوزك تفكر ! »

« باقول لك رقبتى سداده !! »

« يارأفت . . . . »

انتفض الفتى واقفا مواجها إياه :

« انا اسمى ليفى كوهين يامحسن بيه ، واسمى الحقيقى اللى نادانى بيه النهارده الخواجة صروف صاحب وكالة صروف وشركاه اللى فى الأزهر هو ياكوف بنيامين حنانيا !!! »

حملق محسن فى وجه الفتى ، كان الخبر الذى زفه اليه الآن مهولا ، جمد لثوان فهو يعرف الخواجة صروف جيدا ويعرف مقداره وسط أفراد الجالية ، تقدم من مقعده وجلس فى مواجهة الفتى قائلا :

« اقعد يارأفت وقول لى إيه اللى حصل ! »

« طلع إنه يعرف أبويا !! »

من المستحيل أن تصل دقة التخطيط الى هذا الحد . . . عاد رأفت يقول :

« وقبل أبويا الخواجة بنيامين حنانيا مايسافر ، صروف نصحه انه مايسافرش وانه يفضل فى مصر لكن هو اللى ركب راسه ! »

كانت كلمات الفتى ثمينه كاللؤلؤ !

« انا أصلى النهاردة الصبح رحت الوكالة أورد قرشين واستلم طلبية وشوية عينات ، لقيتهم بيقولوا لى أن الخواجة صروف عاوزنى !! »

و . . . وراح الفتى يقص على محسن ممتاز نتيجة جهد تواصل بالليل والنهار لستة أشهر كاملة !

●●●

كان الفتى شامخا لدرجة أعجزت محسن ـ فيما بعد ـ عن التعبير عما كان يراه ... كان وهو عائد إلى بيته ـ فى تلك الليلة المشهودة ـ يفكر فى هذا الفتى الذى لم يجد من أهله ووطنه الا الأذى ، ورغم هذا فما إن سمع أنهم ـ الأهل والوطن ـ فى حاجة اليه ، حتى وضع رأسه على كفه !

ياهذا الوطن الذى ينتمى اليه . . .

فى بعض الاحيان كان يشعر بأنه يعمل حتى الموت ، وأنه شارك فى صنع ثورة ، وأنه يشارك الآن فى صنع مستقبل لأمة . . . وإذا بفتى أفاق أهتصره الزمن والعمر القليل السنوات اهتصارا . . . يعطى للوطنية والفداء قيما أكبر بكثير مما كان يظن أو يفكر أو يحس !

ولقد أوى محسن إلى فراشه لكنه لم يستطع النوم . . . كان جسده مكدودا ، وعظامه تؤلمه بعد عمل يوم شاق ، لكن عقله كان صاحيا ! . .

نهض من الفراش وغادر غرفة النوم إلى غرفة المكتب ففاجأه رنين جرس التليفون ، نظر الى الساعة وكانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ولابد أن المتحدث هو زميله ورئيسه وصديقه حسن صقر ، ولابد أن فكرة طرأت له ، أو أن هناك عملا يريد منه أن يؤديه فى الصباح الباكر وبشكل عاجل . . . رفع سماعة التليفون فانقطع الرنين وعاد السكون يلف البيت من جديد :

« ألو . . . !! »

« سعادة اللواء محسن ممتاز ؟ ! »

جاء الصوت جادا كل الجد فانتفض ، لم يكن محسن ممتاز لواء فى ذلك الوقت وهو لم يصل إلى رتبة اللواء فى حياته أبدا . . . استشعر الخطر وفى نفس الوقت استشعر الحذر فقال :

« انا محسن . . . مين بيتكلم ؟ ! »

« لامؤاخذة ياأفندم . لحظة سعادتك معايا ! »

ثوان وجاءه صوت رأفت عبر السماعة :

« مساء الخير ياآبيه محسن ! »

« مين بيتكلم ؟!»

«أنا رأفت الهجان !! »

صرخ صوت فى داخل محسن ان كارثة توشك أن تهدم كل شيىء ، فيكف يذكر الفتى اسمه الحقيقى فى التليفون ؟! . . . طال الصمت لثوان عاد بعدها الفتى يقول :

« انا رأفت الهجان ياآبيه ! »

« انت بتتكلم منين ؟ !»

« من نقطة كوتسكا ! »

كانت نقطة شرطة كوتسكا لاتبعد عن مقهى استانبيلوس سوى بضع عشرات من الخطوات ، وكان معنى تواجد الفتى فى نقطة الشرطة القريبة من مركز انطلاق الفتى أن كارثة قد وقعت .

« ايه اللى وداك النقطة ! »

وكان الذى حدث شيئا بسيطا ، لكن كان كفيلا بهدم كل شىء !

الفصل العاشر

ديفيد شارل سمحون
يعود الى الحياة

عندما افترق الفتى عن محسن فى تلك الليلة ، كان مفعما بأحاسيس لاقبل له بها . . . بدا له الأمر كنوع من الهلوسة . . . كان معنى ماسمعه من محسن ممتاز ان عليه أن يسافر الى اسرائيل ، وأن يعيش فى قلبهـا يهوديا اسرائيليا مؤمنـا بالصهيونية ، أن يقـطع كل صلة له بمصريته ، بل أن يحاربها فى الظاهر ! . . . فهل يستطيع ؟ !

كانت دهشته بالغة عندما وجد محسن يقف أمام موافقته السريعة على السفر موقف المعارض ، وهو لايدرى ـ فى الحقيقة ـ كيف وافق ، وكيف ـ حتى وهـو وحيد فى جوف الليل يستمـع الى عجلات المترو الرتيبة وهى تحمله من أطراف المدينة الى وسطها ـ أنه لايزال موافقا رغم كل مايكتنف الأمر من مخاطر مؤكدة وليست محتملة !

وهو لايدرى لم الحماس المتأجج فى صدره للسفر وحتى . . . حتى عندما سأل محسن فى لحظة أثناء الحوار ، عما يمكن أن يحدث له فى

اسرائيل لو أنهم اكتشفوا أمره . . . وعندما ابتسم محسن وهو يقول إنهم لايمكن أن يكتشفوا أمره لو أنه اتبع التعليمات بدقة ولم يتمرد عليها وكان حريصا فى تصرفاته مفتوح العينين فى علاقاته . . . عاد الفتى يلح :

« يامحسن بيه جل من لايخطىء . . . افرض . . . افرض إنى غلطت وانكشفت . . . حايعملوا فى ايه ؟ ! »

فى صرامة واستقامة قال محسن :

« ممكن يعدموك ! ! ! »

قال الفتى فيما بعد إنه عندما سمع ماسمع لم يفكر كثيرا فى الأمر ، بل إنه حاول أن يفكر ، بل حاول - فى بعض اللحظات وأمام محسن شخصيا - ان يتراجع ، لكنه لم يستطع ، كان يشعر وكأن قدرا مجهولا يدفعه دفعا الى الذهاب الى هناك . . . لم يكن الفتى سياسيا ولم يكن بالتالى مهتما بالسياسة وربما كان ايضا لايفهم فى السياسة ولايريد ، لكن الذى قرأه وسمعه عما فعله اليهود بالعرب فى فلسطين ، كان يستفز - على حد قوله - الحجر الأصم !! . . . ثمة شىء أخر كان يحز فى نفس الفتى ، هو ذلك العداء الغريب الذى كان يستشعره من بعض يهود مصر ، رغم أنهم مصريون ، نحو المصريين . . . كان قد عاش حياته منذ أن ولد ووعى وعرف وتعلم فى المدرسة ولعب فى الشارع ومع أقرانه ، لايفرق بين مسلم ومسيحى أو يهودى . . . كان اليهود فى مصر مثلهم مثل الأخرين ، يعملون ويكسبون المئات أو الألوف وبعضهم يكسب ملايين الملايين . . . كانوا شطارا وكان - كالجميع - يتندر بشطارتهم . . . كانوا حريصين ، وكان حرص اليهود مثار تندر العالم كله لا المصريين أو العرب وحدهم ! . . . ولكنه ، وعندما بدأ خطواته الأولى فى عمليته هذه ، وتسلل الى صفوفهم كواحد

منهم ، راح يكتشف كل يوم ذلك الحقد الدفين على كل ماهو مصرى وتلك الكراهية المتأصلة لكل ماهو عربى !

ولقد استفزه هذا ، وربما استشعر مما رآه منهم خطرا عظيما على بنى وطنه ، فلم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة ، قال لمحسن :

« اذا كانوا بيكرهونا بالشكل ده وهم هنا . . . أمال لما يروحوا هناك حايكرهونا ازاى ؟ ! »

كان يحاول الهروب من المناقشة مع محسن الذى عاد يلح :

« برضه أنا مش عاوزك تاخد قرار دلوقت يارأفت ! »

كان سعيدا سعادة غامرة وهو يسمع اسم « رأفت » من محسن بالذات !

« يامحسن بيه أنا أخدت القرار وخلاص ! »

« اذا كنت فاكر ان عدم موافقتك ممكن ترجعك السجن تانى تبقى غلطان ! »

حاول أن يرد لكن محسن اوقفه باشارة من يده وهو يميل نحوه :

« لازم تفهم إن اعتبارك حايتردلك سواء وافقت على السفر لاسرائيل أو لأ ! »

تقدم منه خطوة ، وضع يده فوق كتفه فى حنان واستطرد :

« كل اللى حصل قبل كده حايتنسى تماما وكأنه مكانش ، واذا حبيت تبدأ فى مصر ، حاتبدأ وصحيفة سوابقك نظيفة تمام ! »

كان الفتى يشعر بسعادة حقيقية وفياضة وهو يستشعر ذلك التحرر من جرائم ظلت تطارده بذنب وبدون ذنب ، وها هى الفرصة تأتيه على طبق من فضة كى يبدأ من جديد ، ولكن . . . ولكنه كان قد اتخذ قراره وانتهى الأمر !

وعلى كل . . .

فلقد تركه محسن كى يفكر على مهل ومازال هناك متسع من الوقت إن هو اراد أن يتراجع . . . ولقد كان محسن يعلم أن الصاق اسم « جون دارلنج » بالفتى ، قد صنع له وسط اليهود مكانة لم يحلم هو نفسه بأن يصل اليها بهذه السرعة . . . راح يضع معه خطة لماهو قادم من أيام . . . عليه أن يتغلغل أكثر ، يتغلغل لما هو أبعد وأعمق . . . إن العصابات اليهودية منتشرة دوليا وهى تستعمل كل الأساليب الشريفة وغير الشريفة كى تنهب تلك الأموال ، إن تهريب أموال اليهود من مصر محاولة لهز الاقتصاد المصرى . . . وما « جون دارلنج » هذا ، الا مغامر صهيونى تخصص فى تهريب اليهود والاموال معاً ، لا أحد يعرف اسمه الحقيقى ولا جنسيته ولاكيف يبدو . . . تضاربت الاقوال من حوله ولكن يحميه أن اليهود فى كل مكان يشكلون له سواتر تقيه المطاردة الحقيقية أو انكشاف أمره فى أيه دولة كانت . . . لم تكن الشرطة المصرية وحدها هى التى تسعى خلف « جون دارلنج » ، بل الشرطة فى عديد من بلدان أوربا أصبحت تطلبه وتطارده . . . وعلى ذلك ، فمطلوب من رأفت ألايتهادى فى انتحال شخصية « جون دارلنج » ، بل لابد له ان ينفى هذا بعنف ، إن نفيه ، سوف يزيد إيمانهم بأنه هو !!!

المهم الآن ، وفى الأيام القادمة ، أن يكون الفتى شجاعا معهم ، مخلصا لقضيتهم ، وأن يشترك فى تهريب أموالهم إلى الخارج . . . سوف يضع له محسن خططا تساعده فى تهريب كميات بسيطة من المال كى يتحول بعدها الى موضع ثقة بلا حدود . . . ثم يصبح عليه بعد هذا أن يشارك فى الصفقات الكبيرة ، التى تطمع الدولة فى ضبطها

حتى لاتخرب فى اقتصادنا وتزيدنا فقرا على فقر . . . ولسوف يسجن مرة أخرى وثالثة ورابعة وعليه أن يحتمل مهما بلغت المضايقات ، فلقد اختفى اسم « رأفت على سليمان الهجان » من سجلات الشرطة تماما ، ولكن هناك ـ فى تلك السجلات ـ ملفا مكتظا لشخص أصبح شديد الخطر فى عرف رجال الأمن ، هذا الشخص هو : « ياكوف بنيامين حنانيا »

« يا نهار اسود »

« ايه مالك ؟ ! »

« هم عرفوا الاسم ده ؟ ! »

« طبعا ، انت فاكرهم بيلعبوا ؟ ! »

عليه أن يترك نفسه لقدره فيما بين اليهود ، وأن يستسلم لهذا القدر استسلاما كاملا ، ثم . . . عليه أن يحذر وأن يحرص أشد ما يكون الحرص من علاقاته التى تعددت وتشعبت مع فتياتهم !!!

« يا سعادة البيه . . . . »

قاطعه محسن فى صرامة :

« تقدر تنكر ده ؟ ! »

ابتسم رأفت فى حياء :

« لأما انكرش بس . . . . »

قال الفتى هذا لكنه لم يكمل حديثه ، كانت نظرات محسن الآن تعريه من ملابسه . . .

« لازم تعرف يا رأفت ، ان دى نقطة ضعف ممكن توديك فى داهية ! »

اتسعت ابتسامة الثقة على وجه الفتى هاتفا :

« ماتخافش علىّ يا محسن بيه ، انا برضه . . . . »

« انت انسان أولا وأخيرا ، والمغريات كثير حواليك ، وممكن تقع فى الحب ! ! »

صاح رأفت :

« أهو ده اللى مش ممكن يحصل ! »

« ازى ؟ ! »

« لانى لو فرض وحبيت واحدة ، حاجبها هى فلانة بنت الخواجة فلان ، حاجبها هى. . .لكن هى حاتحب واحد تانى غيرى ، حاتحب ياكوف أوليفى مش رأفت ... ازاى آحب واحدة بتحب واحد تانى ؟ ! »

مرة أخرى يجد محسن نفسه أمام منطق حكيم لايتناسب مع سن الفتى وإن كان يتناسب مع خبرته الأليمة بالحياة ، فلاذ بالصمت لثوان ، ثم غير مجرى الحديث ! !

•••

صدر عن « فراوسمحون » فى جلستها أمام عزيز الجبالى فى تلك الغرفة المتواضعة الأثاث فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، صدر عنها أنين أوقف عزيز عن الاسترسال فى الحديث ، رفع رأسه نحوها وكانت عيناها تلتمعان بدمع حائر ... بدت نظرة عزيز متسائلة ، فابتسمت هيلين وهى تخرج منديلا رقيقا من حقيبة يدها جففت به الدمع وهى تقول :

« هر جبالى ... إن ماتقصه علىّ الآن يفسر لى الكثير مما كان يبدو لى غامضا ! »

قال عزيز :

« أرجو الا أكون قد نكأت جراحا كادت تندمل ؟ ! »

« عندما أنجبنا طفلنا الأول ، كان ديڤيد ، أقصد رأفت ، سعيدا سعادة بعثت بالدهشة الى نفسى ... لكنه فى نفس الوقت كان يبدو قلقا بصورة أزعجتنى ، ولقد سألته عن سر قلقه فلم يجب بشىء ... لكنه كان يردد بين الحين والحين سؤالا بدا لى غريبا ، وكان يردده فى حيرة ، وأحيانا فى توسل ... كان يسألنى إن كنت أحبه حقا ؟ ! ... فى الوقت الذى كنت أذوب فيه حبا اذا مالمستنى أطراف أصابعه ! ! »

اختنق صوتها بدمع كان يتدافع الى عينيها ، وطال بينهما الصمت لدقائق حتى استردت هيلين نفسها ، فقالت :

« لنعد الى ماكنا فيه ، فلست راغبة فى أن آخذ من وقتك أكثر مما تعطينى ! »

ولم يرد عزيز احتراما لذكرياتها ، وعاد الى الحديث مرة أخرى .

•••

قال الفتى فيما بعد يصف حالته بعد أن ترك محسن فى تلك الليلة ، إنه كان يشعر بثقة لا حدود لها ، أحس أن الدنيا تصالحه أخيرا ، وكان ... ولأول مرة فى حياته يشعر بهذا الفخر الزاهى يغمره ... بدت له شوارع القاهرة وكأنها جديدة تلمع ... ازداد إحساسه بهذه الجدة وهو يغادر قطار المترو فى وسط المدينة ويقطع الطريق من شارع عماد الدين الى شارع سليمان باشا حيث مقهى وبار استانبيلوس سيرا على الاقدام ... أخيرا ، هاهو ذا يجد لنفسه مكانا وسط هذا المجتمع ، حتى ولو كان هذا المكان بيتا فى أرض الأعداء ! !

التقى فى المقهى بافرايم سلومون الذى كان يراه فيلتصق به ولا

يغادره حتى ينتزع الفتى نفسه منه انتزاعا . . . ثرثر معه لساعة وبعض الساعة ، ثم استشعر رغبة عارمة فى الانفراد بنفسه ، لم يكن يعرف متى يأذن له محسن بالسفر ، لكنه يعرف يقينا ـ الآن ـ انه سيذهب الى اسرائيل ذات يوم ليس ببعيد !

منذ اللحظات الأولى لوصول الفتى الى المقهى ، أحس « افرايم سلومون » أن بطله مشغول الليلة بأمر هام وبالقطع غامض . . . حاول هذا الفضولى أن يحترم صمت الفتى لكنه لم يستطع ، فسأله عما به وهل هو مريض أو يشعر بوعكة ، زفر رأفت وهو يقول فى صوت خافت :

« أنا ماليش عيش هنا يا افرايم ! »

فى لهفة استعد افرايم للسماع .

« انا لازم أهاجر بقى ، لازم أسافر اسرائيل ! »

هم واقفا مستعدا للانصراف :

« مش أنا بس . . . اليهود كلهم لازم يمشوا من البلد دى ! »

استأذن من افرايم ، فتركه هذا لحاله مقدرا لما يشغل باله من هموم قومية ! !

. . . .

. . . .

فى شارع سليمان كان يخطو مبتعدا عن المقهى وذهنه مشغول بما حدث ، كان فى طريقه الى البيت الذى عاش فيه شهورا وألف الطريق اليه فاستغرق فى التفكير وترك لساقيه حرية قيادته الى هناك . . . اصطدم أثناء سيره بشابين كانا يهرولان هربا من صقيع الليل ، التفت نحوهما ، كما التفتا هما نحوه . . . بادرهما على الفور :

« انا متأسف ! »

قالها . ثم سقط قلبه بين ضلوعه .

فلقد جمد الشابان فى مكانهما الذى تصادف أن كان تحت أحد أعمدة النور ، هتف احدهما فى صاحبه :

« شايف ده مين يا دكتور ؟ ! »

لكن الدكتور كان الآن قد أطبق بكلتايديه فى خناق رأفت صائحا من بين اسنانه :

« والله وقعت يارأفت ياهجان ! »

ارتد بصر الفتى من حيث جاء ، ارتد بصره الى حيث مقهى استانبيلوس الذى لايبعد سوى خطوات . . . لم يكن يعنيه شىء فى الدنيا ـ الآن ـ إلا أن يبتعد عن هذا المقهى وأى من رواده الذين يعرفونه ويعجبون به ويجله بعضهم كبطا [illegible] يلـ [illegible] العذاب من أجلهم . . . كان الطريق خاليا حقا ، لكن أصوات الشابين را[illegible] تتصايح فى سكون الليل متهمة إياه بالنصب والاحتيال عل[illegible] [illegible]ائهما شيكا بلا رصيد !

حدث هذا فى باريس !

تذكر رأفت الشابين فور رؤيته لهما ، كيف ينسى تلك الأيام السوداء التى دفعته الى الهرب من الولايات المتحدة الى كندا ، ثم الهرب من كندا الى باريس . . . كانت الدنيا تدفعه نحو الجريمة دفعا ، ولقد قاوم طويلا ثم قرر أن يواجهها . . . فهل كان كل هذا الذى حدث طريقا مرسوما بقدر غامض ومثير كى يوصله فى النهاية الى يدى محسن ممتاز ؟ ! . . . نعم احتال عليهما وأعطاهما شيكا بلا رصيد فى مقابل بضع مئات من الفرنكات ساعدته على الهرب الى انجلترا من

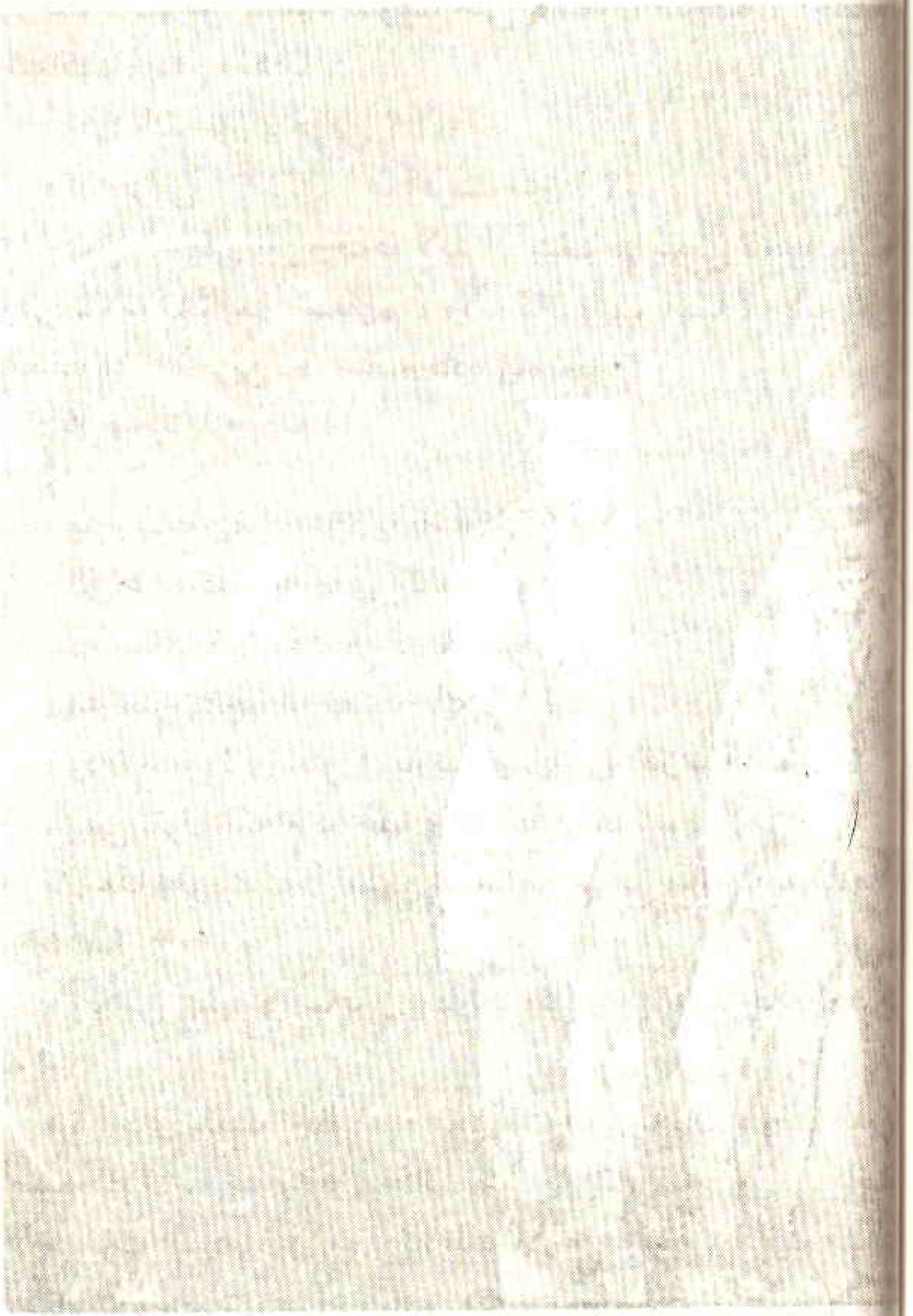

جديد . . .   كان لابد له من التخلص ـ بسرعة ـ من تلك الوقفة فى عرض الطريق وتصايح الشابين الذى أوقف عددا من المارة كانوا يتكاثرون مع كل دقيقة تمر وهم يشاهدون نوعا من الصراع غير المتكافىء بين شابين أمسكا بتلابيب ثالث عقدت الدهشة لسانه ! . . .   لكن رأفت وجد الحل عندما ظهر أحد رجال الشرطة صائحا من بعيد :

« ايه الحكاية يابهوات ! »

هكذا سأل الشرطى ، فصاح رأفت :

« أنا عاوز اروح القسم ياشاويش ! »

كانت نقطه كوتسكا التابعة لقسم قصر النيل لاتبعد أكثر من بضع عشرات من الخطوات ، هذا كل ماكان يهم رأفت فى تلك اللحظة . . .   لم يكن يبغى الا أن يبتعد عن شارع سليمان باشا وأن يختفى عن الأنظار فى أحد الأزقة أو السجون سيان !! . . .   على البعد لمح فى الضوء الخافت للطريق بعضامن رواد استانبيلوس يغادرون المقهى وكانت الأصوات بالقطع تصل إليهم وكان بعضهم يتقدم من الجمع والصياح ، هذا البعض لابد يعرفه ، فالجميع هناك الآن يعرفونه معرفة وثيقة ، وليس بعيدا أن يكون افرايم سلومون من بينهم فهذا هو طريقه فى المساء عند العودة الى البيت . . .   كان لابد من التصرف بسرعة فهاهى الاخطوات وينكشف أمره ويهدم هذان الشابان كل ماراحا ـ محسن وهو ـ يبنيانه فى شهور اكتظت بالأحداث .

انقض الفتى على أحد الشابين بكلتا يديه وأنشب أصابعه فى خناقه دافعا به نحو زميله فى عنف مفاجىء :

« انتوا عاوزين منى ايه ؟ ! »

كان لابد من تصعيد الموقف حتى لاتطول الوقفة ، احتدم اشتباكهم وصاح أحدهما :

« وكمان لك عين ياحرامى ؟ !»

« انا حرامى ؟ ! . . . أنا أعرفك منين ! ؟ »

أحس الشرطى بأن وجوده لابد أن يثبت كما ينبغى فامسك بيد الفتى - لأنه كان يبدو أضعفهم ، ولأنه كان المتهم أيضا ، ولأنه بادر بالعنف قبل الآخرين - فى عنف جاذبا إياه نحوه :

« كل واحد يلزم حده !!»

« مش سامع بيقولوا علىّ ايه ياشاويش ؟ ! »

« اللى عنده كلمة يقولها فى القسم ! »

همّ أحد الشابين بالصياح فنهره الشرطى :

« انتو مش بتقولوا انه نصب عليكم ؟ ! »

« وكان عامل ثرى أمثل فى باريس وشايل لى دفتر شيكات ! »

« يبقى تقول الكلام ده لحضرة الضابط فى القسم !! »

قال هذا وهو يلتفت الى الذين تجمعوا من حولهم صائحا بصوت ملأ فراغ الليل :

« وبلاش تجمهر فى ساعة زى دى ، وكل واحد يروح لحاله أحسن له ! »

مرة أخرى يلعب الحظ لعبته مع رأفت على سليمان الهجان الذى أصبح الآن ياكوف بنيامين حنانيا الشهير بليفى كوهين . . . كانت الأحداث السياسية فى مصر فى تلك الأيام عنيفة ، كانت هناك اعتقالات ومحاكمات وصراع سياسى دفع حكومة الثورة الى تطبيق قانون الأحكام العرفية ، ومنع التجمهر فى الطريق العام . . . ولذلك ، ما

أن سمع الذين توقفوا « للفرجة » ماقاله الشرطى حتى انصرفوا طالبين السلامة ، أراد الجندى أن يؤكد سلطانه على هؤلاء الأفندية فقال ماقال وهو يعرف أنه ينفذ القانون فى صرامة . . . وعلى الفور ، وافق الشابان على الذهاب إلى القسم ، بل لقد رحبا بتنفيذ هذا فورا ، فلقد كان ماحدث تجمهرا وكانا هما السبب فيه . . . وبدأ الركب يتحرك نحو زقاق جانبى كان يوصل الى نقطة كوتسكا . . . وما ان ابتعد رأفت خطوات عن الشارع ، حتى تنفس الصعداء !

فى القسم واجهه الشابان بالتهمة أمام ضابط صغير السن والرتبة ، كان الموقف بالنسبة اليه محيرا ، انتهى الشابان من سرد حكاية الشيك الذى اعطاهما الفتى إياه بعد أن أخذ منهما مبلغا لابأس به من الفرنكات الفرنسية ، ثم عندما ذهبا لصرف الشيك اكتشفا أنه بلا رصيد . . . بحثا عنه فى طول باريس وعرضها ، لكنه كان كفص ملح ذاب فى محيط . . . التقيا به منذ دقائق مصادفة ، وهما الآن يريدان للقانون أن يأخذ مجراه !

التفت الضابط نحو الفتى متسائلا :

« انت اديتهم شيك بدون رصيد ؟ ! »

لم يكن رأفت يسمع ماكان الشابان يقولانه ، كان يعرفه . . . ولذلك ، ففى الدقائق التى مضت ، كان هو يقدح ذهنه قدحا باحثا عن مخرج . . . لم يكن الأمر يحتمل انتظارا ولاتأجيلا . . . تذكر رقمى تليفونى محسن فى البيت والمكتب ، لم يكن - قبل هذه الليلة - قد احتاج إلى أن يطلبه فى التليفون فلم يفعل ، كان يستشعر لذه فائقة فى الالتزام بتعليمات محسن . . . وهاهى ذى لحظة رعناء ، ومصادفة عشواء ، يبعثها الماضى بكل مافيه . . . فهل تعاوده نوبات من سوء

الحظ مرة أخرى ؟ ! . . . جاءه صوت الضابط سائلا :

« ياأستاذ ! »

أفاق رأفت مما كان فيه ، التفت نحو الضابط مبتسما :

« أفندم ! »

« أنت اسم حضرتك ايه ؟ ! »

« رأفت على سليمان الهجان يافندم ! »

لو أن مصادفة حمقاء أخرى دفعت بيهودى الى نقطة كوتسكا فى تلك اللحظة ، لانهدم كل شىء ، وضاع الأمل فى إثبات انه قادر ، وأنه يستحق أن يعيش بين قومه محترما . . . كان الضابط يتحدث إليه لكنه لايسمع مايقول ، عليه أن ينتبه ، وعندما انتبه ، كان الضابط ينهى حديثه :

« . . . . ده اللى هم بيقولوه ، أنت اديتهم فعلا شيك بدون رصيد ! »

« ممكن أطلب من سعادتك خدمة ؟ ! »

فى تأفف قال الضابط :

« أفندم ! »

« ممكن سعادتك ترفع سماعة التليفون وتكلم اللواء محسن ممتاز فى بيته ! »

« مين اللواء محسن ده . . . فى الداخلية ؟ ! »

« لأيافندم . . . ده ضابط جيش ! »

« وظيفته أيه ؟ ! »

«أنا ماأعرفش ، انما اللى أعرفه أنه ابن خالتى ! »

كانت الثورة ثورة جيش ، وكل قوادها من الضباط الشبان ، وكان قائدها بكباشى فقط - مقدم - فمن يكون سعادة اللواء محسن ممتاز هذا ؟ ! . . . وقع الضابط فى حرج ، فاذا كان الفتى محتالا كما يقول الشابان اللذان أحدهما طبيب والآخر مهندس وكانا فى بعثة دراسية للخارج فلسوف ينكشف أمره . . . أما إذا كان هذا اللواء موجودا ، وكان ابن خالته بالفعل ، فكفى الله المؤمنين شر ثورة الجيش !

رفع الضابط سماعة التليفون متسائلا فى تحد أدركه الفتى :

«نمرته كام ؟ ! »

« ٩٧٩٣٥ »

نطق رأفت الرقم بسرعة وثقة من يعرف أين تخطو قدماه ، أدار الضابط قرص التليفون ، وانتظر مستمعا إلى الجرس على الطرف الآخر . . . انقطع الرنين فاعتدل الضابط فى جلسته عندما أتاه صوت محسن ممتاز ، ثم سأل :

« سعادة اللواء محسن ممتاز ؟! »

« انا محسن . . . مين بيتكلم ؟ ! »

« لامؤاخذ يافندم . لحظة سعادتك معايا ! »

عندما سمع الضابط صوت محسن يقول : « انا محسن » ، اطمأن قلبه تماما . . . فى احترام مديده بالسماعة الى رأفت الذى قال متصنعا الوجل أمام الجميع :

« مساء الخير ياابيه محسن ! »

كان الضابط والشابان يرقبان مايحدث ، فلقد انفجر صوت محسن عبر السماعة عاليا غاضبا ، وكان رأفت يحاول الرد لكن سيل الكلمات

المتدفق عن اخلاقه الفاسدة وحياته الممزقة ألزمه الصمت ، ثم توقف الصوت وعاد محسن يسأل :

« هو ايه الى حصل ؟ ! »

فى كلمات مترددة ، وفى اختصار شديد ، قال رأفت إن ثمة شابين يدعيان أنه أعطاهما شيكا بلا رصيد وكان هذا فى باريس ، ثم التقيا به الآن وهو فى طريقه الى البيت فأمسكا بخناقه ورفضا أن يتركاه الا فى نقطة الشرطة هذه . . . قال الفتى هذا فانفجر الصوت عبر السماعة التى رفعها رأفت عن أذنه حتى يسمع الجميع هدير الرجل على الطرف الآخر وهو يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ثم مالبث أن جاءهم الصوت صائحا :

« ادينى حضرة الضابط ! »

مد الضابط يده الى السماعة قبل أن يحملها إليه رأفت . . . وفى حقيقة الأمر لقد كان محسن - عندما قال ماقال - يعتمد على ذكاء الفتى وإمكان وصول صوته الى الضابط بالذات ، ثم . . . ثم انه كان - على الوجه الآخر - يعطى نفسه الفرصة كى يفكر فيما يمكن أن يفعله . . . قال الضابط فى احترام شديد :

« افندم ياسعادة الباشا !! »

كان ضباط الجيش - قبل الثورة - إذا مارقى أحدهم الى رتبة اللواء ، منح معها لقب « الباشوية » ، ولقد كانت الألقاب قد ألغيت حقا فى مصر ، لكنها ظلت تجرى على السنة الناس . . . ولقد كان محسن منطقيا فى حديثه مع الضابط . . . قال إنه لايفهم فى طبيعة أعمال الشرطة وواجباتها كما يفهمها هو بالطبع ، لكنه يرى أنه امام حالة واضحة ، فهناك اتهام من شابين لشاب ثالث بأنه أعطاهما شيكا بلا

رصيد . . . اذن ، فالأمر موكول الى النيابة ، والضابط لايستطيع حجز الفتى لتهمة غير ثابتة ، لكنه يستطيع الافراج عنه بعد التأكيد من محل سكنه ، على أن يثبت هذا كله فى محضر رسمي كى يخلى مسئوليته ، ثم إن على الشابين أن يرفعا دعوى بعد ذلك كى يأخذ العدل مجراه .

كانت المفاجأة بالنسبة الى الضباط ، أن محسن اختط له الطريق باسلوب قانونى محكم ، وكان محسن - كضابط كبير - يعرف الأسلوب الذى يتحدث به من كان مثله مع ضابط صغير الرتبة ، وهكذا قال الضباط مؤمنا وموافقا :

« تمام ياسعادة الباشا ! »

« طب إدينى الولد ده تانى من فضلك ! »

راح الفتى يستمع الى محسن وهو يحكى له ماقاله للضابط ، وأن عليه أن يطيع هذا تماما وأن يذهب بهم إلى البيت كى يعرفوا مكان سكنه . . فهتف رأفت محذرا :

« حاضر ياآبيه . . . وطبعا البواب عارفنى كويس !»

كان البواب يعرف أن الفتى هو « ليڤى كوهين » ، ولقد قال رأفت ما قال كى ينبه محسن إلى هذه الحقيقة حتى يحتاط للأمر إن استطاع . . . ولقد أنهى محسن المكالمة بسرعة ، كان عليه أن يجرى بعض المكالمات العاجلة حتى يستطيع تدارك الأمر قبل أن ينكشف الفتى بمصادفة بلا معنى . . . الوقت أمامه الأن أثمن من الماس ، وبحسبة بسيطة قرر أن المحضر الذى أوعز الى الضابط أن يحرره لن يأخذ أكثر من خمس وأربعين دقيقة ، والمسافة من نقطة كوتسكا حتى

بيت الفتى لن تأخذ اكثر من خمس عشرة دقيقة . . . إذن ، فلابد أن يكون المسرح جاهزا قبل انقضاء ساعة ، لاستقبال رأفت الهجان !

. . . .

. . . .

فى الطريق الى ميدان سليمان باشا كان الركب يتحرك مكونا من الشابين ورأفت ثم أحد رجال الشرطة الذى اصطحب الجميع للتأكد من عنوان إقامة المتهم .

قبل أن يصلوا الى ميدان سليمان باشا ببضع خطوات لمح الفتى سيارة محسن العتيدة تقف فى ظلال الليل الكثيفة وبداخلها محسن . . . وصل الجميع إلى باب العمارة الذى كان مغلقا . . .
دق الشرطى عليه بعنف من يملك سلطة ، جاءه من الداخل صوت البواب النائم يصيح بأنه قادم . . . فتح الباب عن رجل يرتدى جلبابا وقد دثر نفسه ببطانية تقيه البرد وحول رأسه « لاسه » هائلة تخفى ملامحه فى الظلام ، ولم يكن رأفت فى حاجة الى ذكاء كى يكتشف أن هذا الرجل ليس هو البواب . . . صاح الشرطى :

« أنت مين ؟ ! »

« أنا عبد المحسن البواب ياشاويش . . . خير؟ ! »

« تعرف الافندى ده ! » .

«مين ؟ ! . . . رأفت بيه ؟ ! . . . خير ياسعادة البيه ؟ ! »

قال الشرطى زاجرا إياه :

«تعرفه ؟ ! »

« إلا اعرفه . . . . ده سى رأفت بيه الهجان اللى ساكن فى شقة ٦٢ »

التفت الجندى نحو الشابين :

«تحبوا تطلعوا الشقة يابهوات والاكفاية لحد كده ؟ ! »

كان البرد قارسا وكان الشرطى متذمرا . . . ثم لم يكن هناك مايبعث على الشك ، فتبادل الشابان النظرات ، ثم قال أحدهما :

« لأ . . . كفاية كده ! »

وهكذا انصرفا وانصرف الشرطى بعد أن نبه على البواب أنه سيكون مسئولا أمام الحكومة عن المعلومات التى أدلى بها . . . ودلف رأفت الى العمارة واستقل المصعد الذى حمله إلى الطابق الأخير . . . كان الفتى يفكر فيما فعله محسن ، وفيما يمكن أن يفعله فى الغد . . . لكنه ماإن اقترب من باب مسكنه ، وما كاد يضع المفتاح فى ثقب الباب حتى جاءه صوت من الخلف :

« انت لوحدك ياأستاذ رأفت ؟ ! »

التفت فاذا رجلان يقفان متواريين فى الظلام .

« مين ؟ ! »

« أنت لوحدك ؟ ! »

« ايوه ! »

«اتفضل معانا . . . محسن بيه فى انتظارك ! »

لم يكن أمام رأفت سوى الاستسلام ، كان أحدهما يحمل حقيبة ملابس كبيرة ، اكتشف رأفت بعد أقل من ساعة ، وعندما دخل مسكنه الجديد فى منطقة أخرى بعيدة عن وسط المدينة ، أن بها كل ملابسه وكل مايخصه فى ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا .

●●●

اقتحم رأفت ميدان التهريب ، وتعامل مع الذين أرادوا إخراج أموالهم من مصر بجرأة وفروسية جعلت منه بطلا شعبيا وسط يهود مصر ، فى أسابيع قليلة نجح عدد لابأس به من العمليات الصغيرة التى كان يستعمل فى بعضها ذكاءه الخاص ، فذاع اسمه واشتهر وأصبح على لسان كل يهودى . . . من الخارج جاء مندوبو المنظمات الصهيونية المختلفة ليتفقوا معه ويعقدوا الصفقات . . . كان جريئا فى تعامله معهم ، شجاعا ، يخطط بذكاء ويحكم تخطيطه ثم يبلغ محسن بكل شىء ويترك له الباقى . . . أطلقه محسن وترك ملكاته تعلن عن نفسها فى مواجهة الشرطة المصرية التى اصبحت ـ بالفعل ـ تطارده بلا رحمة . . . كان محسن يترقب تلك الصفقات المهولة التى تستنزف دم مصر ، حتى اذا عقد رأفت إحداها مع واحد من كبار الأثرياء اليهود ، وماكادت الصفقة تتم بالفعل حتى أطبق رجال البوليس على المهربين ، لكن رأفت استطاع الفرار بأعجوبة من أعاجيبه . . . وهكذا أصبح رأفت الهجان ـ أو ياكوف بنيامين حنانيا ـ هاربا من وجه العدالة وإن كان لايزال يعيش باسم « ليڤى كوهين » !

فى صفقة أخرى لم يستطع الإفلات فقبضوا عليه لكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا شيئا ضده وكان محاميه بارعا بعد أن أوكله عنه أحد أثرياء اليهود !!

ولم يكن ممكنا ـ والحال هكذا ـ أن يترك اليهود بطلا من أبطالهم بلا مأوى بعد أن عرفت الشرطة محل إقامته الجديد ووضعته تحت حراسة صارمة . . . لم يكن ممكنا أن يتركوه لسطوة رجال الشرطة الذين كانوا يضربون فى كل اتجاه مصادرين ملايين الجنيهات وهى فى طريقها الى خارج مصر . . . وهكذا راحت الأسر اليهودية تستضيف الفتى

وتتنافس فى استضافته خاصة تلك الأسر الشديدة الثراء التى كانت تطمع فى تهريب أموالها الى الخارج عن طريق رأفت . . . وتمضى الأسابيع فاذا الفتى جزء لايتجزأ من المجتمع اليهودى . . . اخترق هذا المجتمع حتى نخاعه وهو يعيش فى بيوتهم وقصورهم كواحد منهم . . . رغم مسئولياته والصفقات التى كان يعقدها والخطط التى كان يضعها وتلك التى كان يعدل فيها والناس الذين كان يلتقى بهم ، لم ينس أن يتعلم العبرية . . . أمام الجميع كان يلعن الشتات الذى جعل اليهودى يتقن عدة لغات وينبغ فى كل فروع الحياة وينسى لغة الأجداد . . . فى تلك الفترة كانت حياة الفتى حافلة بكل ماهو مثير ، ولم يكن يكف عن العمل أو اجراء الاتصالات السرية أو التخطيط الذى برع فيه براعة جعلت له مكانه خاصة وسط عصابات المهربين والأثرياء على السواء !

وكان محسن ـ فى تلك الأيام ـ سعيدا سعادة غامرة ، ولولا ذلك الضعف الشديد عند الفتى تجاه فتيات اليهود اللواتى رحن يرتمين بين ذراعيه فيقاوم حينا ويستسلم أحيانا ، لاكتملت سعادته وبلغت ذراها المنشودة ، راح مندوبو المنظمات اليهودية يطلبون لقاءه كلما زار احدهم مصر كى يستأنسوا برأيه . . . وكان هو ، فى حماس بالغ ، يساعدهم ويشترك فى وضع خططهم ويوجه خطواتهم . وهكذا . . . وقبل أن ينقضى الثلث الأول من عام ١٩٥٥ ، كان كل هم المنظمات اليهودية والصهيونية ، هو إخراج « ياكوف بنيامين حنانيا » من مصر ، بعد أن أصبح واضحا أشد مايكون الوضوح أن الشرطة المصرية ترفض السماح له بالهجرة ، وترفض أن تتركه يفلت من يدها !!

حتى كان يوم من أيام ربيع ذلك العام !

. . . .

. . . .

وصلت الى رأفت ـ مع مايصل اليه من دعوات ـ دعوة من المليونير السكندرى « شارل سمحون »

كان شارل سمحون رجلا من رجال الأعمال الذين سيطروا لزمن طويل على سوق المال فى بورصة الاسكندرية . . . وكان ثريا ذلك النوع من الثراء الذى يتحدث به الناس فى انبهار وكأنه شيء خارق للعادة . . . ولذلك ، لم يكن من السهل أولا أن يرفض رأفت الدعوة أو يعتذر عنها ـ كما تعود أن يفعل مع العديد من الدعوات التى كانت تصله ـ بل على العكس ، تلهف على تلبيتها ، خاصة أن بيوت الأثرياء الذين كانوا يأوونه فى القاهرة قد انكشفت ووضعت تحت المراقبة . . . وكانت تلك المراقبة تحد من حركته كثيرا ، كما كانت تجعل الاتصال به أمرا شديد الصعوبة ، وهكذا . . . وعندما وصلت تلك الدعوة من الاسكندرية ، كان على رأفت أن يلبيها .

تحت جنح الظلام ، وبافتعال مشاجرة جذبت أنظار رجال الشرطة المحيطين بالبيت ، تسلل رأفت من حيث كان . . . تسلل وحده فلقد كان يرفض ، وبإصرار ، أن يصحبه أحد من اليهود للحماية أو حتى للتمويه ، كان يقول إنه وحده يصبح اكثر تحررا وأخف حركة . . . وكانوا يحترمون رغبته فيتركونه كى يسعى للقاء محسن على شوق أكيد بعد أن تباعدت مواعيد اللقاء . . . وهكذا ، وعندما دخل رأفت الهجان قصر المسيو شارل سمحون لأول مرة ، ذلك القصر المطل من فوق رابية من روابى الشاطىء على البحر المتوسط ، كان يتطلع ـ ومن حوله عائلة الرجل الذى قدر للفتى أن يحمل اسمه حتى الموت ـ عبر البحر ـ نحو المجهول ، الى حيث كان يسعى الآن ، الى فلسطين ، الى أرض المعاد !!!!

فى هذا القصر عاش رأفت حياة أسطورية ، كان مطلوبا اخفاؤه تماما عن أعين الناس حتى خدم البيت . . . وقد وضعت لذلك خطة تولت تنفيذها ابنتا شارل سمحون الباهرتا الجمال ، واللتان كانتا ـ فى تلك الأيام ـ حديث الأوساط الارستقراطية فى العاصمة الثانية لمصر !

قبل أن يغادر الفتى القاهرة إلى الاسكندرية حذره محسن ـ فى لقاء كانت خطته شديدة التعقيد ـ من ابنتى الخواجه شارل ، حاول الفتى أن يتخلص من المناقشة لكن محسن نهره محذرا إياه من مغبة التورط فى علاقة قد لايستطيع التخلص منها حتى إن أراد . . . كان محسن يعلم أن الفتى مشوق الى الحنان عطشان للحب . . . ورغم كل تحذير فقد وقع المحظور ، وأحبته كبرى ابنتى مسيو شارل ، فلقد كانت هى المكلفة ، وقت وجود الخدم فى البيت ، بالسهر على راحته وتلبية كل رغباته !

وفى حقيقة الأمر ، ليست الابنة الكبرى هى التى أحبت رأفت الهجان وحدها . . . كانت دماثة الفتى الطبيعية ، وقدرته الفذة على النفاذ الى قلوب الناس ، قد جعلته يحتل مكانه رفيعة فى قلوب العائلة كلها ، الأب ، والأم والابنتين معا !!!

ولقد انقضت أسابيع قليلة ورأفت يعيش حياة أقرب الى الأحلام . . . كان قد أحيط بكل مايحتاج اليه من حنان وحب ورعاية وعناية . . . وحتى تلك النزوات التى كانت تنتابه أحيانا ، والتى كانت تجعل العائلة وكأن افرادها جميعا يقفون على أطراف أظفارهم ، عندما يعلن عن رغبته فى الخروج الى الشوارع وحده ، تلك الرغبة التى كانت تبكى « ماجى » ـ الابنة الكبرى لمسيو شارل ـ كلما أعلنها . . . لكنهم فى النهاية كانوا يخضعون ويحترمون رغبته فى الشعور

بالحرية !!

فى رحلاته الليلية هذه كان يلتقى بمحسن لقاءات مركبة ومعقدة ، لكنهما لم يكونا يمكثان معا الا لدقائق محسوبة ، كى يعود الفتى مرة أخرى الى مخبئه فى القصر العتيد !

حتى كانت ليلة انصرف فيها الخدم مبكرين ، وتناولت الأسرة عشاء خفيفا ، واستعدت للاستماع لبعض المقطوعات الموسيقية من « بيك أب » أنيق وحديث . . . وكان غرام « ماجى » بالفتى قد أصبح واضحا للجميع لايخفى على أحد ، كما كان واضحا أنهم يباركون هذا الحب الذى كان يزداد اشتعالا يوما بعد يوم . . . وقبل أن تكتمل الجلسة حول « البيك أب » طلب مسيو شارل إلى رأفت ، أن يلحق به فى غرفة مكتبه لحديث خاص :

. . . .

. . . .

كان من عادة المليونير اليهودى شارل سمحون أن يدخن مرة واحدة فى اليوم ، بعد أن يتناول طعام العشاء مع اسرته ، ثم يحمل كأس البراندى الفاخر إلى غرفة مكتبه ، كى يدخن «سيجارا» من نوع خاص كان يستورد باسمه من الخارج . . . ثم يجلس إلى كتاب أو حسابات يريد أن يراجعها وحده . . . ويظل هناك حتى العاشرة ، ثم يأوى الى فراشه !

فى بعض الأحيان ـ منذ جاء رأفت الى القصر هاربا من وجه الشرطة المصرية ـ كان الرجل يدعو ضيفه الى تدخين سيجار وتبادل الحديث معه . . . وكان هذا يعنى ـ أمام أفراد الأسرة وفى محيط الأصدقاء ـ

نوعا غير عادى من التكريم لشخصية المناضل ياكوف بنيامين حنانيا !

وكان رأفت يلبى الدعوة مهما كانت مغريات « ماجى » أو إلحاحها . . . كان يشعر أن الرجل الذى تجاوز الستين ، ينظر إليه نظرة غريبة وصامته فى نفس الوقت ، أكثر حنانا من الأخريات وأعمق حبا منهن جميعا . . . كان رأفت يلبى دعوته تلك الى غرفة المكتب استجابة لهذا الحنان الغامض ، ومحاولة لاستجلاء سره الغريب ، والذى كان ، يوما بعد يوم ، يفصح عن نفسه بأسلوب بدا للفتى آسراً !

فى تلك الليلة ، جلس رأفت على المقعد الوثير المواجه لمقعد مسيو شارل سمحون ، وراح ينظر الى الرجل فى عجب . . . كان العجوزيبدو مضطربا بعض الشىء ، أشعل السيجار ورشف من كأسه رشفة ، وبدا أنه يبذل محاولة عنيفة للسيطرة على أعصابه !

أحس رأفت أن ثمة شيئا فى الطريق اليه فلم ينطق حرفا ، راح يرقب الرجل فى إمعان شديد لعله يستشف مايدور بخلده ، حتى اذا ماسأله الرجل ـ وكان الحديث عادة مايدور بينهما بالفرنسية ـ عما ينتوى أن يفعل فى الأيام القادمة . . . اعتدل رأفت فى جلسته متحمسا مواطىء كلماته :

« لم يعد أمامى سوى محاولة الهجرة الى اسرائيل ! »

رماه الرجل بنظرة حانية فعاد رأفت يقول :

« إن حياتى فى مصر أصبحت مستحيلة ، فهم يطاردوننى فى كل مكان ، ويقينى أنهم أيضا أصبحوا يعرفون أن اسمى الحقيقى هو ياكوف بنيامين حنانيا . . . وعلى ذلك ، فان أى نشاط لى سوف يصبح

عديم الجدوى . . . . فأنا الآن لست سوى عاله عليكم جميعا ! »

رغم تلك الجملة الأخيرة التى اراد بها رأفت أن يستنفر عواطف الرجل ، فإن خلجة فى وجه الشيخ لم تهتز . . . بل عاد يسأل :

« وكيف ستهاجر اذن ؟! »

« هذا ماأبحث عن وسيلة له فى هذه الأيام ! »

« لقد وجدت لك الوسيلة ! »

همّ رأفت فى جلسته وقد فاجأته الجملة . . . ظن الرجل أن حركة الفتى نوع من الترحيب والتلهف ولكن الحقيقة كانت غير هذا . . . فلقد تذكر على الفور وفى لمح البصر ، ماقال محسن ممتاز ذات ليلة عندما سأله الفتى متى يسمح له بالهجرة الى اسرائيل ، فطلب إليه ألا يتعجل الأمور ، فإن الجالية اليهودية هى التى ستتولى الأمر عنه ، وهم عندما يفعلون ذلك ، ستكون هذه هى علامة السلامة الكاملة لرأفت فى موطنه الجديد !

قال رأفت وهو يميل نحو الثرى الشيخ :

« كيف بالله عليك وجدت هذه الوسيلة ؟ ! »

رشف الشيخ رشفة من كأسه ، ونفث دخان السيجار الكثيف فى هواء الغرفة ثم نهض إلى حيث كانت نافذة تطل على البحر . . . لزم رأفت الصمت تماما وهو يرقب الرجل الذى كان يستعد الآن للإفضاء بسر بدا للفتى رهيبا . . . ساد الصمت فى الغرفة وجاء صوت هدير الأمواج ليملأه ، ومالبث الرجل أن قال دون أن يلتفت نحو رأفت :

« كان لى ابن فى مثل عمرك . . . وكان اسمه ديفيد »

وضع رأفت السيجار جانبا ، نهض واقفا وقد غاضت الدماء من وجهه وتثلجت أطرافه ، التفت الشيخ نحوه وكانت ملامحه تقطر

حزنا . . . خطا مبتعدا عن النافذة وهو يحملق فى الكأس التى يحملها فى يمينه :

« عندما ولد استخرجنا له شهادة ميلاد . . . لكننا لم نستخرج له شهادة وفاة عندما مات وهو فى الثالثة من عمره ! »

حاول رأفت أن يقول شيئا لكن الدهشة كانت قد عقدت لسانه ، تبدت له حقيقة ماكان الرجل يدبره فهاله الأمر . . . عاد الشيخ يخطو نحوه الآن فى بطء ، حتى اذا أصبح قريبا منه توقف ، راح يتأمل ملامح الفتى بعينين يسيل منهما حزن غامر ، لكنه مالبث أن استطرد :

« لقد مات ديفيد بالتيفود منذ اربع وعشرين سنة . . . لكنه فى نظر الحكومة المصرية لايزال حيا !!! »

أدرك رأفت الآن ماالذى كان يقصد اليه الرجل تماما !

« سأعطيك اسم ولدى . . . ومنذ الغد سيصبح اسمك « ديفيد شارل سمحون » ، ولن نقدم لك طلبا للهجرة ، بل سنقدم طلبا للسفرالى الخارج ، فإذا ماخرجت من مصر أصبحت فى مأمن ! »

هتف رأفت فى إشفاق :

« لكنهم سيعلمون أنى خرجت . . . فماذا أنت صانع ؟ ! »

« لاعليك . . . اترك لى هذا الأمر ! »

قال الشيخ هذا وهو يعود الى مقعده ، رشف من كأسه رشفة ، ومد يده الى كتاب كان موضوعا فوق مائدة قريبة . . . فتح الكتاب وهو يقول :

« اذهب الى الفتاتين فانهما فى انتظارك . . . ولابد انك ستفتقدهما فى المستقبل القريب ! »

●●●

قال رأفت الهجان فيما بعد ، انه كان ـ وهو يغادر الغرفة ـ يكاد ينفجر من الدهشة . . . ولم يكن يتمنى فى تلك اللحظات شيئا فى الوجود ، الا أن يرى محسن ممتاز . . . فقط ، كى يرفع يده بالتحية !!!!

الفصل الحادى عشر

الرحيل

أدرك الفتى فى تلك الليلة أن أيامه فى مصر أصبحت محدودة ، وأن رحيله الى اسرائيل لم يعد مرهونا بإرادته ، أو ارادة محسن المطلقة ! . . . واذا كان يهود مصر هم الذين قرروا تهريبه الى أرض معادهم ، فلقد كان عليه أن يجاريهم حتى لايثير أى نوع من أنواع الشكوك !

كان أول من خطر بباله بعد أن غادر مكتب السيد سمحون ، هو أخته . . . شريفة !

كان لابد أن يراها قبل أن يرحل مهما كان الثمن . . . فمن أين له أن يعرف إن كان سيراها بعد ذلك مرة أخرى ! !

عندما طلب إليه محسن أن يؤجل زيارته لها حتى يذهب إليها وهو

« ملو هدومه » استراح لهذا حتى يرحم نفسه من التسلل الى بيتها فى غيبة زوجها الذى كان يرى فيه إنسانا ضائعا وعارا يجب على العائلة أن تتجنبه ، وحتى يرحمها من مشاحنة هى فى غنى عنها لو ان الزوج ، الذى كان قد أصبح ضابطا كبيرا ، علم بزيارته لها !

هو لم ينس شريفة طوال تلك الأسابيع والشهور ... وكم اشتاق إليها كما اشتاق إلى صغيرها طارق الذى أصبح - بالنسبة إليه - قطعة من الحياة تصبو إليها نفسه . . . لكنه منذ أن عرف حقيقة مهمته ، داخله إحساس غامر بالمشولية ، بل داخله إحساس بأنه أكبر من الآخرين . . . الايجب إذن ان ترتفع أحاسيسه إلى مستوى مكانته ؟ !!!

عندما صعد الى غرفته كى ينام لاحقته « ماجى سمحون » بلهفتها المتقدة لكنه صدهابرفق ، كان فى حاجة الى الانفراد بنفسه ، عاوده ذلك الإحساس الغريب بأنه يعيش حلما طال ، وقف خلف النافذة يرقب الأمواج ويستمع إلى هديرها فى استغراق ملك عليه حواسه . . . عندما - غادر مصر - من قبل - كان يعلم أنه لابد عائد إليها مهما طالت غيبته . . . لكنه هذه المرة راح يتساءل فى إلحاح : متى يعود مرة أخرى ؟ ! . . . وهل يعود أصلا أم يكون نصيبه حبل مشنقة يتدلى منه جسده فى قلب بيت العدو ؟ !

فى اليوم التالى كان حريصا على أن يلتقى بالخواجه شارل على مائدة الإفطار التى كان عادة مايتخلف عنها ، كان لابد أن يتبادلا حديثا مافتبادلاه . . . بدا رأفت ساهما فأدرك العجوز أن فى صدر الفتى مايريدأن يبوح به فطلب إلى زوجته أن تأمر السائق بتجهيز السيارة .

ايقنت السيدة سمحون أن ثمه حديثا يريد الرجلان أن يتبادلاه فنهضت على الفور مغادرة المكان . . . رفع رأفت رأسه نحو مسيو سمحون ، وكان هذا ينظر إليه نظرات شديدة الثبات . . . قال رأفت فى صوت هادىء وكلمات واضحة :

« لست أريد أن أشكرك على ماقدمته لى بالأمس ، ولكنى فقط أريد أن أقول إنى لن أنساه ! »

تشاغل العجوز بطعامه مغمغما :

« هذا كل ما أرجوه ! »

رشف الفتى من فنجان الشاى رشفة ثم قال :

« أعتقد أنه لابد لى من السفر إلى القاهرة لتصفية بعض الأعمال المعلقة ! »

توقف العجوز عن الطعام ملتفتا إليه . . . ساد الصمت لبرهة قال بعدها :

« إنى أفهم هذا جيدا ! »

بدت إجابته لرأفت غير شافية وكأنها لم تكتمل فلزم الصمت حتى استطردالعجوز :

«أعتقد أنى لست فى حاجة الى تحذيرك ! »

« مم ؟ ! »

هكذا تساءل رأفت فجاءه الجواب :

« يجب ألا يعرف أحد ما اتفقنا عليه بالأمس ! »

نظر إليه الفتى نظرة ساخرة ولاحت على شفتيه تلك الابتسامة التى تنبىء عن قدر صاحبها ، فمال مسيو سمحون نحوه مؤكدا فى همس :

« حتى من اليهود ! »

لمعت عينا الفتى بنظرة دهشة مستفسرة فعاد الرجل يقول :

« إنى حتى لم أخبر عائلتى ، ولن أخبرها حتى تصبح أنت فى مأمن ! »

خطا رأفت بالحوار الى نهايته :

« لن أغيب فى القاهرة أكثر من أسبوع ! »

«أريد أربع صور لاستخراج جواز السفر ! »

ضحك رأفت ساخرا وهو يدس يده فى جيبه قائلا :

«إنى أملك من هذه الصور عددا لابأس به ! »

قدم له الصور الأربع مستطردا :

« أرجو أن يكون حظ هذه الصور أحسن من سابقتها ! »

قال رأفت هذا وهو يناول الصور للرجل . . . فانتهى الحديث !!

●●●●

استمع محسن الى ماحمله إليه الفتى من أنباء صامتا . . . لا أحد يعرف ماالذى كان يدور فى صدر ورأس هذا الضابط الشاب فى ذلك الوقت ، فلقد اختار طريقا يجعل حتى التنبؤ بما كان يجول بخاطره ضربا من الرجم بالغيب . . . غير أن الذى لاشك فيه هو أن تفكيره كان يدور فى أرض الواقع المليئة بالألغام القابلة للانفجار فى أية لحظة ، والتى كان محسن يتحرك فيها بحذر بالغ . . .كان على علم كامل بما يجرى هناك ، على الحدود المصرية الفلسطينية . . . ذلك أن اسرائيل بعد انتصارها المريب على العرب فى عام ١٩٤٨ ، وبعد أن حققت بالشائعات والإعلام المدسوس ـ الذى وقع العرب والمصريون منهم فى حبائله ـ كما هائلا من الأساطير والحكايات حول قسوتهم وقوتهم وقدراتهم ، ثم ارتكنت على ضعف النظم العربية ، وكاد اسم

« اسرائيل المزعومة » يختفى تدريجيا من صفحات الصحف ، بعد أن غرقت مصر فى مشاكلها الداخلية التى راحت تتفجر مشكلة وراء مشكلة وسط مباذل حكم هش الأركان ، ثم . . . ثم عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، كان لابد للاسرائيليين من جس نبض هؤلاء الشبان الذين كان يتزعمهم ذلك البكباشي العنيد المسمى «جمال عبد الناصر» ، وعندما قامت اسرائيل ، كانت مصر محتلة بثمانين ألف جندى من جنود الامبراطورية ، الذين استقروا بعتادهم وعدتهم بطول قناة السويس ، وكان جيش الاحتلال هذا يشكل حاجزا بينها وبين المصريين . . . غير أنه الآن ، وفى تلك الظروف التى جدت بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا العظمى ، ومهما كان ماتحويه هذه الاتفاقية من بنود ، فلسوف تصبح المواجهة بين الاسرائيليين والمصريين صريحة بلا عائق فى القريب العاجل لا الآجل ! . . . وبعيدا عن آلاعيب السياسة وهى مشروعة ومتنوعة ، كان لابد من جس النبض عمليا عند الحدود . . . وبدلا من ذلك الهدوء الذى كانت تقابل به بعض العمليات الاسرائيلية من حكومات ماقبل الثورة ، فوجىء الاسرائيليون بردود فعل كان لابد من عمل حسابات دقيقة لها . . . خاصة أن الأنباء كانت قد جاءتها من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وايطاليا وألمانيا وهولاندا ، بأن هذا البكباشى يبحث عن السلاح فى كل مكان لجيشه الذى جاءتها الأنباء من الداخل ـ داخل مصر ـ تقول إنه أصبح يعده إعدادا حديثا وخاصا !

ولابد أن محسن ممتاز وهو يجلس فى ذلك اليوم إلى رأفت الهجان ، الذى كان يستعد فى حماس للقفز الى حلقة النار والبقاء فيها لسنوات لايعلم عددها إلا الله . . . لابد أنه كان يعرف كل هذا ، ويحسبه

بدقة ، وليس هنال أدنى شك ، فى أنه كان ـ على الوجه الآخر ـ سعيدا كل السعادة ، فلقد تحققت خطته ليس بأسرع مما تصور فقط ، بل وعلى الوجه الأكمل أيضا . . . وكان ـ وهو يتلقى آخر الأخبار من الفتى حول الحوار الذى دار بينه وبين مسيو سمحون ـ يريد أن يعطى نفسه الفرصة كى يرتب أفكاره . . . وهكذا ، ماإن انتهى رأفت من حديثه حتى فوجىء بمحسن يقول له :

« انت مش ناوى تزور شريفة ؟ ! »

خفق قلب رأفت خفقانا شديدا ، وابتسم ابتسامة عرفان للرجل الذى كان يدفعه نحو مخاطر بلا حدود ، لكنه فى نفس الوقت ، لم ينس عواطفه نحو شقيقته فقال صادقا :

« أنا خايف من المقابلة دى ! »

« مش ممكن تسافر من غير ماتشوفها ! »

« أنا عارف ! »

« ولازم تاخد هدية معاك لطارق ! »

لزم رأفت الصمت فسأله محسن :

« مالك ؟ ؟! »

« مش عارف حاقول لها ايه ؟ ! »

« قول لها إنك لقيت شغل فى دولة عربية ! »

كان الرد جاهزا بالطبع ، وبالطبع أيضا كان محسن قد فكر فى الأمر وبحث عن مخرج ، غير أن الفتى هب واقفا فى تذمر وهو يقول :

« البلاد العربية مابيروحهاش غير المدرسين ! »

« مين اللى قال ؟ ! »

« كل الدنيا عارفه ده ! ! »

« البلاد العربية فيها بترول دلوقت ، وانت لك خبرة فى شركات البترول ! »

اذن فهذا هو ساتر سفره امام أخته وعائلته إن فكر أحدهم فى السؤال عنه . . . كان ماقاله محسن طوق نجاة له فسرعان ما انفرجت اساريره . . . دس محسن يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج حافظة نقوده قائلا :

« أنا ماكنتش عامل حسابى ، انما دول خمسين جنيه تحت الحساب علشان تشترى هدية لطارق وهدية لشريفة كمان ! »

وضع الخمسين جنيها أمام الفتى وهو ينهض :

« مش لازم حد يشوفك دلوقت غير شريفة يارأفت ! »

اختفى اسم « ليڤى كوهين » من حديث محسن كما اختفى اسم «ياكوف بنيامين حنانيا» ، ولكن صوته اتخذ تلك السمة الصارمة غير القابلة لنقاش وهو يقول :

« كلمها فى التليفون بكره الصبح وروح لها بس ماتقعدش عندها كتير ! »

مضى محسن تاركا الفتى وحده فى ذلك المسكن الجديد الذى كان قد انتقل اليه منذ أن قابل الشابين اللذين التقيا به فى باريس . . . هرب من افكاره المحتدمة الى ذلك الاحساس الغامر بالسعادة لأنه سوف يرى شريفة أخيرا ، راح يرتب فى ذهنه ماالذى سيقوله لها وكيف سيقنعها بحجته الجديدة ، لاحت منه نظرة نحو الخمسين جنيها فاكتشف أنها لم تعد تعنى بالنسبة إليه شيئا ، تساءل فى عجب وهو يتناولها : كم تتقلص قيمة المال وتصغر كلما اقترب الانسان من أهداف نبيلة !

أما محسن فلقد كان ذهنه - فى ذلك الوقت - يعمل بسرعة وهو يقود سيارته الى حيث كان يعلم أنه قد يقضى الليل بطوله دون نوم ، كانت العجلة قد بدأت الدوران بسرعة. وكان عليه أن يوجهها نحو الهدف بدقة لاتخطىء . . . هو موقن أن حوارا سوف يدور بينه وبين حسن صقر ، وأن قرارات هامة لابد أن تتخذ ، وكان عليه أن يستعد لكل هذا !

●●●

جاء صوتها ملتاعا عبر سماعة التليفون :

« رأفت ! »

« ازيك ياشريفة ! »

« انت فين ؟ ! »

« أنا . . . . . . »

« وكنت فين طول المدة دى ؟ »

« أصل الشغـ . . . . »

«وبتتكلم منين ؟ ! »

« من شارع قصـ . . . . . . »

« شغلتنى عليك ! »

« ياشر . . . . »

« يعنى مش حاشوفك ؟ ! »

« امال انا باتكلم ليه ؟ ! »

اختنق صوتها ثم انفجر مغموسا فى دمع فيّاض :

« طب ماتيجى يارأفت دانت وحشتنى قوى ! »

«مسافة السكة حاكون عندك ! »

اعاد السماعة إلى مكانها وانصرف مهرولا قبل أن يغلبه الدمع أمام الناس !

. . . . وهـا هو التـاكسى يقـطع به الـطريق الى بيت شريفـة ، بجـواره بضعـة صنـاديق تحوى لعبا لطارق وفستانا لأخته شريفة . . . شقيقته الصغرى ، صدره الحنون بعد موت أمه ثم أبيه ، ذات مرة - وهى رضيعة - كان يلاعبها عندما صفعته بكفها الدقيق وهى تضحـك ، أمسـك بيدها وقبلها ، وكان لفرط حبه لتلك اليد التى صفعته ، يود لو أنه أكلها أكلا ! . . . عندما ماتت أمه لم تكن فى سن تسمـح لها بمعرفة ماهية الموت ، فراحت تبكى وتصرخ وقد أنشبت أظفارها فى لحم عنقه صائحة :

« ماما . . . فأفت . . فأفت . . ماما ! »

ظلت تناديه باسم « فأفت » سنوات وسنوات ، وحتى عندما كبرت وتـزوجـت ، كانـت إذا ما أرادت أن تداعبـه أو تدلـله نادتـه « فأفت » . . . طوتـه الـذكريات طيا حتى انتبه والسيارة تقف امام البـاب . . . نقـد السـائق أجره وطلب إليه أن ينتظره ، غادر السيارة فارتفعت رأسه الى أعلى وكانت شريفة هناك تطل عليه من شرفة بيتها ، لوح لها بيده باسما وحمل صناديق الهدايا وراح يصعد الدرج قفزا . . . كانت تقف بالباب وكان هو يرتجف بشوق عنيف ، تفجر الحنان فى قلبه كبراكين تنفث حمما من اللهفة ، اشتم فيها رائحة الأب وحنان الأم ، انحنى مسلما لها عنقه فغمرت وجهه بالقبلات ، تحت قدميه كان طارق يجذب سرواله صائحا فى سعادة :

« خاله فأفت . . خاله فأفت ! »

أى قدر هذا الذى يمزق الأخ بعيدا عن أخته ؟! . . . أجلسته فى الصالون وجلست إلى جواره تمطره بالأسئلة ولا تعطيه فرصة لإجابة واحدة ، تذكرت انها لم تقدم إليه شيئا فهرولت لتأتى له بزجاجة مثلجة ، مد يده الى الزجاجة ثم رفعها الى شفتيه كى يرطب بها فمه الذى جف لعابه وهو يهرب من نظراتها الفاحصة :

« إحكى لى ايه أخبارك وعملت ايه فى المدة اللى فاتت وانت دلوقت فين وايه الحكاية بالضبط ، مبسوط والا لأ،وازاى تغيب المدة دى كلها من غير ماتكلمنى ولاحتى تبعت لى جواب ؟ ! ! »

هم بالنطق لكنها لاحقته وكأنها تذكرت شيئا :

« وايه حكاية تذكرة الطيارة اللى بعت تطلبها من المانيا دى ؟ ! »

هم بالإجابة فصاحت مختنقة بدمع لم يجف :

« وايه اللى وداك المانيا يارأفت ؟ ! »

لم يكن أمامه سوى الصمت فلزمه . . . التقطت أنفاسها بصعوبة وجففت الدمع وارتفعت يدها تتحسس ذراعه فى رفق ثم جاء صوتها وسط صيحات طارق وهو يعالج لعبته الجديدة :

« ازيك يارأفت ؟ ! »

حاول أن يرد لكنه لم يستطع ، حاول أن يقول شيئا لكنه لم يجد مايقوله .

« مالك ساكت ليه ؟ ! »

« مش عارف أقول لك انتى واحشانى قد ايه ؟ ! »

قال هذا فانفجر الدمع من عينيها مدرارا ، غص حلقه وهو يتساءل بينه وبين نفسه : ماذا هى صانعة فيما هو قادم من سنين ؟ ! !

« شريفة ! ! »

من خلال الدمع ترقرق صوتها :

« أنا ماليش غيرك يارأفت !! »

« وأنا لى مين ؟ ! »

« طب مش تهدى بالله بقى وتقعد جنبى وتريح قلبى ؟ ! »

« خلاص يا ستى . . فرجت ! »

قال هذا وراح يحكى لها عن وظيفته الجديدة ، وكيف أن أحد مهندسى البترول الامريكيين الذين عمل معهم فى البحر الأحمر انتقل الى إحدى البلاد العربية فطلب إليه أن يصحبه . . . ورغم مشقة العمل فى الصحارى فلقد وافق . . . مازالت الشركة الجديدة تحت التأسيس ، وحتى المناطق التى سيعملون فيها لن تكون ثابتة فهم ينقبون عن البترول فى الصحارى الشاسعة . . . لكنه ـ ومهما كانت المشقة ـ عمل ثابت ، والمرتب كبير !

« يعنى مش حاقدر ابعت لك جوابات ؟ ! »

سيراسلها هو كلما كانت هناك فرصة ، لكنه يعد ـ عندما يستقر به الامر ـ أن يرسل لها عنوانه . . . راح الماضى ياشريفة الى غير رجعة ، ولن يعود مهما كان ومهما حدث ومهما كانت الظروف ، لقد تغير بالفعل وأصبح إنسانا آخر ولابد لها أن تصدقه ، وماسبب غيابه عنها طوال هذه المدة إلا انه اتخذ قرارابالاتراه إلا وقد تغير بالفعل ، ولقد طلب أن يراها اليوم حتى يطمئنها ويطلب إليها أن تثق به . . . المرتب المعروض عليه مجز ولن يمر عامان أو ثلاثة حتى يكون قد اقتصد مبلغا من المال سوف يعود به كى يفتتح مشروعا يبقيه الى جوارها الى الابد !

« يعنى انت مسافر تانى ؟ ! »

صوتها يصرخ بعتاب مر !

« فى خلال اسبوع ان شاء الله »

نظرت اليه طويلا وراحت تتأمله فترك لها نفسه وقلبه يتمزق ، كم سيفتقد هذا الوجه فى السنوات القادمة . . . ترى : هل قدر له أن يراها مرة اخرى أم ان هذه هى آخر مرة يرى فيها شريفة ؟ . . . تمنى لو أنه ضمها إلى صدره لكنه خشى أن تشك فى الأمر ، فى الماضى كانت الشهور تمضى دون أن يراها لكنها كانت فى متناول يده ، فكيف سيراها فى المستقبل وبينه وبينها آلاف الحواجز والموانع ؟ !

« يعنى انا مش حشوفك قبل سنتين ثلاثة ؟ ! »

« لأطبعا حاتبقى فيه أجازات ! »

« رأفت ! »

« نعم ياشريفة ! »

« أنت مخبى عنى إيه ؟ ! »

سقط قلبه بين ضلوعه ، فهذه هى شريفة تعريه حتى من اسراره الدفينة ! . . . لم يكن امامه سوى الابتسام وتطييب خاطرها والتشاغل بملاعبة طارق ، ولم يكن امامه سوى الانصراف قبل عودة زوجها . . . ولقد تحاشى تماما ـ وهو ينصرف ـ النظر اليها ! ! !

جاءه صوتها نائحاً وهو يخطف الدرج خطفا :

« مع السلامة يارأفت ! »

« الله يسلمك ! »

« خلى بالك من نفسك ! »

« ربنا يستر ! »

« ابقى طمنى عليك ! »

« حاضر ياشريفة ! »

« رأفت !! »

كان قد وصل الى نهاية السلم ، أوقفه نداؤها ، رفع رأسه اليها . . . كان نصفها الأعلى مدلى من فوق حاجز السلم ، رأى وجهها ساقطا فوق وجهه ، قالت بصوت مختنق متهدج :

« مع السلامة ! »

فانفلت يعدو الى السيارة التى كانت لاتزال فى انتظاره ، وقد غلبه الدمع هذه المرة ! ! !

●●●

يقينا سهر محسن ممتاز مع رئيسه وزميله حسن صقر فى تلك الليلة حتى مطلع النهار . . . واذا كنا نفتقد شهود عيان أو أدلة مادية تؤكد هذا الزعم ، فلقد كان لابد لنا من اللجوء الى التحليل واستقراء منطق الأشياء !

قبل بداية المناقشة ، وحسب مكانة الأولويات ، فلقد أجرى محسن ممتاز أمام حسن صقر ومن مكتبه الذى اجتمعا فيه ، مكالمة تليفونية عاجلة مع شخص يدعى « عبد الرحيم » فى مدينة الاسكندرية . . . كان واضحا أنه أحد رجاله فى مصلحة الجوازات والجنسية التى كان له فيها باع طويل ، لقد طلب إليه فى كلمات ملغزة الا توضع أية عراقيل مهما كانت أمام طلب استخراج جواز سفر باسم شخص يهودى يدعى : « ديفيد شارل سمحون » ، وأن تتم الموافقة فورا ، وبشكل روتينى وطبيعى للغاية ، على الطلب المقدم من هذا الشخص للسفر الى الخارج !

لم يكن هناك وقت ، وكان لابد من تجهيز رأفت بأسرع مايمكن . . . وعلى سبيل المثال ، فلقد كان على محسن أن يعلمه كيف يكتب خطابات سرية ، كان عليه أن يلقنه اسلوب الاتصال سواء بالبرق أو البريد اذا ماكان فى اسرائيل ، ثم هناك اسلوب آخر لتحديد المواعيد ، تلك الشفرة اللفظية التى كانت جاهزة منذ فترة ، واسلوب الاتصال فى المدن الأوربية التى يقع عليها الاختيار لمقابلته عندما يتقرر هذا أو عندما يحتاج رأفت الى هذا . . . ثم ، وقبل كل شىء عليه أن يلتقى - قبل أن يرحل - بمصطفى عبد العظيم !

كانا قليلى الخبرة . . . حقا ان حصيلتهما من « العلم » كانت تتزايد يوما بعد يوم وقراءتهما تتشعب وتتنوع ، وسيل الكتب والتجارب والتقارير السرية والمعلومات ينهال عليهما من الخارج بعد أن انفتحت أمام الرجال - بالمران والمراس والاحتكاك وتعدد المعارف - أبواب لم تكن تخطر ببال احدهم ! . . . ولقد وصل الأمر - فى منتصف هذا العام ١٩٥٥ - إلى أن مجموعة من الأساتذة المتخصصين كانوا قد بدأوا فى وضع برنامج تدريبى للضباط الشبان الذين كانوا ينتقون بعناية فائقة !

راحا يناقشان الموضوع من كل جوانبه ، ويقتلانه بحثا وتمحيصا . . . لكن المناقشة التى أخذت وقتا أطول من غيرها - هكذا قال محسن لعزيز الجبالى فيما بعد - كانت تدور حول طبيعة الساتر الذى سوف يعيش الفتى خلفه فى تل أبيب !

لم يكن الموضوع وليد الساعة بطبيعة الحال ، لكن المناقشات السابقة لم توصلهما إلى قرار حاسم بشأن هذا الموضوع . . . ذلك أن الساتر المثالى الذى ارتأياه ، بدا لهما باعثا على الشك !

واذا كان لابد لهذا الساتر أو الوظيفة أو العمل الذى كان على الفتى أن يمارسه هناك حتى تكون حياته طبيعية للغاية ، فلابد ان تكون فيه اجزاء من الواقع ومن حياة الفتى نفسه ... فلقد وجدا نفسيهما امام اربع حقائق هى : ان رأفت على سليمان الهجان الذى سيصبح اسمه من الأن فصاعدا «ديفيد شارل سمحون»، قد عمل كممثل لادوار صغيرة فى السينما ، وعمل كموظف ادارى فى شركات البترول ، ثم عمل بعد ذلك فى السياحة ، كما مارس التجارة فى الشهور الأخيرة !

استبعدا العمل فى السينما لأن اسرائيل فى ذلك الوقت لم تكن فيها صناعة للسينما ... كما استبعدت فكرة العمل فى مجال البترول لأن اراضى فلسطين ليست فيها حقول بترول ... ومن ثم فلقد أصبح الاختيار محصورا بين العمل فى مجال السياحة من ناحية ، ومجالات التجارة من ناحية أخرى !

ولقد تبدى لهما أن العمل فى السياحة هو انسب السواتر اليه ، ذلك أن هذا المجال يسهل له الخروج من اسرائيل فى أى وقت يشاء فيصبح الاتصال به غير محفوف بالشكوك ، فوق أن هذا المجال بالذات يعطيه الحق فى التجوال داخل البلاد كيفما يشاء مع افواج السياح أو حتى وحده ، وبذلك تتاح له فرصة تسقط المعلومات والأخبار من أى مكان :

بدت لهما السياحة أكثر السواتر مناسبة لرأفت الهجان أو « ديفيد شارل سمحون » ، لكن السياحة كانت تستلزم مالا يبدأ به الفتى مشروعه ، فمن أين لليفى كوهين ، أو ياكوف بنيامين حنانيا ، بالمال ؟ !

كانت هذه عقبة ، وكان عليهما أن يجدا مخرجا ، فراحا يقدحان ذهنيهما بحثا عن هذا المخرج !

بدا لهما الوقت ضيقا ، بل خانقا ...

وضعا شفرة مكونة من كلمات قليلة تفى بالغرض فى أضيق الحدود ، كان على رأفت ـ على سبيل المثال ـ اذا ماوصلته برقية تضرب له موعدا فى روما فى الساعة السادسة من مساء اليوم الثامن والعشرين ، ان يترجم هذا بتغيير روما الى باريس ،والسادسة الى الرابعة ، واليوم الثامن والعشرين الى اليوم الثلاثين .

كان على محسن ان يدربه على الكتابة السرية بواسطة شديدة البدائية ، لم تكن الأحبار السرية ـ التى برعت فيها المخابرات المصرية والاسرائيلية معا فيما بعد ، وتفوقتا فيها على كل دول العالم ـ معروفة ... وكان على الفتى أن يكتب خطاباته فوق ورق « زبدة » على أن يضع تحته ورقة بيضاء ، ذلك ان المادة الشحمية فى ورق الزبدة سوف تلتصق بالورقة البيضاء دون أن تظهر ، فاذا ما كتب فوق هذه الورقة البيضاء خطابا يحوى أى كلام بالحبر العادى ... ثم وصل الخطاب اليهما عبر مسالك بالقطع مركبة ، كان عليهما أن يسكبا فوق ورقة الخطاب البيضاء زجاجة حبر كى تتشربه فيما عدا تلك الكلمات المكتوبة بشحم ورق الزبدة ... وهكذا يقرآن الخطاب !

كانت الأساليب التى يتبعانها بدائية ، بل ودون مبالغة ، ساذجة ! ! ... ولكن ، أى طريق آخر كان باستطاعتهما أن يسلكاه ؟ !

الشىء الهام الذى استقر عليه رأياهما والصباح يقترب ، هو ألا

يكلف الفتى ، فى الفترة الأولى لذهابه ، بأى نوع من أنواع النشاط السرى ، بل ان يحظر عليه هذا حظرا تامـا .. وان يكـرس كل جهده ، وكل امكاناته ، فى بناء ذلك الساتر الذى كان عليه ان يعيش خلفـه ، وان يتعـرف على المجتمـع والنـاس . . . وان يتأقلم ويبنى علاقاته بحذر بالغ . . . ثم ، ثم إذا ما استقر له الأمر تماما ، اعطياه الضوء الاخضر كى يبدأ نشاطه !

•••

ارتد الفتى الى الخلف عندما رأى محسن يقف بالباب ـ فى الموعد تماما ـ ذلك أن محسن لم يكن وحده !

لم يخف رأفت دهشته وهو يصافح محسن وضيفه . . . استقر بهم المجلس فسأله محسن :

« رحت لشريفة ! »

« وياريتنى مارحت ! »

« أكيد تعبت يارأفت ! »

« ولسه تعبان لحد دلوقت ! »

ادرك الفتى ان هذا الوافد الجديد مع محسن على علم بكل شىء . . . كان شابا نحيلا أسمر الوجه لامع البشرة ذا شعر ناعم فاحم وشارب رقيق يجعله اقرب الى اثرياء الهنود منه الى المصريين ، رأى ملامحه تشع ابتسامة دائمة حتى ولو لم تبتسم شفتاه ، بدا أنيق الملبس حتى ليبدو وكأنه لوحة مرسومة لا انسانا يتحرك ويحيا . . . سألهما الفتى عما يشربان فطلب اليه محسن شايا مركزا على الطريقة الريفية ، فلقد كان فى حاجة الى تنبيه كل حواسه بعد ليلة شاقة ، ويوم كان اكثر مشقة . . . ما إن وضع الشاى بينهم حتى قال محسن باسلوبه

المستقيم :

« الأخ مصطفى عبد العظيم ! »

« أهلا وسهلا ! »

« الاخ مصطفى هو اللى حايبقى يقابلك بره ! »

فى لهفة هتف رأفت :

« وانت يامحسن بيه ؟ ! »

ضحك محسن صائحا :

« وهو انا فاضى لك ياأخينا ؟ ! »

تضاحك الثلاثة ثم ساد الصمت لثوان عاد محسن بعدها الى الحديث :

« طبعا انا حاجى علشان اشوفك ، لانك بالتأكيد حاتوحشنى ! »

عاد هذا الثعلب يعزف على اوتار عواطفه وكان لابد أن يلين .

« فيه شوية حاجات عاوزين نتفق عليها ونتعلمها ، وبيتهيألى إن مافيش وقت !! »

. . . .

. . . .

كان الليل قد انتصف منذ ساعة وبعض الساعة عندما قاطع رأفت محسن وهو يهتف :

« كل ده حلو يامحسن بيه بس شركة السياحة دى محتاجة لفلوس ! »

«طبعا !»

« وانت قلت لى ان اليهودى الفقير المهاجر لاسرائيل ، بيوزعوه على الموشاف أو الكيبوتز ! »

« ده صحيح ! »

«وانا بقى المفروض إنى على الحديدة ، ياكوف بنيامين حنانيا كان بيدور على شغل هنا ومكانش لاقى ياكل ! »

« تمام ! »

« يبقى حايوزعونى على الموشاف أو الكيبوتز ! »

« ده لو مكانش معاك فلوس تبدأ بيها !! »

«وليفى كوهين والا ياكوف حنانيا حايجيب فلوس منين ؟ ! »

« حاندبر الحكاية دى ! »

هم رأفت بالحديث فارتطم بكلمات محسن :

«قلنا حاندبر الحكاية دى ! ! »

فلزم الصمت ! !

. . . .

. . . .

فى اليوم التالى ، كانت هناك جلسة أخرى . . . امتدت الجلسة خمس ساعات متوالية ، قال رأفت بعدها :

«تفتكر الاسرائيليين مايعرفوش حكاية ورق الزبدة دى ؟ ! »

« طبعا عارفينها ! »

« ياخبر اسود !»

« مالك ؟ !»

« دول ممكن يكشفونى بالشكل ده ! »

« هم ممكن يكشفوك لو الجواب رايح لك . . . إنما حايكشفوك ازاى والجواب طالع من عندهم . . . دول لازم يراقبوا الكام مليون اللى عايشين فى اسرائيل علشان يوصلوا لك ! »

« معنى كده انكم مش حاتبعتوا لى جوابات أبداً ! »

ونبعت لك جوابات ليه ؟ ! . . . كل ماتوحشنا نبعث لك تلغراف عادى بيحدد لك ميعاد فى لندن يوم ١٨ الساعة ٩ صباحاً ! »

« يبقى معناها ان الميعاد فى بون يوم ١٦ الساعة حداشر الصبح ! »

« ولو كان الميعاد فى روما يوم سته الساعة ٤ بعد الظهر ؟ !»

«يبقى معناها ان الميعاد فى أثينا يوم أربعة الساعة ستة مساء ! »

. . . .

. . . .

لم يكن محسن ممتاز من هؤلاء الذين يدفنون رءوسهم فى الرمال هرباً من الحقيقة ، كان يعرف ان تلك الأساليب التى لقنها لرأفت وعلمه اياها اساليب شديدة البساطة ، بل البدائية ، لذلك لم يكن له هم سوى :

« خليك حريص مهما كانت المغريات ، وفتح عينيك كويس ، ولاتعملش اى حاجة غير انك تأسس الشركة وتشغلها وتعمل علاقات مع الناس وبس ! »

« واذا . . . . »

« مفيش اذا يارأفت ، سلامتك أهم من أى حاجة تانية ! ! »

كانا الآن يقفان كل منهما قبالة الآخر ومحسن يستعد للانصراف ، سرى بينهما تيار عاطفى غامض ، فقال محسن :

« وما تنساش لما تنزل من المركب فى نابولى ، إنك تدور على مكتب الوكالة اليهودية وتروح لهم وتقول لهم إنك عاوز تروح اسرائيل . . . »

همّ الفتى بالحديث فقال محسن :

« أنا ممكن اديك عنوان الوكالة ، لكن أنا عاوزك تدور عليه وتسأل

عنه فعلا ! ! »

« أكيد حايبقوا مزحومين قوى ! »

« بيتهيأ لك ! »

فى دهشة سأل رأفت :

« هم اليهود مش بيطلعوا من هنا على اسرائيل ؟ ! »

« أكيد فيه كام يهودى حايطلعوا معاك على نفس المركب ، إبقى شوف كام واحد فيهم حايروح اسرائيل ، ولما نتقابل ابقى احكى لى ! »

ابتسم رأفت قائلا :

« أنا حاشوفك فى اوربا ؟ ! »

« بالتاكيد لازم أجى أشوفك مع الأخ مصطفى ! »

ساد الصمت بينهما وكانا لايزالان فى مكانهما بالقرب من باب المسكن ، أحس رأفت بالحنين إلى محسن قبل أن يغيب هذا عنه !

« على العموم احنا حانتقابل فى اسكندرية قبل ما تسافر زى ما اتفقنا ! »

« بس حكاية فلوس شركة السياحة دى مخليانى قلقان حبتين ! »

« ماتقلقش . . . سيب الحاجات دى على ، وخلى بالك انت من نفسك »

ولم يكن هناك مايمكن أن يقال ، مد محسن يده إلى رأفت فتصافحا فى حرارة . . . وكانا على موعد فى الاسكندرية بعد يومين فقط ، فلقد كانا يعلمان أن الوقت يجرى بسرعة !

●●●

عندما عاد الفتى الى الاسكندرية كانت ستة أيام قد انقضت فى عمل متصل وتدريب شاق ، لكنه ـ وهو يركب قطار الاكسبريس الذى

راح ينهب الطريق بين حقول الدلتا ـ كان يشعر بأنه تغير كثيراً ، وأن ثمة أشياء جديدة وهائلة قد أضيفت إليه . . . هرب من التفكير فى شريفة وطارق وراح يصبو بذهنه إلى ماهو قادم من أيام . . . شىء غريب لفت نظر الفتى ، فلقد كان يعلم علم اليقين أنه ذاهب إلى حيث قد لا يعود ، ورغم هذا ، فهو لم يكن خائفاً !! . . . قد يكون ، فى أعماقه ، عصبياً بعض الشىء ، لكنه ليس خائفا !

الأغرب من هذا ، أنه كان سعيدا بذلك الإحساس الغامر بأنه ذاهب إليهم كى ينازلهم فى عقر دارهم ! . . . كان الآن بعد أن عرفهم وخبرهم يعلم أنهم يستعملون كل أسلحتهم وأمضاها ضد وطنه ، وكان سعيداً لانه سوف يستعمل أسلحته وملكاته كلها ضدهم ، ولسوف ينتصر ! !

●●●

كانت « ماجى » ثائرة عندما وصل رأفت الى بيت « مسيو سمحون » بعد ظهر ذلك اليوم من أيام يونيو عام ١٩٥٥ ، كان الفتى قد غادر البيت ـ يوم غادره ـ دون أن يودعها ، ولقد ظنت فى البداية أنه فى نزهة أو جولة من جولاته ، لكنها عندما علمت بسفره الى القاهرة ثارت ثورة عارمة وقررت اللحاق به . . . لكنها تراجعت عن قرارها عندما صوب إليها أبوها تلك النظرة الباردة وهو يطلب إليها أن تكف عن هذا العبث . . . فرجل مثل « ياكوف » يحمل على كتفيه مسئولية جسيمة ، وكان عليها ـ ان كانت تحبه حقاً ـ أن تحترم هذه المسئولية !

عندما وصل استقبلته العائلة استقبالاً حافلاً ، قضى معهم فترة ما بعد الظهر حتى حان موعد العشاء . . . بعد العشاء حمل مسيو سمحون كأسه ثم دعاه الى غرفة المكتب . . . طوال الساعات التى

مضت كان الثرى العجوز يتجنب الحديث معه فى أى شىء ، ورغم أن الفتى كان مشوقاً لأن يعرف نتائج سعى الرجل فى استخراج جواز السـفـر والحصـول على تأشـيرة خروج باسـم « ديفيد شارل سمحون » . . . فإنه لزم الصمت هو الآخر ولم يسأل !

أغلق الفتى باب غرفة المكتب وسار العجوز إلى مكتبه ، تقدم الفتى من المقعد الذى تعود الجلوس فيه أمام الرجل فى الوقت الذى كان السيد سمحـون يفتح درج مكتبه ، هم رأفت بالجلوس عندما سقط أمامه ، فوق المكتب ، جواز سفر ! . . . لاحت على وجهه دهشة صادقة وهو يمد يده نحو الجواز ملتقطا إياه فى لهفة قائلا :

« بهذه السرعة ؟ ! »

« إنى دائما ما أنجز أعمالى بدقة ودون تأخير ! »

صاح الفتى وهو يقلب فى صفحات الجواز :

« لقد حصلت على تأشيرة الخروج ! »

قال الرجل وهو يسير الى مقعده المفضل حاملاً كأسه :

«لم يعد باقيا سوى أن تحدد موعد السفر قبل مضى أسبوعين ، والا اضطررنا إلى طلب تأشيرة خروج جديدة ! »

« سأذهب اذن فى الصباح للسؤال عن السفن التى ستقلع إلى اوربا فى الأيام القادمة ! »

« لا تجشم نفسك عناء هذا ! »

قال العجوز هذا وهو يمد يده الى ورقة مطوية فوق المكتب ، قدمها إلى الفتى مستطرداً :

«هـاهـو جدول بمـواعيد كل السفن المقلعـة الى أوربـا خلال الاسبوعين القادمين ! »

ساد الصمت فلقد كان العجوز يشعل الآن سيجاراً . . . نفث الدخان فى هواء الغرفة وراح يتتبعه ثم قال فجأة :

« إن ماجى متيمة بك ! »

كان ماقاله الرجل مفاجأة لم يتوقعها الفتى لكنه هتف :

« أعرف هذا ! »

صمت لثوان عاد بعدها إلى الحديث :

« أعرف هذا وإن كنت لا أستطيع أن أصنع شيئا ! »

أطال العجوز النظر إليه كمن يطلب تفسيرا ، فاستطرد الفتى :

« إن حياتى غير مستقرة كما تعلم . . . ثم انى ذاهب الى مجهول لا أعرفه . . . قد يكون الأمر حسناً فى اسرائيل وقد لايكون ، فكيف أربطها بعجلة غير مستقرة الدوران ؟ ! ! ! »

التمعت فى عينى العجوز نظرة رضا لم تخطئها عين الفتى .

« إننا لم نتحدث عما ستفعل ! »

« كنت أظن أنه معروف تماماً أنى ذاهب الى اسرائيل ! »

« ليس هذا ما أقصده . . . انى أسألك عما ستفعل هناك ! »

« لست أدرى على وجه اليقين وإن كانت هناك أفكار تراودنى ! »

« مثل ؟ ! »

« إن لى خبرة لابأس بها فى السياحة ! »

« هل تريد العمل فى إحدى شركات السياحة ؟ ! »

« لم أتعود أن أكون مرءوسا لأحد ! ! »

« اذن فلسوف تفتح مكتبا أو تنشىء شركة ! »

« هذه هى العقبة ! »

دس العجوز يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج مظروفاً قدمه إلى

الفتى قائلا :

« هذا شيك بخمسة عشر الف دولار ، وهى كافية تماماً لانشاء شركة محترمة فى تل أبيب ! »

جمد رأفت فى جلسته ذاهلاً ، كانت المفاجاة أقوى من كل توقعاته ... لاح له وجه محسن ممتاز وهو يقول فى إصرار : « حاندبر الحكاية دى » ... ولطالما ألح عليه بالحديث حول أمر التمويل لكنه كان يرجئه لسبب بدا له غامضا ، فهل كان يتوقع مافعله الخواجة سمحون ؟!

« ألا تريد النقود ؟ ! »

كانت يد الرجل ممدودة بينما ظل رأفت جامدا فى مكانه ... وجد نفسه أخيراً فقال دون أن تمتد يده الى المال :

« لقد فعلت من أجلى الكثير ! »

« لكل شىء ثمن ! »

انتبهت حواس الفتى :

« وما هو الثمن ؟ ! »

« ألا تغير اسمك ... أن تظل ديفيد شارل سمحون ! »

ولم يرد الفتى ، قال :

« هذا وعد !! »

•••

مالت الشمس نحو الغروب واصطبغت مياه البحر بلون قان ، وكان محسن يجلس مع الفتى فى الشرفة الخشبية لاحدى كبائن شاطىء سيدى بشر رقم واحد ... كان عدد المصطافين قليلا ، فامتحانات

المدارس لم تكن قد بدأت بعد وكان باقيا على موسم الاجازة الصيفية شهر أو بعض الشهر !

قال محسن فى بساطة إنه أخّر مسألة تمويل شركة السياحة لأنه كان يتوقع ـ وإن لم يكن واثقاً ـ أن يفعل الثرى العجوز مافعله ، لا لشىء ، إلا لأن الأمر الآن سيصبح أكثر طبيعية ولن يبعث على أدنى درجة من الشكوك أو الخطورة ... لقد كان جاهزاً بالمال وكانت الحجة صلبة وسليمة ومأمونة فى نفس الوقت ... واذا كان الفتى قد عمل على تهريب أموال بعض اليهود من مصر فلقد كان يتقاضى منهم عمولة لما كان يفعله ، وبإحصائية بسيطة ، كان من الممكن للفتى أن يقتصد فى الشهور الأخير مبلغا يقارب المبلغ الذى أعطاه إياه السيد سمحون !

وقع الاختيار على السفينة الايطالية « اسبريا » كى يرحل عليها الفتى لأنها كانت تسير على خط ملاحى منتظم فيما بين الاسكندرية ونابولى ... وسوف يتيح له موعد إبحار السفينة فرصة أطول كى يبقى فى مصر ... سيكون هذا هو لقاؤهما الأخير فوق أرض الوطن فهذا أفضل من الناحية الأمنية ، وعليه أن يزداد تأقلماً وسط عائلة السيد سمحون ، فحياته وسطهم سوف تفصله ، ولو بالخيال عن مصر ... حتى إذا ما حان وقت الرحيل ، كان الأمر أقل مشقة ! !

أخرج الفتى مظروفاً مغلقاً من جيبه كتب عليه بخط واضح : « لايفتح إلا بعد موتى ! ! » وكان التوقيع « رأفت الهجان » قدم المظروف المغلق إلى محسن وهو يقول :

« ممكن تخلى الجواب ده عندك ؟ ! »

قرأ محسن ماكتبه الفتى فوق المظروف ، فرفع إليه عينين مليئتين

بالعتاب .. هتف الفتى :

« الأعمار بيد الله يامحسن بيه !! »

أطرق محسن صامتاً وهو يدس المظروف فى جيبه ، فقال الفتى بصوت مغموس فى عواطف فياضة :

« انت وعدت إنك حاتجينى مع مصطفى بيه ! »

« وحاوفى بوعدى إن شاء الله ! »

« مش عاوز تقول لى حاجة تانية ؟ ! »

« أيوه ... فيه حاجة مهمة عاوز أقول لك عليها ! »

« ايه هى ؟ ! »

« مصر أمانة فى ايديك يارأفت !! »

« وأنا رقبتى سدادة ! »

ولأول مرة ....

لأول مرة منذ أن التقى الفتى بهذا الضابط الشاب ، يغمره ذلك الفيض من الانفعالات والعواطف ، وهو يسلم نفسه لذراعى محسن المفرودتين بكل اتساعهما ... ضم كل منهما الآخر فى عنف من يريد أن يحتفظ بصاحبه داخل صدره ... استسلم الفتى لتلك اللحظات فى سعادة قال عنها فيما بعد ، إنها كانت ذروة من ذرا حياته ، قال الفتى وهو يخطو مغادراً الكابينة :

« أشوفك بخير ! »

« خلى بالك من نفسك يارأفت ... البلد محتاجة لك ! »

وكانت هذه هى آخر الكلمات التى سمعها رأفت على سليمان الهجان ، من محسن ممتاز قبل الرحيل !!!

●●●

قال له محسن كثيرا إنه سوف يشعر بالخوف فى البداية ، وإن هذا أمر طبيعى ، وإن عليه ، كى يقاوم الخوف ان يندمج تماماً فى حياته الجديدة ... لكنه ابداً لم يشعر بالخوف حتى وهو يخطو صاعداً سلم السفينة « اسبريا » فى طريقه الى مجهول يفغر فاه ... على الرصيف ، وكما توقع محسن ، التقى بالعديد من يهود مصر الذين سيسافرون معه ، كان من بينهم « سوسو ليڤى » تاجر الساعات بالعتبة الخضراء ، والذى كان قد باع دكانه وصفى أعماله ... بدا الفتى لهم غريباً ، كان أنيقا يرتدى أفخر الثياب ، كان متورد الوجه وقد اختفى ذلك الشحوب الذى ينبىء عن حياة شاقة ، لكن دهشتهم اختفت وهم يرون عائلة سمحون فى وداعه ، كان هناك المليونير اليهودى وزوجته وابنتاه ، وكانت احداهما تبكى بلا توقف وقد تعلقت بذراعه ... ثم سرى الهمس بين الجميع بأن « ليڤى كوهين » الذى اسمه الحقيقى « ياكوف بنيامين حنانيا » ، يخرج من مصر تحت ستار أنه « ديڤيد شارل سمحون » ... وكان لابد من احترام هذا احتراماً رفيعاً ، وعندما حانت لحظة الوداع تعلقت « ماجى » بعنقه وانفجرت فى النحيب ، قبلته أختها فى وجنتيه كما قبلته أمها ، وصافحه الأب بحرارة ، لكنه مالبث أن ضمه إليه ... وهاهو يصعد سلم السفينة الى حيث كان أحد ضباطها فى انتظاره ، وقد عرف أن هذا السيد الصاعد من ركاب الدرجة الأولى ... حمل البحارة حقيبته إلى كابينته فى الطابق الثالث ، لكنه آثر الوقوف بعض الوقت مع مجموعات اليهود التى تناثرت فوق السطح وهم يثرثرون ويضحكون ويتصايحون بالنكات والسخرية من مصر والمصريين ... كانوا ـ الآن ـ يقفون فوق أرض أجنبية ، ولايستطيع أحد من المصريين بهم شيئا ، حاول أن يجاريهم لكنه لم

يستطع ، تركهم متسللا إلى الطابق العلوى . . . فى الممر الظليل الذى يطل على رصيف الميناء سار ، ولم يكن يعرف الى أين هو ذاهب ، ولم يكن هناك هدف يسعى إليه الا الابتعاد عن هؤلاء الذين عاشوا فى بلاده وتمرغوا فى خيراتها وخيرات شعبها وطيبة قلبه ، ثم تصبح أولى كلماتهم وهم يغادرونها سباً وهتكاً لعرضها ! !

الآن يستطيع القول إن بحوراً وبحوراً أصبحت تفصل بينه وبين شريفة !

أكد له محسن أنه سوف يشعر بالخوف فلم لايشعر به ؟!

دوت صفارة السفينة معلنة وقت الرحيل ، فنشط البحارة على السطح وفوق الرصيف سواء بسواء ، تعالت الصيحات وشملت السفينة حركت راحت تدب بعنف أخذ يتصاعد حتى تحركت مبتعدة عن الرصيف الذى تشبثت به عيناه ، كانت « ماجى » تلوح بمنديل أبيض ودمعها ينهمر بغزارة ، راح يلوح لها وهو يسبح بعينيه فوق الوجوه فهى آخر من سوف يراه فوق أرض مصر ، فى لحظة مجنونة ارتج حتى الأعماق وكأن صاعقة قد أصابته ، جحظت عيناه وفغر فاه وهو يحملق فى الرصيف !

كان محسن هناك ! !

أمامه مباشرة ، خلف عائلة سمحون تماماً ، هم بأن يلوح له وهو ينتفض لكنه تراجع ، فكيف يصبح وداع الأصدقاء حراماً ؟ !

دوت صفارة السفينة مرة أخرى بنغمة خاصة فرفع كل من فوق الرصيف أيديهم ملوحين مودعين ، كما رفع كل من فوق سطح السفينة أذرعهم ملوحين مودعين ، وكانت عائلة سمحون بكاملها تلوح له ، خلفها كان محسن يلوح هو الآخر ، فرفع يده وأخذ يلوح له . . . لم يكن

يرى سواه ، وكان كل منهما يلوح للآخر . . . حتى أصبح نقطة بعيدة المنال !

. . . .

. . . .

عندما كانت السفينة اسبريا تعبر بوغاز ميناء الاسكندرية فى طريقها إلى عرض البحر اللانهائى هبت الريح فتمايلت السفينه يمنة ويسرة ، وحمل الهواء جيوشاً من رذاذ الماء راح يلطم وجه الفتى وكأنها إبر ناعمة الملمس فارتجف . . . ضم ذراعيه امام صدره وهو يستشعر شيئاً غريبا فى اعماقه ، شيئا كالثعبان كان يتلوى فى لاوعيه بازغاً الى الوعى فى إصرار منكود ، استغرق الفتى فى النظر الى مياه البحر الزرقاء وهو يستسلم لهذا الاحساس الذى ، ما أن انتبه إليه ، حتى سرت فى جسده قشعريرة طاغية . . . فلقد اكتشف انه الآن ، والآن فقط ، كان يشعر بالخوف عملاقاً مهولا راح يجتاحه اجتياحاً !

●●●

كان الليل قد هبط على القاهرة واضيئت أنوار الشوارع عندما وقفت « فراو سمحون » بباب المبنى الرئيسى لجهاز المخابرات العامة المصرية . . . بجوارها كان يقف عزيز الجبالى وقد بدا عليه الإرهاق الشديد ، قالت قبل أن تدلف الى السيارة السوداء الالمانية الصنع التى خصصت لها منذ أن هبطت أرض مصر : إنها تشعر وكأنها عاشت فى يومين سنوات بكاملها . . . ثم أبدت دهشتها البالغة من حدة ذاكرة عزيز الجبالى ، قالت باسمة :

« كان يخيل إلى فى بعض الأحيان انك لا تسترسل فى الحديث

بتلقائية . . لقد كنت تحكى وكأنك تقرأ كتاباً مفتوحاً ! »

ضحك عزيز موضحاً :

« لقد قصصت عليك مالم أعشه ، فلقد كنت فى تلك السنين ملازماً فى الجيش المصرى ! »

تنهدت هيلين سمحون وهى تستعد لركوب السيارة قائلة :

« على كل لقد كانت هذه قصة رأفت الهجان . . . أليس كذلك ؟ ! »

بدت الدهشة فى عينى عزيز وهو يتساءل :

« ماذا تقصدين فراو سمحون ؟ ! »

« إنى فى انتظار الغد . . . كى أسمع قصة ديڤيد شارل سمحون ! »

قالت هذا وهى تدلف إلى السيارة التى انطلقت بها جوف الليل ، الى حيث مقرها السرى فى مصر الجديدة !

٣٩٨٣٦

رأفت الهجان

اثار النجاح الكبير الذي حققته رواية «رأفت الهجان»، عندما نشرت مسلسلة في مجلة المصور القاهرية، وجريدة الشرق الاوسط اللندنية في نفس الوقت، الكثير من الجدل في الاوساط الادبية والثقافية... فبعيداً عن هذا الكم الهائل من الاسرار التي كشفت عنه الرواية في تلك الحرب الخفية والمستعرة بين مصر واسرائيل، فإن الاسلوب الذي تناول به الاستاذ صالح مرسي احداث هذه القصة الواقعية، وتلك الاضافات الفنية التي اراد لها ان تمتزج بالواقع امتزاجاً كيمائياً ـ على حد قوله ـ ارتفع بالفعل كله الى مستوى العمل الفني الخالص... وكان أن انقسمت الآراء حول «رأفت الهجان»، كما انقسمت قبل ذلك حول رائعته السابقة «الحفار»!

فمن قائل ان مثل هذه الأعمال لا تندرج تحت راية الادب بمفهومة التقليدي والمحافظ ـ إن صح التعبير ـ ومن قائل إن هذا نوع من الأدب لم نتعود عليه في العالم العربي بعد، وإن كان في البلدان الاكثر تقدماً أدباً معترفاً به في المحافل الأدبية والثقافية.

وعلى كل... ففوق كل هذا، فلقد كان «رأفت الهجان» بطلا من نوع فريد وفذ... اعطى لوطنه ولامته العربية، كل شبابه وكهولته وحتى لاقى ربه، دون أن يشعر به، أو يعرف عنه احد شيء، سوى قلة قليلة من هؤلاء الرجال الذين نذروا حياتهم لمصر، وللأمة العربية!

00039836